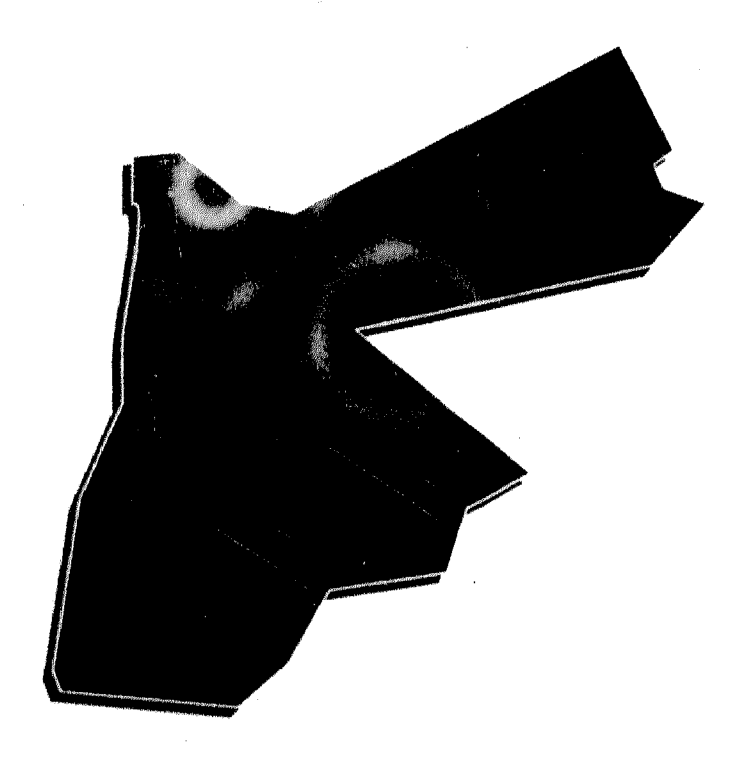
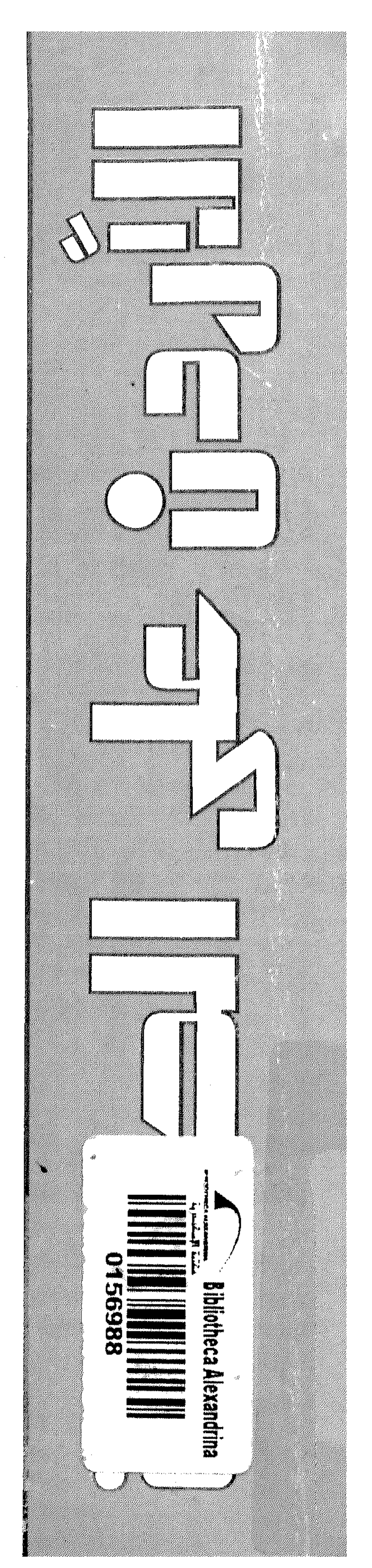






تأليـــف

السير تشارلز جونستون

(السفير البريطاني السابق في عمان)

(١٩٥٦ - ١٩٦٠)

ترجمة وتعريب

الدكتور فهمي شما





الأردن على الحافة

☆ الاردن على الحافة
☆ تشارلز جونستون
☆ ترجمة: فهمي الدكتور فهمي شما
☆ الطبعة الثانية
☆ سنة الطبع ١٩٩٦

الناشر: وزارة الثقافـــــــة
عمان / الأردن
شارع وصفي ألتل
ص.ب ٦١٤٠
هاتف: ٦٩٦٢١٨، ٦٩٦٥٨٨ ،٦٩٧٦٨٧، ٦٩٧٣٥٩
فاكس: ٦٩٦٥٩٨

اهداءات ١٩٩٨
المعهد الدبلوماسي الأردني
الأردن

منشورات وزارة الثقافة

الأردن على الحافة

تأليـــف

السير تشارلز جونستون

(السفير البريطاني السابق في عمان)

(١٩٥٦ - ١٩٦٠)

ترجمة وتعريب

الدكتور فهمي شما

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان ١٩٩٦

رقم التصنيف: ٩٥٦٫٥

المؤلف ومن هو في حكمه: تشارلز جونستون، ترجمة فهمي شما

عنوان المصنّف: الأردن على الحافة

رؤوس الموضوعات: ١- التاريخ والجغرافيا

٢- الأردن التاريخ

رقم الإيـــداع: (٥١٣/٤/١٩٩٦)

الملاحظـــات: عمان: وزارة الثقافة

☆ تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(٥١٣ / ٤ / ١٩٩٦)

☆ الصف الضوئي والإخراج: ميساء شريم / ناجح دحبور / محمد يعقوب - قسم الكمبيوتر /وزارة الثقافة ☆ عدد النسخ (٢٠٠٠) نسخة.

☆ الطباعة : مطابع الدستور التجارية



المملكة الأردنية الهاشمية
١٩٦٠
سوريا



* الاهـــداء*

الى الأم البارة العطوف المغفور لها (الملكة زين الشرف)

التي أنجبت الرجال العظام،

وكانت وراء رجل عظيم.



كلمة المترجم

كان سفراء الدول المعتمدون لدى الحكومات الاخرى فيما مضى ينتخبهم الخليفة أو السلطان أو الملك او رئيس الدولة، وكان يتم اختيارهم بمنتهى الدقة والحذر، بحيث تتوافر فيهم ميزات كثيرة، وكان على السفير الذي يقع عليه الاختيار لتمثيل بلده في الخارج ان يكون، مثلاً، منحدراً من عائلة او قبيلة ذات مجد، وان يكون واسع الاطلاع، عالماً باخبار وتاريخ الامم، نزيهاً وعادلاً في تصرفاته، مطلعاً على الاصول «الدبلوماسية». .

وكانت الدول وما زالت تولي اهمية كبرى لهذا المنصب، ذلك ان السفير هو الذي يمثل الملك او رئيس الدولة، والبلاد التي جاء منها، فكان من الواجب ان يكون المرآة الصافية التي تعكس اخلاق، وتصرفات، وسمعة، وقدرة، وحكمة، وسياسة البلد الذي يمثله خارج بلده. ثم تطورت مراسم انتخاب السفير، بتطور العصور وازدهار العلم والحضارة، ولكن ما زالت معظم تلك الاسس التي ورد ذكرها والتي ينتخب بموجبها السفير، قائمة الى يومنا هذا، باستثناء بعض الدول الصغرى التي تخطت تلك القواعد، فاصبحت الحكومة او الاحزاب الحاكمة في اية دولة، تعين السفير، اما لابعاده عن بلده دون الاساءة اليه او تجنباً لشرّه، او ارضاء لفئة تفرض ارادتها على الدولة، او تكريماً له لما قام به من خدمات جليلة لبلده، فكافاته بمنصب السفير المبجل في دولة كبيرة متحضرة، او انه تقاعد من منصب عسكري كبير فبعث به سفيراً للخارج، اعترافاً من الدولة له بماضيه العسكري المشرف، وإخلاصه المتفاني لبلده، او غير ذلك مما يجدر حصره في هذا الميدان .

وكان المفضل بين السفراء في الازمنة الغابرة، إما الأديب الحاضر البديهة أو الشاعر، أو الكاتب، ثم صاحب القيافة الأنيقة والطلعة الجذابة ...

وصاحبنا الذي أترجم له اليوم كتابه من الانجليزية الى العربية، السير تشارلز جونستون (SIR CHARLES JOHNSTONE) جمع صفات كثيرة مما سبق ذكره، فهو رجل مثقف، ينحدر من عائلة محترمة، ومتزوج من اميرة روسية سابقة، وقد خدم في السلك السياسي سنوات طويلة اكتسب خلالها خبرة كبيرة في أخلاق الشعوب وتصرفات الحكام، وعادات وتقاليد تلك الدول التي عمل بها ممثلاً لبلاده . ولقد آثرت أن اترجم هذا الكتاب لمعرفتي بالرجل، ومعاصرتي لتلك الاحداث التي مرت بالبلد، وذلك عندما كان جلالة الملك حسين قد تسلم حديثاً سلطاته الدستورية، اي قبل تعيين السير تشارلز سفيراً للاردن بثلاث سنوات فقط.

وكانت تلك الفترة، عصيبة مضطربة في تاريخ المنطقة، وكان الأردن بقيادة جلالة الملك الحسين يعمل جاهداً على الاستقرار، مجابهاً جميع التحديات المختلفة، مناضلاً من أجل الحفاظ على كيانه في احلك واصعب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــــــة! ..

ولعل ما حفزني الى ترجمة هذا الكتاب هو الابداع في وصف الامواج الهائلة من الاحداث المتلاحقة، سياسية كانت أم اقتصادية، والتي كادت تودي بهذا البلد، لولا الحكمة الموروثة والحنكة السياسية المبكرة، التي اتصف بها جلالة الملك الحسين، فهو قد أدرك ببعد نظره كيف يدفع الأخطار عن بلده، وكيف يجنبه الزلل والسقوط في الهاوية، ولقد سار بالاردن بحنكة الربان القوي الواثق من نفسه، المؤمن بوطنه وشعبه وعقيدته . ورأى السير تشارلز جونستون أن هذه الفترة من تاريخ الأردن والعالم العربي تستحق التسجيل، ولكن بأسلوب تاريخي فلسفي، فقام بتأليف هذا الكتاب وأسماه «الأردن على الحافة» (The Brink of Jordan) وهنا يجدر بنا أن نذكر بأن المؤلف يمتاز بدقة الوصف وعمق الاحساس الشاعري القصصي فهو فيلسوف في الوصف الدقيق واشتهر في جميع مؤلفاته بالخيال والواقعية الممتازة، وبعـد، فإن ترجمتي لهذا الكتاب لا تعني موافقتي الخالصة على كل ما جاءَ فيه، فلقد كانت انطباعات الرجل تنعكس من خلال مواطنته البريطانية المحضة، مع انه انتقد بريطانيا نفسها في بعض الفصول انتقاداً عابراً، الا أنه أعاد الكرة تلو الكرة يمدح بريطانيا ويعزو لها الفضل الاكبر في محافظة الاردن على صموده، كما كان يفعل الأمريكيون

كلما قدموا مساعدة مالية أو عسكرية !! .. ، وكذلك كانت فلسفة المؤلف لاحداث القصة واشخاصها مبنية على امرين، اولهما بصفته السفير البريطاني، وثانيهما لاعتماده على الانعكاسات التي صورت انطباعاته النفسية وبلورت آراءه الخاصة النابعة من مسؤوليته الرسمية ومن تجاربه الشخصية ايضاً . ومهما يكن الامر، فإنك تكاد تلمس بين السطور اخلاص الرجل العميق، وإيمانه الشديد بصحة اجتهاده، واخيراً، لقد صدق حدس صاحبنا وبعد نظره، ذلك ان نتائج احداث هذه القصة عاشت معنا حتى يومنا هذا !! . وبالفعل فقد تحقق السلام بين اسرائيل ومختلف الدول العربية الاخرى واولها مصر، وهي اكبر دولة عربية في المنطقة وتبعها بعد ذلك منظمة التحرير الفلسطينية، وما تزال المفاوضات جارية مع سورية ولبنان . واود ان الخص مجمل ما جاءَ بهذا الكتاب ان موضوعه يمكن إجماله بكلمتين اولهما دور جلالة الملك الحسين وثانيهما دور ملاحظات ادبية فلسفية منمقة من كاتب كبير له مؤلفات متميزة في عالم السياسة والادب. والسير تشارلز يمتلك خيالاً رائعاً وتصوراً بارعاً لجميع مجريات الامور التي وقعت في الاردن اثناء توليه مهامه كسفير لبريطانيا في الاردن.

ولقد حصلت من السير تشارلز رسمياً على حق الترجمة والنشر بالتصرف المعقول.. وإني اذ اقدمه لقراء العربية، لارجو ان يتقبلوه قبولاً علمياً وواقعياً، ويفيدوا من تجاربنا الماضية مع الغرب ومع الشرق على السواء، متطلعين الى مصلحتهم الشخصية الوطنية.

ولا يسعني الا ان انوه بتشجيع ودعم معالي الاستاذ المهندس سمير الحباشنة وزير الثقافة وامين عام الوزارة الاستاذ محمد ناجي العمايرة اللذين تفضلا بالإيعاز لإعادة طبع هذا الكتاب آملاً ان يجد القراء فيه صورة من تلك الحقبة الهامة والمصيرية من تاريخ الاردن الحديث تحت القيادة الهاشمية الشجاعة والمحنكة.

والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق،

د. فهمــــــي شمـــــا



تقديـــــم

(بقلم السير هارولد ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا الاسبق)

لقد حقق «تشارلز جونستون» غايته بان أمّن لنفسه مكانة مرموقة في قائمة السفراء العظام الذين مثلوا بريطانيا فيما وراء البحار. ومع وجود الأحداث المتقلبة في هذه الايام، والعقبات التي تعترض سرعة الإتصالات، فان ذلك يجعل الامر بعيد الإحتمال على اي إنسان أن يستعيد تمثيل الدور الهائل الذي لعبه «ستراد‌فورد كاننج» (STEADFORD CANNHNG)[1] مثلاً، إلا انه من الخطأ الفاحش أن نفترض بان «العمل الدبلوماسي» في المكان المعين، لا يقوم إلا بدور متواضع فقط !! ...

ولا يقتصر عمل السفير البريطاني، كما يعتقد الكثير من الناس، على القيام بدور روتيني فحسب، الا وهو إيصال الرسائل الى الحكومة المحلية، (ويجوز لنا أن نفترض بان ممثلي بريطانيا في عدة مراكز يقنعون انفسهم بالقيام بهذا الدور، مضافاً اليه بعض الواجبات الإجتماعية الدورية المستحبة)، ولكن هناك عدداً كبيراً آخر من السفراء الذين يتميزون بالخلق وبالشخصية القوية عند الضرورة لاتخاذ القرارات الحاسمة.

ويناط بالسفير مهمتان؛ فمن الواجب ان يكون قادراً على المثابرة، ثابتاً وموجزاً في رسائله، ويعرف كيف يقدم قضيته بل وكيف يفرض إرادته على جناحي «داوننغ ستريت [٢]»، ويجب ان تتوافر فيه القدرة على اكتساب الصداقة، وتقديم المشورة للحكومة المعتمد لديها، وهو ما يدخل فعلاً ضمن إطار عمله، وليس بتقديم النصيحة لها فقط، بل بدعم تلك الحكومة أيضاً. ولقد كانت مهمة جونستون خلال السنوات الاربع التي قضاها في عمان، والتي سياتي وصفها في هذا الكتاب، من المهمات التي كنت

---

(١) ستراد‌فورد كانتج: هو الفايكسوانت سترافورد دي ريد كانن، كان دبلوماسياً بريطانياً ناجحاً وشهيراً (١٨٣٥ - ١٨٨٠).

(٢) داوننغ ستريت: هو المقر الرسمي للحكومة البريطانية في لندن

على علم بها، وقدرت قيمتها فيما بعد، والتي تتصف بأهميتها الكبيرة، فقد اضاف اليها ذكاءه الخارق، وشجاعته العظيمة وعلو همته، ولولا الثقة التي خلفتها رسائله في الوزارة البريطانية لكان من المشكوك فيه أن تتخذ الحكومة تلك الخطوة الخطيرة، ولعلها المتهورة تقريباً، والتي نفذتها بريطانيا بعدئذٍ، من اجل الحفاظ على الوضع في الاردن، خصوصاً بعد تلك المشاكل والقلاقل التي خلفتها قضية قناة السويس، لكن قرارنا كانت له مبررات عدة، وكانت الحوادث التي تلت مع ما صاحبها من صعوبات وفشل، قد اثبتت بأنه لم يؤمن السلام في تلك الحقبة الهامة فقط، بل انه بالمقابل قد تعزز احد المراكز القوية في تلك المنطقة المضطربة.

وقصة السنوات الاربع تلك، والتي كانت حافلة بالاحداث المثيرة، قد روِيت هنا بكفاءة علمية حصيفة، مقرونة بقدرة غير عادية على وصف الاحداث، ولسوف تبقى هذه القصة مثلاً رائعاً من امثلة التعاون بين سفير عظيم يمثل الملكة، عندما كان يقوم بعمله في تلك المنطقة بينما كانت تحيط به تلك المخاطر والإرتباكات، وبين أولئك الذين عملوا معه في القضية نفسها في بريطانيا.

هارولد ماكميلان

كلمـــــة المؤلـــف

كانت الحكومات البريطانية في الخمسينات، مستمرة في بذل جهود كبيرة للحفاظ على سمعتها ونفوذها في انحاء العالم، وكان الممثلون البريطانيون فيما وراء البحار يلعبون دوراً هاماً كادوات ذات فعالية، لكي يتحقق من خلال ذلك النفوذ البريطاني، أما فيما يتعلق بي، حيث كنت أمثل «الهوايت هول [1]» في عمان، فقد كانت مهمتي تحديث العلاقات البريطانية مع الاردن، وذلك بانهاء المعاهدة التي فقدت معناها واصبحت عقيمة الفائدة، وفيما بعد ذلك، مساعدة الاردن المستقل على الصمود في وجه الهزة التي خلفتها ثورة بغداد، ثم اجتيازها، واخيراً العمل على تجنب وقوع الحرب بين الاردن والجمهورية العربية المتحدة (مصر) بعد مقتل رئيس وزراء الاردن، «هزاع المجالي» نتيجة لمؤامرة نظمت في سوريا. ولقد لعبت السياسة البريطانية في كل من هذه القضايا الثلاث دوراً بناءاً هاماً. ففي القضية الاولى عملت على إنهاء معاهدة سنة ١٩٤٨، والتي لم تكن عملية سهلة بل كانت اكثر من فك ارتباط بين بلدين، وكذلك اكثر من تفكيك لاجزاء الآلة الإمبريالية المتاكلة، بل انّ إنهاء المعاهدة خلق جواً جديداً مكن بريطانيا الى حد ما، من الحفاظ على نفوذها في الاردن، الامر الذي كان له تاثير حاسم في قضيتين اخريين، وهما الازمتان اللتان وقعتا في كل من العراق وسوريا واللتان اثرت اليهما. وقد استغلت بريطانيا ذلك النفوذ الى ابعد حد إستغلالاً ناجحاً، ليس لنصرة المصالح البريطانية بالمعنى الضيق فحسب، ولكن من اجل الحفاظ على السلام كذلك.

واعتماداً على ما سبق، اسرد للقارىء الكريم الاحداث التي مرت بي خلال السنوات الاربع التي عملت خلالها في الاردن والتي كانت في الواقع تاريخاً مقتضباً، وقعت احداثه منذ وقت ذهب الى غير رجعة ومات الى غير نشور. وهناك بعض

---

(١) هوايت هول (White Hall) هو قصر ملكي سابق يقع قرب وستمنستر آبي، وهو أيضاً شارع في لندن حيث يوجد عدد من الوزارات البريطانية، ولذلك يطلق هذا الإسم على الحكومة البريطانية.

منذ أن تركت عمان سنة ١٩٦٠، إلاّ أن تلك الحقبة كانت حرجة، وعاشت معنا نتائج أحداثها ما يزيد على العشر سنوات التي تلت، وكان أبرزها بقاء الأردن متماسكاً وبلداً مستقلاً، وعلى رأسه الملك الحسين ممثلاً لصوت التعقل والإعتدال بين العرب. واعتماداً على الخلفية التي رسمتها وسبق ذكرها في هذه المقدمة، فقد تراءى لي أنها تستحق السرد مع بعض التفاصيل.

ولعلي خاطرت بمحاولتي هذه، حيث يبدو أنني تمثلت أمام قرائي بمذكرات «السير هنري ديل» [1] الشهيرة، إذ ضمنت كتابي بعض المراسلات التي بعثت بها من عمان إلى أبي وأمي، أولاً لأن تلك المراسلات تعكس الحقيقة المرة المعاصرة التي خلفتها الأحداث حينذاك، وكذلك لأنها الطريقة الموجزة التي تحول دون نزعتي لفلسفة تلك الأحداث، بعد أن انقضت مدة من الزمن، وثانياً لأن الرسائل المذكورة تعطي القارىء عند قراءتها في هذه الايام، نوعاً من الدعابة المرحة، وذلك عند مقارنتها لا شعورياً بين وقوع الأحداث العنيفة التي عشتها مع زوجتي، والحياة السعيدة الهادئة التي نقضيها في هذه الايام، فكأن الامر هو عبارة عن «قضاء شهر في الريف» ولكن مع قصة «الحرب والسلام» تدوي في الافق البعيد!! ..

ولقد لعبت دوراً متواضعاً في الاحداث التي ساوردها، ولكن نظرتي لها لم تكن مقصورة على اشتراكي فيها كرجل غيور على وطنه، بل إنني ايضاً كتبت بروح المؤرخ، البعيدة عن تاثير الاحداث، بل ولعلني أجرؤ أن اقول بروح الفيلسوف!!...

وإنني شديد الإمتنان لصديقي زيد الرفاعي السفير الاردني في لندن من سنة ٧٠ - ٧٢ لنقده وتصحيحه كتابي، وهو الذي لعب والده سمير الرفاعي، دوراً حاسماً فيها، ثم اقدم امتناني كذلك الى الرايت أونورابل «انتوني ناتنج» والى السيد (هاناسيد بوكانان) اللذين قرآ نص الكتاب واجريا عليه بعض الإقتراحات المفيدة، وكذلك اقدم شكري الى رجال السفارة الاردنية في لندن الذين تكرموا فاعاروني الخريطة التي نسختها وتظهر في أول الكتاب، وكذلك ازجي شكري الى السادة «هودر وستافتون»، الذين سمحوا لي بأن اقتبس واشير الى بعض النقاط التي وردت في نسخة «السياسة الخارجية

---

(١) السير هنري ديل (Sir Henry Dale) ولد عام ١٨٧٥ عالم فسيولوجي شهير.

البريطانية منذ السويس ١٩٥٦ - ١٩٦٨ - ١٩٧٠»، وهي التي وضعها، «دونالد ماكلين».

«تشارلز جونستون»



(الجزء الاول)

السويس



الفصل الأول

الستار «البيروقراطي» الكثيف

تبدأ بالعادة احسن قصص المغامرات باجتماع يجري مع رجل نافذ البصيرة موجز باحاديثه، في احد نوادي لندن!!... ولم تكن مغامرتي الاردنية لتشذ عن تلك النظرية، ولكن عندما اسرح بفكري الى الماضي البعيد اجد ان تلك المغامرة كانت نموذجاً فريداً من القسوة، ان لم تكن طرازاً غير عادي، إذ انه فيما يتعلق بقصتي هذه، لا يمتاز رجل النادي هذا عن اي إنسان آخر، غير أنه رجل غامض، ولاضرب على ذلك مثلاً رئيس دائرتي (السير ايفون كيركباتريك [1])، وهو الرئيس الدائم لوزارة الخارجية.

وكانت المناسبة بحد ذاتها تافهة، كنا على وشك الخروج من النادي ودفع حساب الغداء، عندما حدجني «كير كباتريك» بنظرة تهكمية متكلفة، واردف قائلاً «لا بد وأنك تقضي وقتاً هادئاً ؟!.. » وفي العادة عندما يتكلم السير ايفون، يدفع براسه الى الوراء ويزوي ما بين عينيه ثم يواجهك بفمه، وتخرج الكلمات من بين شفتين، يعلوهما شاربان حادان مقصوصان بعناية، تخرج، وكأنها متفجرات اوتوماتيكية!..

وكان ما قلت هو الحقيقة فعلاً، إذ انه بعد ان ادرت اعمال المفوضية في السفارة البريطانية في بون لمدة ثلاث سنوات من العمل الجاد، احسست الآن «كرئيس دائرة اوروبا الغربية»، وكانني إنسان مهمل، بل وكان عملي قد جُمّد بصورة يائسة، فلم

(١) Sir Ivone Kirkpatrick .

يكن لدينا أي عمل ذي قيمة، وكذلك البيئة المحيطة بي كلها كانت مملة، وكانت تزين الممرات في عمارة الهند صور عفّى عليها الزمن، تتألف من لوحات القلاع والحصون القديمة، ومن الحكام، ومن نماذج للسفن الحربية الهندية الملكية، وكان الجو بأجمعه يعبر عن عظمة بادت واندثرت، ويخيل إليك أنك تكاد تقطعها بالسكين بضربة واحدة!..

وأسوأ من ذلك كله هو ما سآتي على ذكره الآن: كان يقف خارج مكتبي حارس كالمارد من الهندوس «الجوركا [1]» يمسك بالبندقية مثبتاً فوقها الحربة، إلا أن هذه الحربة كانت مقصومة من ناحية الجذع، وبقيت كذلك زمناً طويلاً بقدر ما تستطيع الذاكرة أن تستوعب. وهذا المنظر، الذي يمثل ماضي الإمبراطورية، تنقبض له نفسي بصورة خاصة عندما كان يزورنا بعض الناس من السفارة الالمانية للتحدث معي عن بعض الاعمال، ولقد لمحت بعضهم يحدجون (هذا الجوركا) المارد، بنظرات السخرية!...

ولسوء الطالع كانت مسؤولية تصليح هذه الحربة «السونكي» تخرج عن صلاحية وزارة الخارجية بالرغم من نفوذها وضخامتها، والتي اعترفت بفشل محاولاتها الهاتفية الجدية الطويلة. ولم تُجد المحاولات الجانبية، مع أني توسطت شخصياً الى ابعد حد مع ديوان وزارة الداخلية. وأخيراً توصلت لإصلاح «الحربة» ولكن هذه العملية استغرقت تقريباً عاماً بكامله، وأشغلتني أكثر من قضية المياه الإقليمية، وقضية برلين، وقضية الحدود الدولية مجتمعة!..

وحدثّت «كيركباتريك» بالقصة، بعد أن تركنا النادي، ونظر الي نظرة لئيمة أكثر منها عادية، وشعرت آنذاك بأنه قد تكونت في التوّ لديه فكرة ما، ولم يخالجني أدنى شك في أنها حتماً كانت في غير مصلحتي!؟!

---

(١) الجوركا (Gurkha): إسم يطلق على الرجال الهندوس الضخام الجثة والذين يعينون حراساً مسلحين على أبواب الدوائر الهامة في بريطانيا.

وتخبطت في الظلام بضعة اسابيع، بينما كانت تُطبخ التنقلات والترفيعات بوزارة الخارجية، ثم نُجفى بلباقة وراء حاجز مكثف، حتى عن اؤلئك الذين تعنيهم بشكل خاص. وكانت أحداث سنة ١٩٥٦ مخبأة وراء ستار كثيف محكم التفصيل. ولكن في واقع الامر لم يكن هذا الستار مسدلاً بإحكام، فلقد كانت تتسرب بعض الاخبار المبهمة من وقت لآخر عن طريق اولئك الذين يقفون خلف الستار، والذين كانوا بطليشهم، او خلال حفلات الكوكتيل، والأصوات الصاخبة، والمشروبات، يلوحون بتلميح او بتصريح مبهم؟!..

ولكنني ومن خلال شاشة «الرادار» الخاصة بي، بدأت اللقطة المتعلقة بوظيفتي الجديدة تأخذ شكلاً لم تتبلور الى حد ما، ولكن الى اين؟ ولعلها «مستشار وزاري» في باريس، او «وزير الفاتيكان»، وكانت تمر بي لحظات تصبح فيها إمكانية الوصول الى مثل تلك المراكز الممتازة قريبة المنال، ولكنها لم تكن تعيش في خاطري اكثر مما يعيش او يستقيم الحلم!..

وذات يوم لم اتمكن من احتمال التارجح في الشك الى ابعد من ذلك، فذهبت لمقابلة الرجل صاحب الشخصية اللطيفة، وهو الذي كان في ذلك الوقت يدير بالفعل اعمال وزارة الخارجية متستراً تحت لقب مخادع متواضع، وهو «رئيس الكتاب» او «رئيس الديوان»!..

سالته اين ستكون؟»..

والدبلوماسيون البريطانيون قلما يفصحون عن طبيعة شعورهم، ولكن هناك تعبير ينطبق علينا جميعاً وهو (الضعف المهني).[1] وعندما يصل الامر الى محاولة إكتشاف مكان المركز الجديد، يتوقف القلب جزءا، وكذلك ايضاً عندما تقف الضحية لتستطلع الحكم الصادر، تحمر الوجوه التي حرقتها شمس الجولف، وتشحب رجال «الهوايت هول» البيضاء، ولكنّ لما قد تناله من حظوة، ولما قد يصيبك من نصيب في بورصة سجلات وزارة الخارجية نفسها، حيث ستظهر واضحة، نتيجة ما يتمكن به او يخطط له رئيس الديوان.

---

(١) (Deformation Profesionnalle) تعبير افرنسي لاتيني الأصل ويعني الخوف على الوظيفة

وتجيئك المقدمات المعروفة، والتي تصاغ عادةً بعبارات هي غاية في اللطف والإيناس: «لقد قررنا دعم القنصلية العامة في ماراكايبو في «فنزويلا» وإننا... وقاطعته بإصرار لكي أسأل: «قل لي أين ستكون»؟!..

وابتسم رئيس الديوان، وكان الرجل ذا شخصية محببة ولطيفة، رياضي الطلعة، يتكلم ببطء (لاعب الكريكيت)، وله شاربان تخالهما مفصلين من قماش «هاريس تويد» الإنجليزي الرائع!Harris Tweed.

قال لي:«عمّان»، ولقد اختارك لها رئيس الحكومة بنفسه» ثم أضاف يقول: «ونريدك أن تسافر الى هناك في شهر نوفمبر»!.

ومع هذه الأخبار التي لم يستوعبها كياني، ولم أهضمها بعد، حصلت على إجازة أسبوع، وقمت برحلة بحرية الى ايرلندا في قارب يملكه «كيث أوفسر»سماه «بارينا» وكانت الرحلة بالنسبة لأربعة أوخمسة أشخاص منا حدثاً سنوياً. وتجولنا في كل مكان تقريباً فيما بين (كورنوال[1]) (واستورياس[2]) وكان كيث استرالي الجنسية، سفيراً صاحب شخصية قوية، وبحاراً ماهراً، عالماً بأساليب الملاحة البحرية، ومضيفاً أنيساً. وكنت أنتظر هذه الجولة البحرية السنوية في القارب «بارينا» بشوق شديد، وكان النسيم العليل يصفي الذهن، وفي أثناء الليل عندما كنت أقف خلف عجلة الدفة أحدق وحيداً في الفضاء، كانت الفرصة مواتية كي يستعيد الإنسان ماضي حياته ويراجع حساب ما حققه لنفسه!..

وأبحرنا بسرعة من جزر سيلي[3] الى الساحل الإيرلندي. وكان القمر بدراً والنسيم عليلاً، وكنا تقريباً نمخر فوق سطح الماء بسهولة ويسر، وصمدت على دفة القارب طوال الليل، ليس أريحية أو تردداً مني لإيقاظ صاحب الدور منا على الدفة،

---

(١) (Cornwall) مقاطعة جنوبي غربي انجلترا
(٢) Asturias مقاطعة شمالي اسبانيا
(٣) Scilly جزر جنوبي غربي انجلترا

ولكن لاني كنت في غاية السعادة والسرور، اضف الى ذلك انني كنت اكره فكرة النوم بضع ساعات ثم الإستيقاظ بعدها لاستلام الدفة في الصباح الباكر، ثم كانت تلك الوقفة الفريدة في الليل خلف الدفة شيئاً، وصيحة «كيث» في الجهورية الميلبورنية(١) في الخامسة صباحاً «هلّم إنزل جاة دوري» شيئاً آخر تماماً!.. وعلى كل حال كنت في جلسة في الليل طويلة، كي افكر بالوظيفة الجديدة!..

ولم اعر الامر كثير إهتمام في ذلك الوقت، فلقد كنت تركت سفارة القاهرة في سنة ١٩٤٦ ومنذ ذلك الحين فقدت كثيراً من الإطلاع والمعرفة باحوال الشرق الاوسط، اذ كان اهتمامي محصوراً باوروبا وروسيا الغربية، والمانيا بصورة خاصة، وبالمفاضلة بين المجريات السياسية في هذه البلدان، ظهر لي العالم العربي وكانه موضوع غير هام بل ولا يستحق مني الإهتمام.. ولكن من الناحية الثانية كانت وظيفتي الحالية في دائرة اوروبا الغربية فاشلة تماماً. و «عمان» تخلصني بل وتنقذني منها ويسهولة، وكسفير في الرابعة والاربعين من عمره، يمكنني ان اتطلع الى الخدمة في سلك الخدمة. وكان لا بد لاول بعثة مستقلة ان تكون صغيرة، وكاول مركز من هذه المراكز الصغيرة، لم يكن الاردن سيئاً ابداً وبعد خدمة سنتين او ثلاث اكون قد وصلت الى إستحقاقي لمركز احسن واهم، ولكن اولاً وقبل كل شيء يجب ان اتجنب شخصياً التورط في الشرق الاوسط ومشاكله. وبإعمال الفكر ملياً في مسالة المستقبل وجدت ان هذه الفرصة كانت عظيمة، وهكذا فقد توصلت الى هذه النتيجة بعد تلك العملية المحسوبة والمعقولة!..

كنت وزوجتي قد زرنا عمّان فيما مضى من الزمان كسائحين وذلك قبل عشر سنوات، وما زلت اذكر المدرج الروماني وفندقاً(٢) عادياً امامه، وكانت هناك مشاكل طبعاً، فقد حدثَ قبل شهور قليلة ان اخرج جلوب باشا من الاردن، اما عن السفارة هناك فكانت تضم خيرة الموظفين وكانت تشغل بيتاً لائقاً. وكذلك كان الاردن مركزاً

(١) Melbournian نسبة الى ميلبورن الميناء الساحلي الاسترالي
(٢) فندق فيلادلفيا والذي حلت محله الساحة الهاشمية

ممتازاً للسياحــــــة - وكم يكون مغرياً ان تصبح بفاترة واحدة في القاهرة، ثم تنزل ضيفاً على (الترافيليانز)[1]. ومن هناك تبحر الى أعالي النيل حيث تتمتع برحلة راقية «بالذهبية»، تزور المعابد وتصطاد البط. ثم ان هناك «البترا» فهي تستحق الزيارة وتساعدني بصفة خاصة على إنعام الفكر في نظريتي في أن هندستها المعمارية كانت إنفجاراً غير ناضج للفن المعماري «الباروكي»[2]، الذي جاءَ قبل موعده بثلاثة عشر قرناً من الزمن، وفوق ذلك كله كانت حماتي تعيش في القدس، في الأردن، وكانت قد ترهبت وأصبحت الآن رئيسة دير الراهبات الروسي على جبل الزيتون.

وصلنا الى ميناء «كورك»[3] في المساء التالي، بعد ان قضينا يوماً متعباً عصيباً، ابحرنا خلاله قريباً من الشاطىء معاكسين للتيار. وقضينا كلنا ليلة نمنا فيها طويلاً، واصبحنا امام مرسى «كروس هافن»[4] نخوض الروتين الممل كالمعتاد، من حيث تجفيف الاغطية، وإنزال المرساة، وقذف اكياس المياه الفارغة والمواد التالفة من بعدها، وتنظيف الاحذية استعداداً للنزول الى البر. وسألني بعضهم، ما وراءك من انباء!..

وهنا أدرنا جهاز الراديو لنستمع الى نهاية النشرة، حيث التقطنا آخر تلك الجملة: «وقرر الكولونيل عبدالناصر تأميم قناة السويس»[5]!...

وحتى هذا النبأ لم يترك في نفسي أثراً، اكبر من خبر العاصفة الهوجاء التي اجتاحت الخليج والتي تجاوزناها هرباً منها قبل دخول الميناء بقليل!..

---

(١) السير هنري ترافيليان - كان سفيراً آنذاك في القاهرة

(٢) Baroque هو فن معماري تكثر فيه الزخرفة واشتهر في أوروبا في القرن ١٦ - ١٧

(٣) Cork ميناء في جنوب ايرلندا

(٤) Crosshaven مرسي للسفن هناك

(٥) واهتز الغرب بعد ذلك لهذا الخبر المفاجىء الذي كان يعتبر بداية لتغيير خارطة الشرق الأوسط بزعامة عبدالناصر (المترجم)

الفصل الثاني

للجبناء فقط

ليس هذا الفصل الا اعترافاً شخصياً، وليتجاهله تماماً اولئك الذين يثقون بشجاعتهم الشخصية عندما يواجهون اية حالة طارئة.

لقد كنت دائماً فضولياً، محباً لإستطلاع اخلاق الناس وعاداتهم وسيرهم واكثر من ذلك اخلاقي الشخصية... وان اكثر ما يثير التساؤل المحير عن اي شخص تجهله، هو فيما إذا كان ذلك الشخص يتصف بالشجاعة أم لا؟.. عدا عن أنَّ الإنسان غالباً ما يبني إعتقاده بهذا الاسلوب. والحياة المتمدنة في البلدان الغربية - على اية حال خلال فترة السلام - قلما تعطي المجال لهذا التساؤل، ولكن الجريمة او الكارثة في بعض الأحيان هي عندما يسلط الضوء فجاة على احد معارفك، ثم تكتشف فيه الجبن، بينما كنت تعتقد فيه الشجاعة!..

هذا وإن الاثر الرائع لهذا الإكتشاف، يثبت عظم الاهمية التي يعنى بها الانسان دون وعي منه لهذا الموضوع البدائي، والذي قلما يعالج بصراحة ووضوح!..

وانا شخصياً لم تكن لدي اية فكرة فيما إذا كنت خوّافاً، ففي الشرق الأوسط وخلال الحرب كنت مسجلاً للإنضمام الى «س.أ.س»[1] بقيادة «ديفيدستيرلنج» في مهمة في بوغسلافيا تحت إمرة «فيتزوري ماكلين»، وكانت هذه المحاولة بحد ذاتها تعتبر شجاعة كافية لو ان اياً من مشاريعها قد تحقق، لكن كلا المشروعين اخفق، فقد

(١) (S.A.S.) احدى فرق الخدمة العسكرية الهامة في الجيش

رفضت وزارة الخارجية ان تتخلى عني ولهذا استقلت من الخدمة. وهنا أيضاً رفضت وزارة الخارجية قبول استقالتي، وكنت آنذاك في الخامسة والعشرين من العمر عندما نشبت الحرب، وهكذا فقد «فرض علي» ان ابقى في الخدمة طوال الوقت. فماذا كان علي ان اعمل؟ كان يمكن بسهولة ان اخرج من السفارة في القاهرة، وأعبر الطريق الى رئاسة اركان القوات المسلحة البريطانية في الشرق الأوسط ثم انخرط بها. وإني اتساءل لماذا لم انفذ هذه الفكرة؟... وربما لأنني احجمت عن صفق الباب بوجه وزارة الخارجية، وهي التي علمتني بمنتهى اللطف، والتي كانت تمنحني الحياة التي كنت احبها واسعد بها، ثم كان هناك دائماً سبب مخاتل من الوفاء، للاحتفاظ بي حيثما كنت وفي وقت معين، ولعلي كنت على علم بذلك طوال الوقت، ولهذا كانت جميع الخطط للإنضمام الى «ستيرلنج» أو «ماكلين» نوعاً من الكلام السفسطائي المتعمد!..

وانتابني التفكير لفترة ما في ان عمان لا تزيد عن ان تشبه أي مركز دبلوماسي تقليدي آخر، فباشرت بجمع بعض المعلومات عنها، مستفسراً من اولئك الذين شهدوا بالفعل ذلك الشغب، وحضروا تلك المظاهرات التي وقعت خلال موسم الشتاء السابق، وظهر لي بالتأكيد ان الغربيين هناك قد مروا بتجارب قاسية، عادةً بالسيارات، حيث كانوا يسحبون من السيارة ويضربون علناً في شوارع عمان، او عندما كان يرجمهم اللاجئون بالحجارة من المخيمات المنتشرة على طريق القدس، الأمر الذي كان يضطرهم للعودة والسفر عن طريق الصحراء للهرب من هذه الحوادث!..

وكان سلَفي «السير تشارلز ديوك» بطريقه مرة لزيارة رئيس الوزراء في عمان عندما وجد نفسه فجأة يخترق مظاهرة تسير في منحدر احد التلال، وكان من المستحيل على السيارة أن تعود في هذا المنحدر، فما كان من السائق الا ان ضغط على جهاز البنزين مسرعاً بالسير، مخترقاً المظاهرة، والسيارة تلك هي الأوستن الرسمية القديمة التي «تدغدغت» من الضرب وقذف الحجارة، حتى اضحى تمييزها من الصعوبة بمكان عظيم!..

أما مكاتب السفارة فكانت تقع في افقر الاحياء[1]، وكانت الحراسة عليها صعبة للغاية، بينما على العكس تماماً، لم يكن صعباً أبداً إشعال الحرائق فيها.. إلا أن

(١) شارع القبرطاي الحالي

بيوت السفارة وبيت المستشار كانت تقع على قمة أحد الهضاب البعيدة عن الاحياء ضمن حوش كبير محاط بحراسة مشددة، حيث كان هناك ايضاً القصر الملكي. ولكن، وكما صرح الخبراء حينئذ، بأنه لو ساءت الاحوال تماماً، فباستطاعة الملك ان ينتقل من هذا المكان، وبطبيعة الحال تنفض الحراسة المشددة عن هذا الحوش الكبير!..

وابتدات الصورة تبرز وتتبلور في بلد لا يسود فيه الإستقرار مطلقاً، مع حكومة ضعيفة، ومع غوغائية عنيفة لا سبيل للسيطرة عليها، وكان الراي العام الاردني مناصراً لعبدالناصر بشدة في قضية القنال، وكما اشار الخبراء في ان اي إجراء يتخذ ضد مصر يمكن ان يثير النقمة العارمة ضد الغرب!..

عندما يثور الشعور المعادي ضدنا في اي بلد عربي آخر، يتطلع الإنسان عندئذٍ الى مخرج سريع، كقطع العلاقات مثلاً، او كطرد بعض البريطانيين ثم سحب موظفي السفارة، ويحدث هذا عندما تصل حدة الجماهير الى اعلى درجات الغليان. ولكن الاردن كانت له إعتبارات خاصة، ذلك أن المعونة البريطانية المالية التي تقدر بمليون جنيه كانت تُدفع شهرياً الى الجيش، الامر الذي وضع البلاد في موقف عائم، أما إذا قطعت المعونة ولم تحل محلها اية معونة أخرى من اية جهة كانت، حينئذٍ لا بد أن يتدخل القانون والنظام لتحطيم الشغب، ثم إن قطع العلاقات مع حكومة تدفع معونة مالية، يحتاج الى درجة عالية جداً من الحرارة، وبناء على ما تقدم فإنه من الممكن تماماً أن يجد موظفو السفارة البريطانية انفسهم ما يزالون قابعين في مكانهم، بينما في مثل تلك الاحوال، يجدون زملاءهم في بلاد عربية أخرى متعصبة، قد سحبوا حفاظاً على سلامتهم!..

وهنا بدات تتبلور أيضاً في ذهني صورة ممتعة جداً، يضاف اليها صفة خاصة من الحتمية، وهكذا فقد وضحت معالم الصورة تماماً لدي.

وكنت أتابع أزمة السويس منذ وقوعها عندما سمعت أخبارها من راديو اليخت، الذي كان يرسو في ذلك الميناء الهادىء بايرلندا.

وعندما عدت الى لندن تطوعت للمساعدة مع المنظمة التي عقدت مؤتمرها الأول للبحث في قضية قنال السويس في عمارة «لانكستر» بشهر اغسطس، وكان من المحتمل أن يكون في هذا التطوع، إساءة لعملي في دائرة أوروبا الغربية، وهاتفني مرة المستشار في السفارة الالمانية متسائلاً: «علمت بأنك مشغول بقضية قنال السويس»؟ فأجبته بأن الامر لم يأخذ طابع الجد بعد، وفي معرض الحديث وتبادل النكات التافهة عن قضية الشرق الأوسط، كان موضوع «الإنتحار» ما زال وارداً!..

على أية حال فإن اهتمامي الآن بالأحداث أصبحَ أكثر جدية وأقرب إتصالاً بها، وعندما بدأت العملية، تصورنا أن الصلة بين السويس وعمان كانت بعيدة نوعاً ما، إلا أنها بدأت تقترب من بعضها بإصرار. وكانت هناك علامات بأن الإجراءات العسكرية ضد عبدالناصر قد أخذت تسير في طور التحضير، ولم أكن عندئذٍ داخل الكواليس، لكنني كنت أعرف الإتجاهات، فلقد كان الضغط يتزايد بوضوح للقيام بذلك العنف الفجائي، والذي كان جزءاً مكملاً للتقاليد البريطانية، خذ على هذا مثلاً «كوبنهاجن، الإسكندرية، مرسى الكبير» كلها وقعت بصورة مفاجئة وسريعة، ثم نسيت بصورة سريعة كذلك، حتى أن استعادة هذه الحوادث للأذهان لا يمكن إلا أن تضع الإنسان في موقف الاستغراب والتساؤل: كيف يمكن لبريطانيا الوديعة أن تصبح فجاة شرسة؟!..

شرسة، نعم، بل ومنعدمة العاطفة كذلك!.. كانت تلك هي التقاليد، ولم يخطر ببالي مطلقاً، بل كنت استبعد الإحتمال، أنه يمكننا أن ندخل في التجربة في عملية كعملية «كوبنهاجن» ثم نفشل بعد ذلك، ولو أنها حدثت فعلاً لكانت استغرقت (٢٤) ساعة حرجة ولعلها كانت تنجح بعد ذلك، ولكن، لا شيء ينجح!..

ولكي أصل «باعترافات الجبان » هذه الى نقطة معينة، فإن السؤال الذي أخذ يحتويني بصورة أشد، أكثر فأكثر هو «أين ساكون عندما تقع الواقعة»؟!..

ولعلها تكون قد انتهت قبل أن أصل الى عمان، أو لعله إن لم يكن مؤكداً، يكون الأردنيون رغم كل ذلك، قد قطعوا العلاقات الدبلوماسية معنا، وهكذا فلن أذهب الى

عمان أبداً!..

وفي خلال شهر اكتوبر جاءت الاخبار بأن الاردن يقوم بإضرابات ضد فرنسا، وأن السفير والقنصل العام في القدس القديمة محاصران في بيتيهما، وبالتالي فقد اسعدهم الحظ بالهرب من العقاب، وفكرت ملياً، إذا كان هذا فقط يحدث من اجل الجزائر، فماذا يفعلون من اجل السويس يا ترى؟!..

وبعد، فقد تمالكتُ نفسي وقررتُ باني واهم، واني اختلق هذه الإحتمالات!.. وفوق هذا كله تساءلت: هل هناك ما هو آسلم من السفير البريطاني، غير بنك إنجلترا طبعاً؟!..

وفي إحدى الامسيات، حول هذا الوقت تقريباً، كانت زوجتي وأنا مدعوين للسفارة الإيطالية في لندن، ووجدتُ نفسي اجلس بجانب إحدى سيدات لندن المرحات، اللواتي يتعرف اليهن الإنسان بسهولة، الى حد انه عندما يصادفهنّ في إحدى الحفلات العامة يقبلهنّ مثلاً..، ودار الحديث التالي حيث سألتني:

- هل يمكننا ان نزورك ونستضيفك في عمان؟!..

- اكون سعيداً، ولكن دعينا نؤجل هذا قليلاً حتى تتبلور الامور ونرى ما سيكون!.

- لماذا يا حبيبي، هل الامور حرجة الى هذا الحد؟.

- ربما، ولكن لا يمكن للإنسان ان يتنبا جيداً بما سيكون هناك،

- ماذا، في تركيا؟!..

- كلا ليس في تركيا ولكن في عمان بالأردن. .

- ولكن يا حبيبي، هذا مكان خطرا. .

وقلتُ في نفسي إذا كانت «مودي ليتلهامبستون» قد سمعت بأن عمان منطقة خطرة فلعل المسألة ليست نزوة وهمٍ مني!..

وكان من المقرر ان أسافر جواً في التاسع من نوفمبر، ورتبتُ أمري بأن اقضي الايام القليلة الاخيرة قبل السفر مع والديّ في (برايتون)، وبعد ان ودعتهما في نهاية شهر اكتوبر، وجدتُ نفسي في وزارة الخارجية محاطاً بجو مفعم بالترحيب من الوزارة والوزراء العاملين هناك، وبصورة لطيفة لكنها مشوبة بالياس والشفقة، وكانني كنتُ مريضاً ميئوساً من شفائه، إن لم يكن قد ادرج في قائمة الأموات!.. وكان هناك صديق لي، شاب من وزراء التاج، يمتاز بالحيوية الدافئة والقوة، وكان أكثرهم صراحة فسألني:-

«ماذا كنت تقول، متى يكون السفر؟واخبرته، فاجابني على الفور لا تذهب، تمارض وادّعِ الإصابة بالبرد!..

ومع هذه المشورة وتزايد مثل هذه الروح المعنوية، سافرت الى (برايتون) حيثُ كان الهواء منعشاً بصورة لم يكن لها مثيل، ولم يكن ممكناً ان يصاب الإنسان بالبرد مهما حاول!..

ولما حان موعد الوداع النهائي في لندن، كانت عملية «الفرسان» لغزو السويس على أشدها، وحان موعد الشاي في وزارة الحربية، وقد كانوا ينتظرون بتوتر أخبار إنزال الجنود في بورسعيد.

وشربت الشاي وتناولت البسكويت مع أذكى وأعظم الجنرالات هناك!.

وكان «تابي بتلر[١]» قد قال لي دون لف أو دوران «أما ان احتل بورسعيد في موعد الغداء، أو اهلك دون ذلك»!..

وفتح الباب، ودخل منه فوج من الجنرالات الصغار والكولونيلات يحملون

(١) Tubby Bulter هو البريجادير الذي قاد عملية السويس

انباءهم الطيبة، وهي الانباء التي تُليت بمجلس العموم بعد بضع دقائق من وصولها، من بعد ظهر ذلك اليوم، بأن عملية إنزال الجنود قد تمت بنجاح، وأن البريجادير بتلر يفوض حاكم بورسعيد.

وقال لي مضيفي «لولا هذه الانباء لطارت الحكومة»ثم اردف «إتصل بوزارة الدفاع وأوصِ بالبريجادير «تاپي» كي ينال لقب البارونية السياسي»!..

ولم أكن بطبيعتي عصبي المزاج، وكذلك لم أتعود الارق، ولكن غالباً ما كان يحدث في الايام القليلة الأخيرة قبل سفري من إنجلترا انني كنت استفيق منزعجاً بسبب العقبات التي تكتنف هذه الوظيفة التي ستواجهني!..

ثم قررت أن أخلق من خوفي رصيداً أدبياً، ولأبدأ «بمذكرات جبان» في عمان، وذلك لكي تتحقق لي هذه المحاولة، ولكن يجب تدوين كل شيء في المذكرات - الأعراض، الإنعكاسات، الحوادث، ويجب أن لايكون هنالك اي تكتم حول هذه المواضيع!..

وهكذا فقد شعرت ان هذا الحال يناسبني تماماً، وقد كنت عندما تركت انجلترا أتمتع بأعلى روح معنوية وصاخبة!..

وليس هنك ما يشبه «الطلقة في الذراع» مثل توديع الاحباب في أوقات الصعاب!.. وهكذا فقد انغمست بالواقع، وتركت قلقي في الليل ياخذ بتلابيب القلق نفسه، لكي يخرجه من كياني..

وانقلب الامر الى مغامرة هائلة، كان جزء منها نكبة لطيفة، والجزء الآخر كان تباهياً، إلا انها جميعها كانت مبهجة.. وكانت المشكلة الحقيقية المباشرة، هل يا ترى ساصل الى عمان؟!..

الفصل الثالث

عودة الى الشرق الأوسط

كنت تعرفت الى الشرق الأوسط آخر مرة سنة ١٩٤٦،... ومع أن الوضع الحربي لبريطانيا كان، في ذلك الوقت، آخذاً في التدهور، إلا ان «هوايت هول النيل[1]» استمر يعمل ويعمل الى حد كبير.. وكان مكتب مقر الوزير البريطاني المقيم في شارع الطلمبات بالجاردن سيتي بالقاهرة يعمل مع كتلة متماسكة من البلدان التي تمتد من تونس الى افغانستان، ومن حلب الى تنجانيقا، وفي جميع هذه المناطق كانت بيريطانيا هي القوة المسيطرة، ولقد كنا ندير معظم المناطق في تلك البلاد مباشرة، وما كنا نقوله كان بالعادة ينفذ فوراً في المناطق الاخرى، وفوق ذلك كان مركز التموين الضخم، - والذي كان تجربة ذات دعاية صغيرة في الشراكة بين بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية - كان من خلال الضرورات الحربية، يسيطر بشدة على المشاكل الإقتصادية لهذه البلدان، وفي الحقيقة فقد اعتبرت جميع اجزاء تلك المنطقة وكأنها وحدة إقليمية.

ولكن خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦ لم يعد هذا المشهد مالوفاً، فكان الموقف أشبه ما يكون «بتاريخ جيبون المفصل[2]» ولكن بالحركة السريعة، وبعبارة أخرى كان ذلك شبيهاً بالحكم البيزنطي الممتد من قسطنطينية بالجزائر الى آخر ما تقع عليه العين من مرتفعات «طرابزون» في تركيا، اي أحد عشر قرناً من الزمن تقلصت في مدة عشر سنوات تقريباً. حقاً، لقد كانت لدينا قبل الأيام الاخيرة الماضية، قوات بريطانية على

(١) قصد المؤلف بهذه التسمية « مقر القيادة البريطانية العامة في الشرق الأوسط بالقاهرة»

(٢) جيبون: كتاب تاريخي واحد يحتوي على الكثير من الأحداث والتفاصيل والتواريخ

شاطىء القنال، ولكن هذا لم يعطنا حتى الآن اياً من النتائج المرتقبة في بلدان العالم العربي، حيث لم يظهر اي إتجاه للخضوع لسيطرة بريطانيا ولا الى إصرارها، وكذلك، وحتى ذلك الوقت، لم تجزّ الرقاب البريطانية باعداد كبيرة!.. وهذا ما حدثني به اصدقائي ساخرين، عندما ودعتهم قبل سفري!..

وكان رد الفعل لما حصل يختلف تماماً، فلقد حلت الكآبة والركود المخيف غير المعقول، والزمجرة الغاضبة، والتوتر الساكن الهادىء والقلق والحيرة!..

وبما ان خطوط الطيران توقفت عن العمل الى بلدان الشرق الاوسط خلال ازمة السويس فقد اضطررت ان اقسم الرحلة من قبرص. واستقبلتنا الجزيرة الباسلة التي كانت قد شهدت شهر عسلنا في سنة ١٩٤٤، إلا انها كانت تختلف الآن تماماً. فقد كان الزميل والصديق الذي استضافني في نيقوسيا يعيش خلف قفص من الاسلاك، وما زالت باقية آثار قنبلة حديثة اخترقت واجهة بيته وتركت ثقباً ظاهراً، حيث انفجرت بين الزهور امام «اباجور نافذته». كانت المسدسات تظهر في كل مكان، ولم يكن يعكر صفو السكون الذي فرضه منع التجول غير ذلك الصوت المزعج المنبعث من مكبرات الصوت في سيارات الشرطة، متوعداً منذراً. وعندما وصلت الى المطار في الفجر كي اواصل سفري بطائرة محلية الى بيروت، وجدت جنود الجيش بالخوذ الفولاذية يقفون متأهبين خلف المدافع المضادة للطائرات، وخلف اجهزة الرادار التي تدور حول نفسها ببطء، وهم يقفون بتصلب وتوتر شديدين، وكان المنظر اشبه بحلم غامض، ولم يسمح لاي موظف قبرصي ان يطأ ارض المطار، وكانت العمارات التي لم تنظف منذ اسابيع طويلة، تحمل طابعاً مغامراً، وتفوح منها روائح كريهة وكانت بمجرد النظر اليها، وبعد احد عشر عاماً، تبعث الى انفك رائحة الحرب بشدة!..

وشعرت بالراحة تغمرني عندما غادرت هذا الجو، الذي بدا لي وكانه حلم مزعج، فَطِرنا فوق سطح البحر المتوسط المتلألىء في الصباح الباكر.

كنت في سفري خفيف العبء قدر الاستطاعة، ولكن كان لا بد لي من اصطحاب الحقيبة المعدنية التي تضم الالبسة الرسمية والتي سوف احتاج اليها بعد الوصول مباشرة عندما يحين موعد تقديم اوراق اعتمادي الى الملك حسين. وكانت الحقيبة

صغيرة جداً على السيف الذي يّتمنطق به مع بدلة «التشريفة»، فكان لا بد من حمله بيدي وكان منظري وانا احمله غير طبيعي ابداً بل باعث على السخرية، وكأني ادخل لاكتساح الاردن بسيف من التنك ملفوف «بورق الصر الداكن»!..

وكانت سوريا قد قامت بقطع علاقاتها مع بريطانيا من اجل السويس، لكن سفارتنا في عمان قامت بالتعاون مع السفارة السويسرية - التي ترعى مصالحنا في سوريا ايضاً- بنقل سلفي، «تشارلز ديوك»، بالسيارة عبر تلك البلاد على أن تعود بي من الطريق نفسه بعد يومين إثنين. وفي حالة فشل هذه الخطة، وكان ذلك محتمل جداً، كانت خطتي أن اعود الى قبرص طالباً مساعدة سلاح الجو الملكي هناك بالطيران من قبرص عبر تركيا والعراق الى المفرق وهي قاعدة سلاح الطيران الاردني، وتبعد عن عمان شمالاً خمسين ميلاً فقط.

وكانت هذه الحركة اشبه بلعبة الثعبان والسلم، إذ لو قُدِر لك أن تخطىء في العد لهبطت طائرتك في المكان غير المناسب، ولعلك ترى امامك اليافطة بوضوح «الحدود السورية مغلقة، عد الى نيقوسيا»!..

وكنت قرأت في الصحف الإنجليزية أنّ قاعدة المفرق كانت على اية حال محاطة بالقوات الاردنية المسلحة، وكان الوصول الى عمان حتى هذا الطريق خاضعاً للحظ وللظروف. ومن يوم لآخر كانت الاحتمالات تحتضنني بشدة وهي أنّ الحكومة الاردنية كان يمكن أن تقرر، بالرغم من معونتنا المالية، قطع العلاقات معنا قبل أن اصل مركزي الى عمان، وكان هناك ايضاً، كما كنت اتصور، خطر آخر وهو أن أجد نفسي في سوريا فجاة ثم أختفي فلا يعرف أحد عني شيئاً!..

وتيقنت بوضوح تام، أن الشرق الاوسط لم يعد كما كنت قد عرفته!؟!...

والواقع أنّ آخر جزء من رحلتي كان يتلخص في عبارة واحدة هي «تمخض الجبل فولد فاراً»!..

وعندما وصلت الى السفارة المضيافة في بيروت وجدت أنّ «ديوك وعائلته»قد وضعوا عبر الممر التركي في سرادق الضيوف. وكانوا قد وصلوا تواً عن طريق سوريا في اليوم السابق، حيث صحبتهم حراسة تحت إمرة ملازم لطيف كان يتحدث

بالفرنسية. وعلمتُ أنهم عندما وصلوا الحدود اللبنانية توقفوا هناك وفتحوا زجاجة من الشمبانيا!..

لقد آلمني حقاً ما لمسته من النفسية المحطمة التي تفشّت بين بعض موظفي السفارة البريطانية في بيروت، الذين كانت تتلخص وجهة نظرهم في انه «انتهى طبعاً نفوذنا الآن بين العرب تماماً»، لكني رفضت تقبل مثل هذه الانهزامية.. ولم أكن بعد قد تسلمت التعليمات والتوجيهات السياسية من حكومتنا حول مشكلة السويس، ولكن قد فات الوقت الآن لكي نتجنب ما وقع، وكنت كما ارى واعتقد انَّ من واجب جميع الممثلين لبريطانيا في دنيا العرب هو محاولة لم الشعث، ووضع الامور في نصابها مرة أخرى، نعم، كنا موزعين في مراكز ثائرة في هذه المنطقة التي تكتنفها بعض المخاطر، وكان علينا بل ومن واجبنا انه مهما حدث فالنفوذ البريطاني في هذا الجزء من العالم يجب أن يستمر وأن يعود كي يتبوأ مركزه. وفي اعتقادي أن احسن فرصة تواجه الموظف البريطاني في الخارج هو ان يقوم بدور إيجابي قيّم عندما تكون حكومته «قد لخبطت في التصرّف» وبذا ينشأ وضع مربك يدعو الى إعادة الأمور الى نصابها!..

في صباح اليوم التالي سافرت في سيارة السفارة الى عمان وكان يقودها سائق شركسي غريب الأطوار، فهو قد جعل من الرحلة كلها تبدو وكانها محض عمل روتيني.. وقد اجتزنا الطرق الجبلية الملتوية التي تحيط بضواحي بيروت، ولو أنك نظرت الى هذه المدينة من قمة الجبل لرايتها تنبسط بيضاء تشع تحت شمس الصباح، وتقع على سيف بحر ازرق يشبه (لون كيمبردج[1])، وكانها مكعبات فسيفسائية من عهد البيزنطية، وبعد فترة ارتفعت أمامنا قمم سلسلة الجبال المحيطة بلبنان، ثم انبسطت بعد ذلك أمامنا سهول البقاع الخصبة الرائعة التي تشعرك انك تضع قدمك عليها، وكانت تلمع في ضوء الخريف وكانها صندوق من الالوان المختلفة.

(١) كيمبردج: مدينة شمال شرق لندن – تشتهر بجامعتها المشهورة وبمروجها الجميلة ومياهها الزرقاء وجوها «العلمي» وانتشار أساتذتها بأروابهم الفضفاضة وتلاميذها الذين يعرفون بقبعاتهم التقليدية يتبخترون في الشوارع.

ولما وصلنا الى الحدود السورية لم نلق اي حرس لمرافقتنا، وفي الواقع ظهر لي وكأن أحداً لا يحفل أو يهتم بنا. وبعد فترة إنتظار وجيزة قررت إستئناف السفر. ولم تكن هناك اية وسيلة لتجنب دمشق، وكان لا بد لنا ان نجرب حظنا في اختراق المدينة المكتظة بالناس. اما السائق محمد فقد تبين لي انه ممن يؤمن بالقضاء والقدر في هذه المهمة، وهكذا فقد اصابتني منه العدوى بعدم الاهتمام او المبالاة، وهذه صفة يتصف بها سكان آسيا الوسطى.

وبالفعل لقد اخترقنا سوريا بدون أي حادث يذكر. وكان ذلك أشبه شيء بانحدار تنعدم فيه الإثارة بل ويكاد يشعرك بالخيبة!.. وكانت أحياء دمشق التي اخترقناها نشيطة الحركة إلا انها موحشة كإحدى مدن فرنسا في الريف، وكان يمكنك ان تتصورها مدينة «روبي» بشمال فرنسا. وبعد ذلك سرنا جنوباً في الطريق الطويل الممل لولا انه يحمل طابعاً مميزاً، فثمة المنظر البعيد لجبل الشيخ وكأنه ظهر الحوت، والى الشرق حيث جبل الدروز الاسود يبدو وكأنه حاملة للطائرات!..

وجدت بانتظاري على الحدود الاردنية المستر «هيث ميسون» وهو المستشار في سفارتنا في عمان والذي كان قائماً بالاعمال منذ ان ترك السفير ديوك وعائلته عمان.

ولم أكن قد عرفت «ميسون» من قبل، ولكن بعد تناولنا غداء الرحلة على جانب الطريق، حيث كنست الرياح الصحراء، واستفدنا بجرعات من دورق من الوسكي كنت أحمله في جيب معطفي، وجدت نفسي أستسيغ الرجل، وتاكدت من أننا سوف ننسجم معاً في العمل. وكان ميسون نيوزلندي الجنسية وخدم في سلاح الجو البريطاني إبان الحرب، كان عَفِيَّ الجسم وفي الوقت نفسه يتصف بذكاء حاد مع أنه عاطفي ايضاً. وكان يتكلم العربية جيداً أحسن مني بكثير. وكان هو ايضاً مثلي يهتم بروسيا وبتاريخها. ووجدت نفسي أكلمه بروح البساطة السهلة حول الوضع الذي وجدنا أنفسنا فيــه.

وبدا لنا وكأننا يئسنا من كل شيء، وما كان لنا ان نفعل شيئاً سوى ان نضحك

ونقهقه!.. واخيراً قلت انني متفائل بصورة غير معقولة، وهذا امر ليس سيئاً في مثل هذه الظروف!..

وبعد ذلك مباشرة انتهينا من هذه النزهة وسافرنا الى عمان. وكان الليل يرخي سدوله عندما وصلنا الى منزل السفارة، ولكن شعوري كان يحدثني بانني في هذا الحصن المتلألىء سوف اجد وجوه الخدم العرب تبتسم لي مرحبة. وتناولت طعام العشاء في بيت (هيث ميسون) الذي يبعد خطوات عن منزل السفارة. وكان قد دعا كبار موظفي السفارة الى لقائي. وكان بينهم السكرتير الاول الإعلامي، وهو موظف متقاعد من السودان، وكان يعرفني في القاهرة منذ بضع سنوات، وقد فوجىء بصورة واضحة عندما عرف في شخصي ذلك الشاب الكسول الغارق في الملذات، وتذكرني منذ ذلك الوقت، ثم سال «هل هذا.. ثم بلع ريقه.. اقصد سعادة السفير.. ثم بلع ريقه!! وقد قضينا امسية ممتعة بل ومرحة جداً.. وقد احببت الجو الذي خلقه «ميسون» بين اولئك الذين يعملون معه.

وعندما تركت منزل ميسون كي آوي الى الفراش، رأيت عمان التي كانت مظلمة من جراء تعتيم قضية السويس، تتلالا تحت ضوء القمر، وهنا يجد الإنسان نفسه يتساءل رغماً عنه، عندما يعود هذا القمر، يتلالا مرة اخرى هل يا ترى ابقى هنا، والا فاين؟!

وكان يقف في ظل شجر الكافور قريباً من مدخل المنزل رجل طويل القامة أسود الظلال، وعندما اقتربت منه عرفت فيه ذلك الشرطي الأردني الذي يلبس الملابس الشتوية الداكنة ويعتمر الخوذة ذات الحربة اللامعة، واحسست انه حدجني بنظرة غامضة عندما مررت بجانبه، وكانه يقول لي «إلى جانب من تكون انت ياترى»؟!

وكانت الاضواء في منزل السفارة تختفي وراء الستائر الكثيفة بسبب «التعتيم»، ووجدت الوسكي والصودة قد وُضعتا على الطبق امامي. فشربت كاساً ثم صعدت درج البيت الى غرفة النوم عندما اطفىء نورها بصورة فجائية - وتخيلت الفدائيين وهم

«الكوماندوس العرب» الذين كانوا يقومون بعملياتهم من الأردن ضد إسرائيل، قد قرروا في آخر الأمر مهاجمة البريطانيين بدل اليهود، وانهم يتسللون تحت ضوء القمر الى المنزل، ومرت لحظة موحشة.. واضات الدرج صاعداً بعود من الثقاب، وما أن وصلت غرفتي حتى اضاءت الانوار ثانية، ولم يكن ذلك إلا بعض الخلل الكهربائي الذي غالباً ما يحدث في عمان في ذلك الزمن!..

أويت الى فراشي حالاً، واستيقظت مذعوراً على صوت عالٍ إخترق الظلام الدامس، وتصورته ينبعث من خلف نافذتي، واندفعت من فراشي وأصختُ سمعي وكان الصوت ينشد، وتعرفت على الكلمات فوراً، فلقد كانت دعوة للصلاة في الفجر (الأذان)، وهو أول نداءات اليوم، جاءت إليّ عبر الوادي من الجامع الذي رأيته في ضوء القمر مساء أمس من قمة الهضبة، حيث منزل السفارة. ولكن الذي لم أعهده هو إنبعاث صوت المؤذن من مكبرات الصوت الكهربائية. تلك هي التي جاءت بها الحضارة العصرية خلال العشر سنوات التي غبتها عن الشرق الأوسط. وعلى اي حال فقد جاء الصوت قوياً، حلواً، واثقاً ولكن كان صوت الاذان الداعي لصلاة الفجر قد أثر بي الى أبعد حد، وفجاة شعرت بالمواطنة في بلد صديق، وعرفت منذ تلك الدقيقة أن كل شيء سوف يسير حسناً حتى النهاية.

الفصل الرابع

السياسة والمعاهدة

ومع كل ذلك، ومن وجهة منطقية معقولة، وجدت ان المظهر لاية علاقة صداقة مفيدة بين بريطانيا والاردن هي عديمة الامل بصورة يائسة، وكان هذا بالواقع ايضاً هو مظهر الاردن نفسه!..

لقد كان هذا البلد نتاج عدد من الاحداث الخارجية. ففي نهاية الحرب الكونية الاولى، وبعد نجاح الثورة العربية ضد الاتراك، كانت هناك مقاطعة شرقي نهر الاردن لم يحسب لها حساب في التسويات والتقسيمات التي وقعت. في ذلك الوقت ومن وجهة نظر الحكومة آنذاك، بدا وكان الاردن هو الإقتطاع الطبيعي للأمير عبدالله، وهو الاخ الاصغر للملك فيصل، والذي لولا ذلك لبقي صفر اليدين ودون اي نصيب في تلك التوزيعات. وهكذا فقد اسست إمارة شرق الاردن في سنة ١٩٢٢ وشرع في بنائها الامير عبدالله بمساعدة بريطانية خلال العشرينات والثلاثينات «١٩٢٠ - ١٩٣٠»، ثم بعد الحرب العالمية الثانية وقعت حادثة سياسية أخرى، إذ انه بعد الحرب العربية الإسرائيلية التي تلت إنتهاء الإنتداب البريطاني على فلسطين، بقيت منطقة كبيرة غربي نهر الاردن في أيدي العرب. وعندما لم يتوفر حل افضل لهذا الوضع انضمت هذه المنطقة الى منطقة الامير عبدالله حيثُ تالف من الإثنتين «المملكة الاردنية الهاشمية» بإجماع عام من الشعب الاردني والشعب الفلسطيني.

ومنذ ذلك الحين وجد الاردن نفسه منغمساً حتى اذنيه في المشكلة المريرة من

العلاقات العربية مع الدولة الجديدة وهي إسرائيل. وكانت نظرة الملك عبدالله ان ينظر الى هذه المشكلة، بعين الواقع والمنطق، ومن أجل تحقيق هذه النظرية، فقد كلفه الامر حياته، حيث استشهد في القدس في المسجد الأقصى قبل اداء صلاة الجمعة هناك، عندما كان يقف بجانبه حفيده الصغير «حسين» الذي تفادى الرصاص باعجوبة، فلقد جاءت رصاصة طائشة الى صدر الحسين فاصطدمت بأحد الأوسمة على صدره وحماه الله تعالى وهو سبحانه كان دائماً يحميه من اي حادث حتى ان دكتور سمير الرفاعي قال لي في ذلك الوقت ان الله يحمي الحسين دائماً.. من اي حادث حتى لو كان حادث سير عادي.



وبعد ان تسلم الحكم لفترة وجيزة طلال بن عبدالله، وكان رجلاً صاحب جاذبية

هائلة، لكنه اصيب بمرض «عصبي» وتنازل عن الحكم للأسباب الصحية، فخلفه على العرش ولده «حسين» وقد كان شاباً لم يتعد الثامنة عشرة من العمر.

ومنذ انتهاء الإنتداب على فلسطين ١٩٤٨، كانت العلاقات الأردنية مع بريطانيا تسير بموجب معاهدة التحالف المعروفة.

ويساعد هذا الوضع المستقل والمعترف به، في ان تقوم بريطانيا بتقديم العون العسكري وكذلك إنشاء القواعد البريطانية فيه ومن ثم تقديم العون المالي كذلك.

عندما عُينتُ سفيراً الى عمان، كان هناك اتجاه في بريطانيا لاعتبار المعاهدة والعلاقات البريطانية مع الأردن وكأنها امر بديهي، ويعتبر هذا الاتجاه تبسيطاً شديداً للأمور بحيث لم تؤخذ احداث الماضي بعين الإعتبار. وفي الحقيقة لم تكن فكرة المعاهدة منذ سنة ١٩٤٨ إلا الفصل الاخير الفاشل في العلاقات التي يعود تاريخها الى الثورة العربية، فلقد قدم الاردن خدمات جُلّى الى بريطانيا قبل فترة المعاهدة. وخلال الحرب الكونية الثانية، كان الامير عبدالله وحده، دون بقية الحكام العرب، الذي لم يخامره شك مطلقاً في انتصار بريطانيا. وكان الراي العام في الاردن يعاضد الامير ويدعم قراره في إرسال فرقة الجيش العربي «هكذا كان يدعى جيش شرقي الاردن في ذلك الزمن» الى العراق كي يحارب الى جانب القوات البريطانية ضد جيش العراق الذي كان يتجه الى المعسكر الشرقي، وكذلك قبل المعاهدة، قدمت بريطانيا للأردن اعظم الخدمات، اهمها كان في مطلع العشرينات (١٩٢٠) عند تقديم الطائرات النموذجية ذات المقاعد المفتوحة وسيارات الرولز رويس المصفحة القديمة. وقد شاهَدت هذه الفترة طلائع الجيش العربي، واستهلال التعليم والتجارة والإدارة الحكومية. وكذلك بالجوار وعبر نهر الأردن كان يجري تدريب رجال الإدارة من قبل حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين، والذين اصبح معظمهم فيما بعد يديرون دفة الحكم في دولة الأردن الحديثة.

وبالقاء نظرة الى الوراء في ذلك الوقت منذ ١٩٤٨، نجد ان تلك الحقبة تمثل فترة

مخيبة مؤلمة في هذه المسيرة. نعم، شاهَدَت تلك الفترة النمو السريع للجيش العربي، وزادت المعونة المالية البريطانية زيادة ملحوظة، ويعني ذلك بالتالي زيادة في ثروة البلاد إلا ان الاطراف المشتركة في المعاهدة كانت تتحدث بلغات مختلفة لا تفاهم بينها!..

كان ذلك هو الوقت الذي حملت فيه بريطانيا وأمريكا تهديدات روسيا بغزو الشرق الاوسط على محمل الجد الى ابعد الحدود. وبالنسبة لبريطانيا، كان الجيش العربي، تحت إمرة الجنرال جلوب، يتمثل في فرقة تضم احسن الرجال المحاربين يتمركزون في المنطقة، ويرتبطون بالغرب بالمعاهدة البريطانية الاردنية، وما ارخص الثمن الذي لم يزد على إثني عشر مليون دينار كنا ندفعها معونة مالية للأردن..

وعلى كل حال كانت نظرة الاردنيين تختلف إختلافاً بيّناً، ذلك انهم ما زالوا يعانون من اثر الصدمة التي خلفتها الحرب في فلسطين سنة ١٩٤٨، إذ ان تدخل الجيش العربي هو الذي حافظ على القضية العربية من نكسة مدوية اخرى. وقد كانت إسرائيل بالنسبة إليهم العدو اللدود، اما روسيا فقد بدت في نظرهم هي الصديق!...

ولم يطل الوقت قبل ان يظهر للعيان تحول وانحراف المصلحة، خصوصاً وأن دولة الاردن الجديدة رغم ازدياد حجمها بانضمام دولة اخرى إليها، اصبحت تشعر وكأنها تكاد تغرق باللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا ينظرون الى بريطانيا بأنها سبب بلواهم[(١)]. ولذلك كانت المعاهدة البريطانية الاردنية منذ سنة ١٩٤٨ منذ اللحظة الاولى من توقيعها تحوي بذور التدهور والهدم، فلقد كان كل شريك فيها يفكر في عدو مختلف. في البدء كان هذا التدهور يسير ببطء، ولكن بعد اغتيال الملك عبدالله ودخول النفوذ الروسي الى منطقة الشرق الاوسط، يدعم هذا كله عملية صفقة السلاح بين تشيكوسلوفاكيا ومصر، ازداد ذلك التدهور واصبحت الخطوة البطيئة عدواً سريعاً.

ولقد مكّنتْ عملية صفقة السلاح التشيكية، الرئيس عبدالناصر، من إعادة

(١) حيث كان وعد «بلفور» يطل برأسه دائماً عندما كان يفكر الفلسطينيون وإخوانهم الأردنيون بأن بريطانيا كانت وما زالت هي سبب بلاء العرب.

تسليح الجيش المصري، وظهر بعد ذلك وكانه القائد المظفر لحملة تخليص الأرض المغتصبة في فلسطين. وكانت وجهة النظر هذه التي تبناها عبدالناصر قد أكسبته الراي العام الاردني الى جانبه، فنشأ بعد ذلك انحياز تام الى الجانب المصري وابتعاد خطوة اخرى عن بريطانيا. وفي ديسمبر ١٩٥٥ كان اقتراح بريطانيا بانضمام الاردن الى حلف بغداد، الغربي الصبغة، قد رفضته الحكومة الاردنية تحت ضغط عارم من الرأي العام ومن الجماهير المحتشدة في مدن المملكة، ذلك الضغط الذي بدا واضحاً من المظاهرات العارمة من الشعب الأردني ومن تعليقات الصحف وغير ذلك...

وعلى الصعيد الأردني كان هناك خطأن يتمثلان في تسلسل الحوادث وهما واضحا المعالم: أولهما المركز المسيطر الذي كان يشغله الجنرال جلوب كرئيس لهيئة الاركان العامة للجيش العربي. وكان جلوب وهو صاحب كفاءة وخلق، قد بنى الجيش من أصغر «جندرمة» الى فرقة عسكرية قوية مدربة تدريباً عالياً. ولم تكن العلاقة طيبة بين الملك حسين وجلوب مطلقاً، وكان التاريخ قد أعاد نفسه بصورة غريبة في العلاقات بين ملك شرقي شاب ووالي بريطاني عجوز، فكانت هي العلاقة نفسها بين عباس الثاني وكرومر، وبين فاروق وكيلرن، إلا أن الشخصيات في هذا المجال تتباين، واتخذت المأساة وجهة مختلفة....[1].

في مطلع سنة ١٩٥٦ كان الجنرال جلوب سيحال على التقاعد خلال بضعة أشهر، وكان من الطبيعي لو أن الملك افسح المجال أمام جلوب كي يتم مدة خدمته، ومن ثم يضع الملك نصب عينيه في أن يخلف الجنرال جلوب ضابط عربي في هذا المنصب. وكان ممكناً بهذه الصورة أن يُرضي الملك الضغط الحاصل في الجيش، لنقل القيادة والمسؤولية، بصورة اسرع، الى الضباط العرب، لكن هذا الإجراء ما كان ليحقق الغرض الأسمى الذي سعى اليه الملك حسين، اذ «بخبطة» واحدة نصب نفسه على رأس

(١) وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير هو أن الحسين طلب جلوب باشا الى مكتبه وعندما سأله الحسين ألا تعتقد يا باشا بأنه حان الوقت لدعم الجيش وتسليحه مجدداً، تجهم وجه جلوب وأجاب يا جلالة الملك لماذا نسلح الجيش، هل نحن سنحارب اسرائيل؟ فكظم الملك حسين غيظه وقرر في تلك اللحظة أن جلوب يجب أن يتقاعد ويعود لبلده، وأخذ منذ تلك اللحظة يخطط لطرد جلوب، وهكذا كان

الحركة الوطنية، بدلاً من أن ينجرف فيها، لكن الملك الشاب أصبح رجلاً صاحب إحساس رفيع جداً، فتعدى بحيويته الدافقة ذلك العامل الخاص، وقرر بأنه حان الوقت في «ألا يكون في الأردن قائدان للجيش بوقت واحد وأن جلوب يجب أن يذهب»...

وقبل بضعة أشهر كان هناك ضابط برتبة ماجور «رائد» في الجيش العربي يسمى علي أبو نوار، قد عُين مساعداً للملحق العسكري في السفارة الأردنية في باريس. وكان جلوب قد أرسله الى هناك لعدم ثقته به، إلا أن هذا الإبعاد جاء بمثابة اللبنة الأولى لتحقيق مستقبل زاهر لأبي نوار، وعندما زار الملك حسين باريس قضى أبو نوار بمعيته وقتاً غير قصير فاكتسب ثقة الملك وأصبح صديقاً مقرباً منه، وبعد فترة وجيزة كان أبو نوار، الذي يحقد على جلوب ويشتعل طموحاً، قد أعيد الى عمان ليصبح مرافقاً خاصاً للملك.

وخلال تلك الفترة المضطربة التي تلت حلف بغداد الفاشل، كان الانتقاد شديداً على الملك وعلى الملكية في الأردن، وأنهما يقفان عقبة في طريق الوصول الى الأماني الوطنية، وأنهما منغمسان جداً «بالدهان البريطاني»...[1] ولقد قدر الملك حسين أنه إذا ما قام بعملية «درامية» ضد بريطانيا فإنه يستعيد بذلك شهرته التي بدأت تتضاءل، وأن أبو نوار بتأثيره القيادي في الجيش يتمكن من تنفيذ ما يطلبه الملك. وبالفعل ثبت أن حساب هاتين العمليتين كان صحيحاً. فقد طرد جلوب بصورة مفاجئة، ثم تبعه الضباط البريطانيون في الجيش، واختفى هؤلاء جميعاً بهدوء وكبرياء عظيمين، منسحبين الى حياة التقاعد...[2]

ولم يتوافر أي دليل على أن ما قام به الملك حسين من هذا الإنقلاب الناجح، كان بتأثير أو بإيعاز من عبدالناصر. نعم، كانت الدعاية الناصرية مسؤولة مباشرة وبدون

(١) قصد المؤلف بهذه العبارة (الموالاة لبريطانيا).

(٢) هذا الوصف من قبل المؤلف «مبسط» جداً، فحياة التقاعد لجلوب ورجاله وضباطه البريطانيين كان سيطول على سكت مهمة الحسين الفذ والمشتعل ذكاء...

أدنى ريب عن إثارة النعرات الوطنية في الاردن، وهي التي ساعدت الى حد ما على خلق هذا الجو. ولكن يظهر ان هذا الانقلاب بالذات كان بصورته الشاملة من صنع الحسين وأبي نوار، ولم يمنع هذا الانقلاب من مجابهة نتائج تاريخية كان مستواها يتخطى حدود الاردن كثيراً، وذلك لان المستر انطوني ايدن اقتنع، خطأ او صواباً، أن عبدالناصر كان وراء طرد جلوب، وهكذا فقد اكتملت الصورة بذهنه، الأمر الذي حدا بعدئذٍ أن يتخذ قراره باحتلال السويس.

ومن الغريب حقاً أنه وكما كان ناصر يبحث في كل مكان عن النفوذ البريطاني الذي كان يعمل ضده، كنا نحن بدورنا نتصور، ولفترة طويلة، أن ناصر كان تحت كل فراش، وعلى ما يظهر فقد اشترك ايدن وناصر في هذه النظرية التاريخية لذلك الوهم والتحسب المخيفين والشيطانيين!...

وكان هناك خطأ آخر في تسلسل الأحداث، هو معاهدة سنة ١٩٤٨، من حيث نظرة الأردن الآن، بأنها لم تحقق له الحماية ضد غارات اسرائيل على طول الحدود، بل انها أيضاً تقف حجر عثرة في سبيل التخطيط لعمليات هجومية ضد اسرائيل، وبذلك كانت المعاهدة بالواقع ضد مصلحة الأردن تماماً من كل ناحية إلا فيما يتعلق بالنواحي المالية. وخلال سنة ١٩٥٦، زاد التوتر على الحدود الاردنية الإسرائيلية، أولاً بسبب غارات الفدائيين من الحدود الأردنية على إسرائيل والتي كان ينظمها الأردنيون والمصريون، وثانياً بسبب قرار الحكومة الإسرائيلية الإنتقام وبمنتهى القسوة.

وقد بلغت هذه السياسة أوجها عندما تحطمت ثلاثة حصون للبوليس في الأردن خلال شهر ايلول (سبتمبر)، ونتج عنها أيضاً حملة هجوم إسرائيلية على اكبر مستوى في منطقة قلقيلية، في مطلع شهر اكتوبر. ونتيجة ذلك، كان الأردنيون جد مشوقين للبحث عن معونة عسكرية من خارج البلاد وبعيداً عن التحالف البريطاني. وقد بدأت محادثات مشددة مع الدول العربية الصديقة للأردن. وكان مجرى هذه الإتصالات قد دفع الأردن الى ابعد حد كي يتجه نحو مصر وسوريا والعربية السعودية. وبعيداً عن بريطانيا والعراق (حيث كانت العراق في تلك الفترة ما زالت ملكية تحت حكم ابن عم

الملك حسين فيصل الثاني. ومع نوري السعيد رئيساً للحكومة، ومع معاهدة تحالف بريطانيا وكذلك مع علاقات بريطانية قوية ايضاً).

وحول نهاية اكتوبر بلغت هذه الإتجاهات اوجها عندما تم التوقيع في عمان على حلف امني متبادل بين كل من سوريا والأردن ومصر، تعد بموجبه جبهة عسكرية مشتركة من الجيوش العربية، تحت قيادة رئيس مصري لهيئة الأركان.

وفي شهر اكتوبر جرت انتخابات للمجلس النيابي الاردني، نتج عنها نجاح ساحق للجبهة الصديقة مع مصر، وبالنتيجة تالفت حكومة جديدة تراسها «سليمان النابلسي» الذي كان زعيماً للحزب الاشتراكي الوطني ومواليا شديداً لمصر، ومعادياً لبريطانيا. وهكذا، وحتى قبل مشكلة السويس كان الجو مهياً لانهيار لا حد له في العلاقات البريطانية الاردنية.

كان الهجوم الإسرائيلي في سيناء مفاجاة شديدة للأردنيين. ولم يكن قد مضى اسبوع على استلام النابلسي للحكم، ولذلك واجه الحكم الاردني قراراً صعباً: كيف يمكن للأردن أن يقوم بتعهداته التي احتواها الحلف الامني المتبادل، والموقع حديثاً بالمسارعة الى نجدة مصر؟!.. ولكن الصيغة التي تبنتها الحكومة الأردنية والتي تمكنت لحسن الحظ من ان تتمسك بها، كانت تتلخص ان على الأردن واجباً أولياً تجاه القضية العربية العامة، وهو المحافظة على حدوده. وقد أوضح عبدالناصر الامر بجلاء الى الملك حسين بانه لا يريد من الأردن ان يقوم باي هجوم. وقد أُعلنت حالة الطوارىء وقُطعت العلاقات مع فرنسا التي أُظهرت آنذاك وكانها المؤازر الرئيسي لإسرائيل. وكانت هذه الإجراءات قد اعدت متنفساً بعيد المدى لعواطف وهيجان الشعب. وكانت المرحلة التي تلت، اي الإنذار البريطاني الفرنسي ثم بدء العمليات الجوية ضد مصر، ذات تاثير مذهل على الرأي العام الاردني . وقد فكرت الحكومة جدياً بقطع العلاقات الدبلوماسية مع المملكة المتحدة، ولكن منعها من اتخاذ هذا الإجراء، هو التفكير صراحة بان ذلك سيؤدي الى قطع المساعدة المالية فوراً!!..

وفي الوقت نفسه، وحسب تعليمات الحكومة البريطانية، حزمت قوة السلاح الجوي البريطاني امتعتها منسحبة من مطار عمان قبل نهاية شهر اكتوبر الى القاعدة الجوية المنعزلة في الصحراء في المفرق شمالي عمان، وخلال الأيام القليلة التالية تم سحب جميع من تبقى من الموظفين البريطانيين الذين كانوا يعملون مع القوات الأردنية في مستودع الذخيرة الكبير التابع للجيش البريطاني في الزرقاء شمالي عمان، وفي الوقت نفسه أيضاً ترك البلاد معظم الرعايا البريطانيين.

وكانت العقبة، وهي ميناء الاردن الذي يقع على راس الخليج، محروسة تماما بحامية بريطانيا، تتألف من فرقة عسكرية مدرعة مع فصيلة واحدة منعزلة في داخل البلاد بين شجر النخيل في مدينة معان. وكان جنودنا مرابطون اساساً هناك تلبية لطلب من الملك عبدالله للحماية من الاعتداءات الاسرائيلية التي كانت ميناؤها "ايلات" الجديدة تظهر بوضوح من العقبة عبر الخليج نفسه، وبقيت هذه القوات حيث كانت طيلة أزمة السويس دون أية مضايقة تذكر.

وبدون شك يرجع الفضل في حفظ النظام في الاردن خلال تلك الايام العصيبة الى حكومة النابلسي. ولو كانت هناك حكومة يمينية أو حكومة مراقبة محايدة. كان لا بد من حدوث انفجار في المشاعر الشعبية وبالتالي كان يمكن أن تجابه القوات البريطانية الباقية في المفرق ومعان والعقبة اخطر المواقف. ويكون الموقف مشابها لذلك، لو أن الانتخابات البرلمانية الاردنية قد وقعت بعد اسبوعين من الحوادث، اي بعد هجوم اسرائيل على السويس، ولكانت النتيجة أن تجيء حكومة اكثر تطرفا فتستطيع بسهولة أن ترفض أي تعامل مع بريطانيا بصورة قطعية، ولذلك كانت المصادفة التي ضبطت توقيت الانتخابات، قبل أزمة السويس، تعتبر من حسن حظ الأردن، وللمهمة التي كان عليّ أن اقوم بها هناك.

وقد كان رضوخ بريطانيا وفرنسا لأمر الامم المتحدة بوقف اطلاق النار قد خفف من التوتر الواقع في الأردن، لكنه بقي عاليا بصورة مزعجة، حتى جاء اعلان قرار انسحابنا من منطقة القنال، وفي الواقع كانت حكومة النابلسي قد تمكنت من المحافظة

على تهدئة الجماهير، ذلك لأنها كانت تقوم بما تريده الجماهير نفسها. وخلال شهر نوفمبر ظهرت علائم مزعجة إذ أخذ اسلوب وسياسة حكم الجماهير يتفشيان ويظهران في عدة نواح، فقد طُرد من الخدمة عدد من كبار الموظفين القديرين والمجربين، وما ذلك إلا لأنهم كانوا مكروهين من قبل زملائهم الموظفين الآخرين الاكثر تطرفاً في الحكومة أو لصداقتهم الوطيدة مع الغرب، أو لأسباب شخصية حاقدة... وخلال أزمة السويس دخلت جيوش من العراق ومن سوريا والعربية السعودية الى الاردن برضى وموافقة الحكومة الاردنية نفسها، وبعد انتهاء الازمة أصر النابلسي على انسحاب القوات العراقية، إلا ان القوات السعودية بقيت في الاردن حتى بعد ان اختفت الاسباب العسكرية لوجودهم بمدة طويلة. وكان هذا يسبب تأثيرا مزعجا، ذلك أن بقاء هذه القوات متمركزا هناك لم يكن الا بقصد تامين أحسن النتائج لبلاد كل منهما، وذلك في أية حالة تجزئة!..

وبالاضافة الى ذلك كانت الاجراءات الأولية تسير في طريقها نحو اتفاقية مستعجلة لامداد الاردن بمساعدة مالية من مصر وسوريا والسعودية، وذلك بقصد تمكين الاردن من الاستغناء عن المعونة البريطانية، وبعدها من إنهاء المعاهدة البريطانية الاردنية.

وحتى ذلك الحين ظهر بوضوح ان العلاقات البريطانية قد اضمحلت، فلا ترجى منها أية فائدة لنا، وأن المعاهدة لم تكن الا واجهة فارغة لكنها غالية الثمن. وكان مركزنا في الاردن قد اصبح مثلاً واضحاً على التطويل الممل والذي كان من الضروري التخلص منه نظراً لمصلحتنا الاقتصادية العامة. ولكن المشكلة كانت في كيفية الخلاص دون ان نحمل أنفسنا مسؤولية جلب الفوضى الى بلد تحملنا بناءه بتعب شديد خلال الحقبة الطويلة الماضية.

وهنا، ومن وجهة النظر البريطانية الانانية، كان الامل في عقد اتفاقية لمساعدة الاردن من قبل اصدقائها العرب، قد جاء نوعاً من العون الالهي..

كان هذا هو الوضع الذي وجدته ماثلاً امامي خلال الايام القليلة الاولى من اقامتي في عمان!...

الفصل الخامس

مباشرة الاتصالات

عندما بدات اول زياراتي لوزراء التاج الاردني، كانت عملية السويس ما زالت مستمرة. ومن جميع وجهات النظر، لم يكن الوقت مناسبا لسفير بريطاني كي يتعرف على اناس كانت صناعتهم مقاومة بريطانيا والتعاون المطلق مع مصر، ومعظمهم تتالف منهم حكومة النابلسي، والحق ان تلك اللقاءات ادهشتني!.. وقد تقمصت اقصى حالات الخداع والصلابة، وقررت مسبقا ان لا اظهر اي نوع من الحرج المفاجىء... وقد بدا واضحاً من الذين زرتهم انهم يشعرون بحرج الوضع، لكن اخلاقهم العربية الجميلة لم تفارقهم لحظة واحدة. فكانت تدار القهوة ثم تقدم السجائر، بل وتشعل لي ايضا، وكانت شعائر الضيافة والمضيف تمثل بدون اي عناء او تكلف. كنت اسمعهم دائما يرددون "اهلا بك ومرحبا" وربما يخيل لاذن مفرطة في الحساسية ان هذا الترحيب الذي يظهر وكانه اقل ايناساً من تلك التاكيدات التي تحتاج لان تثق بها، تاثيراً عكسيا، ربما يعني خلاف ما يقولون.. ومن حسن الحظ كنت اعرف ان ذلك الترحيب المقتضب، لم يكن يعني اكثر من اي تعبير مناسب مشابه في اللغة الانجليزية، ومماثل ايضا للتعبيرات الترحيبية المتداولة ايضا باللغة العربية. ولكن ما كان يثير اهتمامي هو اللهجة التي يلفظ فيها ذلك الترحيب. ولكي يوحي بشيء ما مثلا، فإن العربي ليمحو بعض المفاجآت او يتسامح عن بعض التناقضات، ينطق بصوت عالٍ مصطنع "اهلا بك ومرحبا" وذلك اول ما يقع نظره

عليك. وكان الترحيب يعلو ويرتفع حتى ليصبح كانه زعيق الخفاش، الى ان يتجاوز تقريباً محيط الأذن العادية..

واستقبلني رئيس الوزراء بترحاب غير منتظر. وكان النابلسي يشغل مركزاً قوياً كرئيس للحزب الوطني الاشتراكي الذي حصل في الانتخابات على اقوى جماعة في البرلمان الجديد، ومع هذا كله فقد كان هو نفسه أبعد ما يكون عن الشخصية القوية. وكان السفير البريطاني، من وجهة نظره ونظر بعض زملائه، شخصية خطيرة نوعا ما، فقد كانت وجهات النظر وردود الفعل في الماضي ما زالت عميقة الصبغة والجذور... وكان بعض من اللطف والتواضع من ناحيتي يقابل بترحاب مباشر، ما كنت اخطئه اغلب الاحيان، وكان بإمكانك ان تسمعهم يفكرون "يدل مظهر الرجل على انه استعماري (امبريالي) ولكن، لعله غير ذلك بالمرة" ويضاف الى هذا ان النابلسي كانت لديه اسباب خاصة لكي يبني علاقات عمل طيبة معي منذ البداية فقد كان هو الرجل الذي تعهد ان يحرر الاردن من اغلال المعاهدة، فاذا لم يوفق بأن يضمني الى جانبه، فانه سيواجه مهمة خطيرة، وكان الاردنيون من الملك حسين حتى اصغر مواطن، يعتقدون جميعهم بأن التحالف معهم كان لاسباب غامضة ذات أهمية عظمى لنا، وأنا لهذا سوف نخلق صعوبات جدية في وجه الاستغناء عنه!..

وكانت للنابلسي جلسة مميزة على مكتبه في رئاسة الوزراء. كان يجثم بحذر على حافة مقعده ويلف رجلاً على اخرى، تحط رسغ قدمه على ركبته - ويقذف من بين شفتيه المبللتين الغليظتين ليتفوه ببعض الصراحة التهكمية - فكان صورة طبق الاصل من عُبّاد المتعة المولعين بالفنون الجميلة!.. وقد سبق له ان كان سفيراً للأردن في لندن، فكان يتكلم الإنجليزية جيداً مع تكلف خاص. وكما هو الحال مع كثير من من العرب كانت كلمة «لكن» (But) تسبب له صعوبة مفاجئة، فكان يلفظها إما مفخمة (Bot) أو مبسطة (Bat) وهذه الاخيرة تعني بالعربية «بط» وبالنسبة لي كانت كلمة «بط» تحملني في تفكيري الى المستنقعات الراكدة والأصوات الخافتة قبل مطلع الفجر!..

اما علي ابو نوار الذي أصبح «ميجر جنرال» ورئيس هيئة الاركان فقد كان يمثل دور «التظاهر بالسذاجة» (Fausse Bohhomie) ولكي يصافحك، كان يسحب ذراعه اليمنى الى الخلف والى الاعلى وكانه سيضرب كرة الجولف، وكان يدك ان امتدت اليه فما هي إلا كرة الجولف التي يستعد لقذفها بعصاة الجولف، فتطير مزمجرة الى آخر الحقل. وكنت دائماً مغرماً بمعرفة أخلاق الناس وحركاتهم الإجتماعية، فقمت ببعض التحريات حول أصل طباع الجنرال فوجدت انه مثلاً بهذ الحركة يقلد الكولونيل عبدالناصر، وكانت حركة المصافحة هذه تشبه التحيات الماسونية للضباط الوطنيين الصغار المتحزبين المرحين!.. وقد انقلبت هذه الحركة الى عادة مع «أبو نوار» واغرب ما فيها ان «ابو نوار» يستعملها مع السفير البريطاني الجديد الذي جاء للسلام عليه خلال ازمة السويس!

كان ابو نوار صاحب مزاج متقلب، فهو خلال فترة وجيزة من الحديث يتقلب بين اللطافة، وحدة النقاش والاستبداد بالراي، ومن ثم الى الضحك البريء كالاطفال. كان يتكلم الإنجليزية جيداً، مع لكنة غامضة في صوته تشبه لكنة أهل منطقة (لانكشير) في انجلترا، فمثلاً كان يردد بالعادة الجملة [1] (As matter of fact) ينطقها مفخمة، وذلك لكي يبتعد بك بصورة خاصة مؤثرة عن الإفصاح عن امر ما!.. وكان هذه العبارة هي على وجه التقريب «توقيعه الصوتي»...

وكان عبدالله الريماوي زعيم حزب البعث قد نجح في انتخابات اكتوبر وكسب مقاعد في البرلمان الاردني لاول مرة. وكان البعثيون يتحالفون مع الحزب الإشتراكي الوطني التابع للنابلسي والذي كان يفوق البعثيين عدداً. وكان الريماوي يشغل المنصب المتواضع تقريباً كوزير دولة للشؤون الخارجية، وهو الوزير البعثي الجديد في الوزارة، إلا انه كان يتمتع بتاثير متفاوت لا باس به، وذلك من خلال تحالفه مع وزراء النابلسي المتطرفين، ومع علي ابو نوار، ومن خلال شهرته الخطيرة بين الجماهير في مدينة عمان.

(١) أي لفظة حرف (t) مفخماً ليصبح قريباً من (ط)

وكان البعثيون يتواجدون أيضا في كل من لبنان وسوريا حيث جاهروا بالعقيدة المثالية لنهضة العرب، وربطوا هذا مع نعرة قومية قوية، حول قضية فلسطين، والرغبة في ان يشهدوا الأردن مندمجا في مشروع سوريا الكبرى - وبصورة خاصة حصل التقارب بينهم خلال أزمة السويس، وفي بعض الاحيان الاخرى كانوا يتنافسون معهم. وكانوا متطرفين اكثر من جبهة الحزب الاشتراكي الوطني التابع للنابلسي من حيث كراهيتهم لبريطانيا، وكذلك للملكية الهاشمية في الأردن.

كان الريماوي رجلا صغير الجسم وله عينان حادتان تلمعان خلف نظارات ذات برواز معدني، وكانت له صفة التعصب التي كانت تنعدم تماما في النابلسي، وكنت أتصور انه لو تمكن أن يصل الى سلطة عليا لتصورت الرؤوس تتدحرج على الارض.. ولحسن حظ الأردن لم يكن الريماوي شبيها ب " روبسبير فرنسا" ، ومع أنه كان يظهر كالبحر الهادىء، إلا انه كان عميق الغورا..

وكانت مهمة تقديم أوراق الاعتماد الى الملك حسين لها أهميتها. فلقد ارتديت الالبسة الرسمية مع السيف - ذلك الذي أخرجته من حزمته الورقية - ولكنني اكتشفت بانني في زحمة السفر من لندن نسيت أن أوصي على قبعة السفير.. وكنت بذلك " صاحب السعادة الكامل" لولا قبعة السكرتير الثالث، والتي لم تكن الا شيئا سخيفا اكثر من قبعة السفير نفسها.

وبعد تفتيش حرس الشرف في ساحة القصر المقابلة، ادخلتُ لمقابلة الملك، واستقبلني مع سليمان النابلسي واقفاً الى جانبه، وقدمت خطاباً مختصراً يعبر عن اعتزازي بتمثيل بريطانيا للاردن، وأجاب الملك كذلك بعبارات مهذبة وغاية في اللطف.



جلالة الملك حسين بن طلال (١٩٥٦)
في عز شبابه وأوائل ايام حكمه في الأردن

وخلال حديثي معه بعد ذلك، وجدت نفسي مكتنفاً بستارة كثيفة من اللطف

والمجاملة العربية.. "نأمل ان تكون سعيداً بيننا، ونأمل ان تكون عائلتكم بخير وهكذا مع سلسلة لا نهاية لها من ادب الحديث اللبق، ولقد تبين لي بوضوح، ان الملك كان يخفي وراء أخلاقه الهاشمية الطيبة، تصميمه على الاحتفاظ بمسافة كافية في بيني وبينه، حتى أنني تصورت بأنه من الصعوبة بمكان عظيم خلق علاقة قريبة معه، وكان هذا بالحقيقة يمثل غضبه وأمله حول تصرفاتنا في السويس، اكثر من اى وزير أو تابع له من العاملين ضد بريطانيا.



جلالة الملكة زين الشرف المعظمة ومعها سمو الأمير حسن (١٩٥٦)

ولكن وبالمقابلة، فقد قوبلت بالترحاب وبحرارة ودية من قبل الملكة الوالدة، وكانت الملكة زين نفسها أميرة هاشمية، وابنة عم زوجها الملك طلال السابق، وقد وجدتها سيدة ذات سحر وشجاعة وذكاء وقاد. وعندما استمعت الى جلالتها وهي تحدثني عن الوضع كما تراه، بمنطق صريح للغاية وبلغة فرنسية عثمانية انيقة، خيل الي فجأة بأن الغرب لم يعدم الاصدقاء في المنطقة من المثقفين ومن اصحاب الدراسات السياسية العاليه.



الفصل السادس

الحياة اليومية خلال الأزمة

كم كنت اتمنى لو اني تمكنت ان انقل هنا وصفاً جيداً للجو في تلك الايام الاولى في عمان. فلقد كان البرد شديداً جداً - وكان ذلك الشتاء قارصاً في مرتفعات شرقي الاردن، وكان هناك شعور يميل بك نحو إشعال النار، ولبس البدلات السميكة، وارتجال الخشونة القاسية.. فلقد كانت نساء وعائلات السفارة ما زالت متغيبة في انجلترا بعد ترحيلها منذ ازمة السويس. وكان امامنا عمل كبير، وليس هناك وقت للقلق، وفي الحق كانت الحياة سعيدة بشكل غريب وكانت الواجبات تتوالى متلاحقة..

بعد ظهر احد الايام وعندما شعرت اننا اكتفينا من العمل غادرت عمان بالسيارة مع "هيث ميسون" الى صيد الحجل بموقع جرف يطل على وادي الاردن. وفي طريقنا اخترقنا قرية هناك حيث اوقفنا السيارة فوق منحدر هائل يؤدي الى البحر الميت. وكان الحجل "يقاقي" حولنا، لكنه كان كثير الدهاء، ومتعدد الانواع البلجيكية القوية، حيث يطلقون عليه في الشرق اسم "شيكور" فلم نتمكن منه، ولو بطلقة واحدة. غريبة هذه الطيور الكبيرة القوية، إنها تسير بسرعة تفوق سرعة الانسان بالجري ولذلك يمكنها أن تهرب سيراً على الارض دون الحاجة للطيران في الهواء. وقد حل الظلام عندما انتهينا من الصيد، وما إن بدأنا نصعد نحو القمة حتى

رأينا ضوءاً يلوح لنا، وسمعنا صوتا ينادينا. وغيرنا اتجاهنا الى تلك الجهة فوجدنا رجلاً عربياً يلوح لنا بمصباح كهربائي، ويقف مباشرة أمام كوخ هناك، وأوضح لنا أنه يحرس مزرعة يملكها احد التجار في عمان[١]، وانه كان قلقاً من اجل سلامتنا، لان القرويين في قرية مجاورة علموا اننا بريطانيون، وانهم قرروا ان يخرجوا الينا كي يطلقوا النار علينا ويقتلونا، ولهذا ارادنا ان نزوره في بيته حالا لشرب القهوة معه، حيث نصبح بعد ذلك مباشرة ضيوفاً عليه وضمن حمايته فلا يتمكن منا القرويون كي ينفذوا ماربهم، وقد قبلنا عرضه بحماس وفي اللحظة التالية كنا نجلس معه في غرفته الخاوية الصغيرة بينما كان الماء يغلي ويفور على "وابور البريموس" وعرفنا بنفسه فقال انه يدعي "احمد زيدان" وانه كان لاجئاً من فلسطين وان الاسرائيليين كانوا قد صادروا ارضه، الا انه جد سعيد بوضعه الحالي. وقبل ان نغادر كوخه شكرناه على ضيافته، بل وأكثر من ذلك شكرناه بحرارة على فكرته الحازمة. التي ادت الى تلك الضيافة.

وقد أوضح لنا ان شعوره كان انسانياً وهو الذي جعله يتدخل بهذه الطريقة، ثم اصر على مرافقتنا وانارة الطريق لنا بمصباحه حتى نصل الى سيارتنا، وسرنا بعد ذلك في الطريق مخترقين القرية دون اية حادثة.

وترك احمد زيدان[٢] في نفسي انطباعاً عميقاً، إذ انه من بين جميع الناس وكلاجىء فلسطيني مشرّد، وتتوافر له اسباب كثيرة لان يكره البريطانيين، وخصوصاً في مثل هذه الأوقات الحرجة من ازمة السويس، يجد في نفسه حافزاً ليقوم بما قام به، فضلاً عن الحمية العربية الرائعة والشعور بالأخوة السمحة، الامر الذي حدا به ان يضعنا تحت حمايته بالرغم من نتائج فعلته، التي قد تؤثر على علاقته بالقرويين المجاورين له. وشعرت انني اتعلم دروساً عن العروبة كانت قد فاتتني خلال تجاربي

(١) آل الطباع وزعيمها آنذاك الحاج صبري الطباع يرحمه الله
(٢) قابلت أحمد زيدان الذي كان يعمل في مزرعة الطباع وقد فرح كثيراً بالعبارات التي ذكرها السفير فاحتفى به احتفاءً حميماً صادقاً، يدل على طيبة الرجل.

السابقة في بلدان الشرق الأوسط وسط أوحال دلتا النيل!..

كان بيت السفارة قد بناه «هاريسون» مهندس الحكومة في عهد الانتداب البريطاني في فلسطين حوالي سنة ١٩٣٠ . ومن بين الأبنية الاخرى الرسمية التي بناها، كان الرجل مسؤولاً عن انشاء متحف الآثار الفلسطيني وكذلك بناء دار الحكومة بالقدس. وكانت سفارة عمان أولى مجهوداته، وقد قيل انه تلقى دروساً عديدة من الاخطاء التي ارتكبها هنا. وعلى كل حال كان البيت شامخاً مربعاً تحيط به ساحات من الأمام ومن الخلف. وقد تفرع عن الغرفة الأرضية الرئيسية طابقان فوقها. ويحيط به قاعة كبيرة، تفتح عليها غرف النوم، وتجثم فوقها قبة فخمة، تجعلك تشعر انك في مكان تحوطه القداسة نوعاً ما. وكانت غرفة الطعام تفتح أيضاً على هذه القاعة الكبيرة وكذلك غرفة أخرى لطيفة استعملتُها كمكتب لي، حيث كنت اقضي معظم وقتي خلال فترات الاسابيع الموحشة الباردة. وكانت وجبات الطعام تُرسل اليَّ على «صينية» توضع أمام الموقد الذي تشتعل وتفرقع فيه اخشاب «اليوكالبتوس»، وكنت اضع الى جانبي جهاز راديو، اتتبع فيه نشرات الاخبار من هيئة الإذاعة البريطانية، ولكن باهتمام غير عادي، وكان من السخرية المؤلمة ان اجلس هناك لاستمع الى اللحن المميز لإذاعة عبر البحار «ليلي بوليرو» تتراقص من خلال الثقة الرائعة بالنفس ومن العنجهيات المتتابعة التي خلفتها حروب «المارلبورو»[1] لكي يتلوها فقط كتالوج طويل من المصائب والاذلالات البريطانية!..

وكنت قد علقت صورة زوجتي في كوة في الحائط، وأمام هذه الصورة كانت المراة العجوز، الغسالة "أم محمود"، تضع يوميا إناءً صغيراً يحتوي على زهور طازجة. اما أم محمود هذه فانها كانت تدعم النظرية في ان المراة في العالم العربي موجودة، يراها الانسان ولا يسمعها. وفي هذا المحيط الرجالي الموجود في البيت، كانت تقف بشخصيتها النسوية تطلق صوتها الجهوري الصارخ في ارجاء المكان. وقد سئمت هذه الجلبة الصاخبة، تنطلق عبر الساحة الامامية، وقلت للسيدة؛ بانني اريدها في

(١) المارلبورو: هي الحروب التي حاربت فيها بريطانيا جميع دول أوروبا تحت قيادة (ديوك مارلبورو)

المستقبل أن تتحدث بصوت يشبه "الوشوشة" والهمس، وكان التعبير عن هذه الكلمة، والتي يعتبرها العرب هزلاً، مع تصور أم محمود تعبر عما تريد بمثل هذه الوشوشة، قد بعثت هديراً من الضحك كاد يهدم سقف المطبخ، ومنذ ذلك الحين شعرت بأن خدم البيت على الاقل كانوا في صفي بل والى جانبي.

وفي مطلع شهر ديسمبر بدات الامور تهدأ في نظري وبدأت كذلك ازمة السويس تنقشع، وخلافاً لجميع التنبؤات لم تقطع رقبة أي واحد منا حتى الآن!..

وبعد أن فقدنا ما كنا نتصوره من اغتيالات مثيرة وشيكة الوقوع. فقد بدأنا نشعر بالضجر، واخذت على عاتقي بان ابرق الى لندن موصياً باعادة الزوجات والعائلات كي تنضم الينا في عيد الميلاد.

وكان مثيراً ان نبدأ باعداد البيت لاستقبال "ناتاشا" واجمل ما في الامر استقبالنا لها في المطار. وكنا قد افترقنا منذ اقل من شهرين ولكن بدت هذه المدة وكانها اطول بكثير ذلك بفعل الشك حول اذا ما كنا سنلتقي مرة اخرى او لا نلتقي ابدا!. وجاء معها "مو" كالحارس المارد، وهذا هو خادمنا المصري المخلص الامين والذي كانت الفتنا به شديدة بصورة عامة. وقد وصفت امتعة سفره في كتاب آخر اسميته "مو[1] ومبتكرات اخرى" وكان "مو" هذا بطربوشه وبدلته الكاروه (ذات المربعات) ومعطفه اللبادي المشدود بالحزام، كانه الباشا العائد من لعبة البولو، ولم اسعد ابداً برؤية شخصين كما سعدت الآن برؤيتهما. ومع هذه الامدادات الجديدة، شعرت بأن الامور لا بد أن تصطلح جميعها بصورة مرضية.

وكان المطر في ذلك اليوم رذاذاً، وقد زودتنا الحكومة الاردنية بسيارة مسلحة لحراسة قافلتنا من المطار والى مختلف البيوت التابعة للسفارة.

وجلست مع ناتاشا نتناول طعام الغداء بجانب النار، وقد وضع لنا مصطفى

---

(١) الأجانب يختصرون كلمة «محمد» أو «محمود» باختصار، لذلك فإن «مو» مختصر عن محمد أو محمود.

الطباخ "وهو فلسطيني ذكي شاحب اللون" كعكة من الكلاوي واللحم وغطى الاناء بعجينة مشوية كتب عليها باحرف كبيرة «اهلا وسهلا» (WELL COME)[1]

وكان ذلك الوقت هو اسبوع عيد الميلاد وكنا نقضي حياة مبهجة ممتعة نسينا خلالها "التواء" الشفاه وتقطيب الجبين، وعبوس الوجوه!..

واقيمت في الكنيسة الانجليكانية في عمان صلاة رتلت فيها اغاني عيد الميلاد واشترك فيها البريطانيون مع العرب، وقد رتل اغنية الميلاد كل من الانجليز والمسيحيين العرب، كل واحد بلغته، ولكن بالتناوب. وفي ذلك الوقت حيث كان الجو ما يزال متفجراً، كان الواحد منا يتجنب دائما ذكر كلمة «اسرائيل» في اي حديث كان واتفقنا على استعمال العبارة التالية، لنعبر بلطف عن تلك الكلمة فنقول «شمال ويلز»!.

وكنا قد وصلنا الى منتصف الاغنية «نويل الاول» عندما لمعت تلك الكلمة امامي فجاة. ويظهر ان الاعضاء البريطانيين الآخرين في الصلاة خطرت لهم نفس الفكرة وفي نفس الوقت، وعلى اية حال سمعت الجميع حولي يرتلون كما كنت ارتل لقد ولد الملك ثم غمغمة غير مفهومة! بدل كلمة (اسرائيل)!..

ويوم عيد الميلاد جمعنا الجالية البريطانية حولنا لتناول العشاء وللرقص. وقد كنا فوق الخمسين عددا، وهو خليط مستهجن يمثل فعلا البقايا المتفرقة من الجالية البريطانية التي كانت قوية فيما مضى بالاردن. وكان هناك ما عدا موظفي السفارة وزوجاتهم نصف دزينة اخرى من الضباط من فرقة «الهوزار العاشرة» وممرضة واحدة من المستشفى هناك والتي طارت إلينا خصيصاً لحضور هذا الحفل، وكان هناك ايضا مراسل متجول لجريدة التايمز الذي كان يحاول بدون فائدة الدخول الى سوريا، وحضرت أيضا مربية لطفلة الملك حسين، وبعض مديري البنوك ومهندسي الطيران

---

(١) كلمة الترحيب باللغة الإنجليزية تكتب هكذا Welcome، ولكن (مصطفى الطباخ) كتبها بحدود معرفته بالإنجليزية . Well Come

الذين فضلوا البقاء في مراكزهم بالرغم من تحذير سلفي لهم بوجوب الرحيل، وكذلك مراسل الملكة الذي وصل تواً من بيروت يحمل الينا الرسائل بحقيبة وزارة الخارجية، ونصف دزينة أخرى من ضباط الطيران المدني في المفرق يرأسهم الكولونيل «لاو» وهو شخصية رائعة فخورة، من حملة الشوارب، وهو قد تحمل الحصار في قاعدة الطيران التابعة له من قبل حلفائنا الاردنيين طوال ازمة السويس بروح مرحة، وفطنة، وصبر. وكانت هناك شجرة ضخمة لعيد الميلاد اقتُطِعَت من حديقتنا، وديوك رومية سمينة من وادي الاردن، وبرتقال يوسفي من أريحا، ومنتخب جيد من النبيذ الافرنسي والالماني جاء عن طريق بيروت. وقد استمرت الحفلة حتى الثانية بعد منتصف الليل تقريباً. ويظهر أن ضيوفنا كانوا يتمتعون بالحفلة كما تمتعنا نحن بها «زوجتي وانا». وكانت هذه اول مرة منذ شهور ارتدى فيها معظمهم لباس السهرة ورقصوا طويلاً، ولهذا، وعلى اقل تقدير، لم يكن بينهم احد لم يتمتع بهذه السهرة!..

اما عيد الميلاد عند زوجتي ناتاشا فكان على الحساب الشرقي اي بعد ثلاثة عشر يوماً من عيد الميلاد الغربي، وقد ذهبنا إلى القدس واغرقنا انفسنا في دنيا الارثوذكسية الروسية.....

اما المناسبات التي جعلت من أم زوجتي تصبح رئيسة لدير الراهبات فوق قمة جبل الزيتون بالقدس، كانت من الغرابة بمكان وانها تستحق التسجيل فعلاً.

عندما وُلدت الاميرة «تاتيانا» في روسيا، ترعرعت في جو ديني صارم تحت رعاية والدها الدوق الاعظم «قسطنطين» وفي ذلك القصر المرمري الرائع، «في سانت بطرسبورغ» وتحت القباب الانيقة الرومانية من قصر قسطنطين في مدينة «بافلوسغ» القريبة من خليج فنلندا، نشأت الاميرة تحيطها من كل جانب العقيدة الارثوذكسية وقبل حرب ١٩١٤ تزوجت من الامير قسطنطين «باجرتيون» وكان هذا الزواج هو اول تحالف بين عائلة رومانوف وبين البيت الحاكم القديم في جورجيا. وكان الأمير قسطنطين هذا ملتحقاً باحدى فرق الحرس الامبراطوري، وبهذا بقي بعيداً عن الجبهة وقريباً من شخص الامبراطور نفسه. وقد اصر الامير على طلب نقله الى احدى فرق

المشاة الجيورجية، وبعد أن نجح في الحصول على وسام صليب «سانت جورج» وهو وسام مماثل في روسيا القيصرية لوسام الصليب البريطاني «فكتوريا»، قتل في أثناء احدى العمليات العسكرية في احدى جبهات النمسا سنة ١٩١٥ . وخلال الثورة كانت ارملته مع ولدها وابنتها الصغيرين قد تمكنوا من الهرب من جنوب روسيا عبر البحر الاسود الى رومانيا، بعد سلسلة هائلة من المخاطر، وذهبت الاميرة «تاتيانا» الى سويسرا حيث انشات ولدها وابنتها في جو مروع من الفقر. وبعد الحرب الثانية، وبعد ان تزوجت (ناتاشا) وتزوج (تيموراز) لم يبق اي مانع لدى والدتهما من القيام بما كانت تبتغيه لنفسها منذ زمن طويل، وهو الذهاب الى القدس وارتداء المسوح الكهنوتي في أحد الاديرة الروسية هناك. وباشرت حالا كراهبة مبتدئة في دير الجسمانية، الكنيسة الروسية الفخمة، ذات القباب المتعددة، والتي تشبه قباب كاتدرائية (سانت باسيل) في الكرملين. وبعد فترة وجيزة، طلب إليها أن تصبح رئيسة للدير الارثوذكسي الآخر وهو الذي يقع على قمة جبل الزيتون مع برجه اللولبي الشكل، الشاهق في العلو، حيث يشاهد من وادي الاردن في الايام الصافية، ويشاهد كذلك من جبال مؤاب في شرقي الاردن. وقد اتخذت لنفسها اسم «تمارا» وهو اسم ملكة «جورجيا» والتي انحدر منها زوجها.

وكانت الام تمارا تتميز بجميع الصفات النسوية المقدسة، ليس فقط في انفصالها عن هذه الدنيا وانشغالها بالشؤون الروحية، ولكن ايضا برئاستها الادارية الحكيمة وتصميمها الفولاذي...

وكانت صلواتها تجاب كلها تقريبا... ولم نكن نحن على علم بذلك. فقد كانت تصلي لشهور عديدة داعية لنقلنا الى عمان. وقد كانت القدس (في البلدة القديمة) وكان جبل الزيتون يقعان تحت حكم الاردن منذ سنة ١٩٤٨م، وكانت المسافة بين القدس وعمان تقدر بساعتين فقط، وقد نقص هذا الوقت بعد ذلك بقليل، اذ فتحت الطريق الامريكية الجديدة، مستقيمة عبر وادي الاردن، وكان الامر عجيبا حقا فقد كان من بين الخمسين مركزاً تقريباً التي كان يمكن ان ترسل الى احدها، طلع

الرقم على عمان.

كانت غرفة الرئيسة «المبيضة» باردة كالثلج، تحيط بها الايقونات وصور العائلة الامبراطورية. وقد قالت الام «تمارا لزوجتي: لقد حصل زوجك تشارلز على راسمال لم ينله أحد من السفراء البريطانيين في الاردن قبل الآن، وهو صلوات جميع الكنائس والاديرة ال «برافوزلافنيه»[1] في القدس وكانسان انجليكاني عادي ملحد، وجدت أن الارثوذكسية الروسية الاصيلة التي تصنع العجائب من خلال الصلوات، شيء غريب وأجنبي بالنسبة لي. ولم يكن هذا أبدا ما تعلمته في الصفوف الدينية الاولى في «ونشستر»[2]، وعلى كل حال كان اكتشافي لهذا الجهاز الذي لم يكن في الحسبان والذي يعمل لصالحي، شيئاً مريحاً بصورة غريبة!..

الفصل السابع

ضباب السلام

في مطلع شهر شباط، كتبت لوالدتي ما يلي:

«صباح شتوي جميل تشرق فيه الشمس على الثلوج الكثيفة، اني اجلس خلف نافذة زجاجية في غرفة الطعام الجديدة وهي دافئة جدا، ويشعر الانسان كانه يجلس في فندق للتزلج في النمسا، لولا تلك المئذنة المقابلة التي ترتفع فوق المنحدر المغطى بالثلوج، بدل برج الكنيسة المزخرف. ويقولون ان هذا الثلج هو أكثف ما تساقط منه منذ خمسين عاما وكان هذا هو الحال دائماً».. ولا شك انه سبب خراباً كبيراً لاشجار الصنوبر في حديقتنا وكسر اعمدة الهاتف المحلية، وقد اعتبرنا هذا من حسن حظنا، خصوصا واننا انقطعنا في هذه الهضبة عن كل شيء اللهم الا من وسيلة نقل واحدة، هي سيارة الجيب.. والحياة العادية في عمان تتوقف في مثل هذا الظرف تماما فلا صحف ولا مظاهرات ولا اضرابات حتى ولا أزمة حكومية. ولقد فرحنا (ناتاشا وانا) بهذا الحجز الثلجي.. وها نحن نجلس قرب النار وانا اقرأ لها بصوت عال مذكرات خالها «جبرييل» والتي كنا مؤخرا قد استعرناها من والدتها، وهي مذكرات ساذجة الا انها مشوقة، وتتحدث عن بلاط نيقولا الثاني والغزوات البروسية الشرقية في سنة ١٩١٤، وبالتالي كان ذلك بمثابة تدريب جيد للغتي الروسية، او اننا كنا نلعب لعبة الحواجز الفرنسية الطويلة[١] «لعبة بالورق»، او نستمع الى "الجراموفون"، وكانت لدينا

(١) French Blokade Patience إسم اللعبة الافرنسية

اسطوانات كبيرة جديدة وجيدة، كان من بينها (اغنية ١٨١٢») التي كنا نستمع اليها عند استضافتنا والدة ناتاشا منذ أيام، وانفجرنا كلنا بالبكاء تقريبا عند نهاية الاسطوانة عند نشيد «حفظ الله القيصر» وبالخلفية كانت تسمع اجراس الكرملين تقرع!..

كان من المفروض أن تبدأ في الغداة مفاوضات الغاء المعاهدة الأردنية البريطانية ولسوف يحضر الجنرال «بنسون» وقائد سلاح الجو «جاردنر» وكذلك رئيس اركان القوات المسلحة وقائد سلاح الطيران الملكي في الشرق الاوسط، ليقيموا معنا في البيت من أجل اجراء المباحثات، وكنت انتظر خبراً منهم اذا كانوا سيتمكنون من الوصول الى قاعدة المفرق الجوية بعد ظهر هذا اليوم كما كان مخططاً لهم. وكان الوضع هنا أحسن مما يظهر وكنت آمل في ان نهاية هذه المعاهدة لن تكون نهاية الصداقة بين بلدينا. والحق، وهذا أمر غريب تماما. أن العلاقات بدات تتحسن بدلاً من أن تسوء..

كنت دائما مغرماً بالاهتمام بالتاريخ من حيث معرفة وجهة النظر لوقوع الحوادث. وكانت الطريقة التي تمكنا بها أخيرا من التخلص من المعاهدة الاردنية قد قوبلت بثناء كريم من المستر ماكميلان وحكومته في ذلك الوقت. لانني اشتركت بما بدا بأنه تجربة دبلوماسية ناجحة. فانني سأسرد كيف حدثت بالفعل. وكانت المسألة كلها مثلاً طيباً في أن ضباب السلام الذي نتج عنه تاريخ دبلوماسي كهذا قد استحضر بشكل أو بآخر.

ومع أنه ومنذ طرد جلوب وانتخابات اكتوبر سنة ١٩٥٦ اصبحت المعاهدة الاردنية البريطانية بمثابة فيل أبيض غالي الثمن لبريطانيا، الا ان الحكومة البريطانية قد منعت بشكل ما من ان تكون لها اية مبادرة نحو انهاء المعاهدة بطريقتين مختلفتين.

أولاهما: كان هناك المانع البريطاني الداخلي، اذ انه بعد انتهاء كارثة السويس والانسحاب من القنال، رغبت حكومة المحافظين في أن تتجنب أمثلة أخرى من «الاندفاع الطائش» لان الفريق الذي كان وراء قضية السويس ما زال يمارس بعض النشاط، وكان الوزراء يراقبونهم بعين يقظة.

وجاء المانع الثاني: من منطقة الشرق الاوسط نفسها. فقد كان لدينا اصدقاء هناك، وابرزهم نوري السعيد، في العراق، وكان يمكن لهولاء ان تهتز ثقتهم بنا لو أننا ابدينا اية مبادرة للتنازل عن اي من مواقعنا في الشرق الاوسط مهما كانت ضعيفة.

وبعبارة اخرى، لم يكن يناسبنا ان نظهر بان الاردنيين يريدون طردنا الى الخارج، وفي هذين البلدين «بريطانيا والاردن» كان يمكن ان تبدو الامور أسوأ مما كان يسمى «بالاندفاع التطوعي» والمبادرة الاردنية يمكن ان تكون ضارة اكثر من المبادرة البريطانية، وكانت امكانات العمل مقيدة بشدة في كلتا الناحيتين، فقد كنا محصورين في لجج من الاعتبارات الحساسة.

وقبل مغادرتي لندن كنت حصلت من سلوين لويد وزير الخارجية، ومن كيرك باتريك ايضا على سلطة شفوية، لاستعمال سياسة ما يدعى «بالخط الفاصل». وعندما افتتحت المحادثات في عمان، كنت اقول ان الشراكة التي يعتبر فيها الشريك غير ذي فائدة لشريكه لا قيمة لها، اي انه اذا كان الاردن تصور أن باستطاعته ان يقف على رجليه لوحده فلسوف نكون راغبين بدورنا ان ندرس امكان مجابهته لانهاء المعاهدة، وخلال احاديثي بعد وصولي مباشرة كان هذا هو السبيل الذي اتبعته، فنتج عن ذلك تاثير فوري عندما سالني الملك حسين «هل يمكنكم اعطاءنا هذا خطياً»!.. وسال عبدالله الريماوي «ما هي فائدتكم من هذه الاتفاقية، على اية حال؟.. » ومن وراء هذين الاستفسارين اللذين جاءا من جناحين مختلفين من الجبهة الوطنية الاردنية، شعرت بالفخ - هي رغبة ولا شك لجرنا الى المبادرة بحملنا على التصريح بأن المعاهدة بشكلها الحالي كانت لا قيمة لها لدينا، ثم استخراج وثيقة منا لاستعمالها مع الأخوة العرب للعمل على انتزاع معونة مالية بديلة منهم.

وماطلت مع الملك حسين، ولكن مع الريماوي، الذي ما كنت أستسيغه منذ البداية. فقد أطلقت انفجارات دبلوماسية مراوغة في وجهه: «ان المعاهدة ذات فائدة ثمينة لبلدينا لانها تخدم مصالحنا المشتركة وتساعد على الاستقرار في المنطقة..» وكنت ارى الريماوي يغلي من الفشل ومن هذا الجواب الساذج، المخيب لآماله!..

وبالفعل جاءت الخطوة الاولى من الناحية الاردنية. ففي السابع والعشرين من شهر نوفمبر، صادق البرلمان في عمان على اعلان تصريح الحكومة عن رغبتها في انهاء

المعاهدة الاردنية البريطانية وفي الوقت نفسه اقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي ومع الصين.

وبعدها تحدثت مع النابلسي وشعرت بمنتهى الاستغراب ان قلبه لم يكن بالحقيقة مع انهاء المعاهدة اطلاقا، وانه دُفِعَ اليها من قبل الريماوي ومن خوف التهديد بالغضب الجماهيري. واشتبهت بان النابلسي هو مثلي ايضا حيث تساوره نفس الشكوك حول المعونة العربية!..

واستقرت الامور فلم تتطور بعد ذلك لمدة شهر، حيث لم يأخذ الاردنيون ولا نحن ايضا زمام المبادرة. وظهر بوضوح انهم كانوا يحاولون التأكد من المساعدة العربية قبل بدء القيام بانهاء المعاهدة. وفي نهاية شهر ديسمبر صرح النابلسي لمراسل جريدة التايمز بان الاردن يريد انهاء المعاهدة، ولكن التوقيت للمحادثات من اجل الوصول الى ذلك يعتمد على بريطانيا، وبهذا فقد صرح علناً بانه يضع الكرة في ساحتنا!..

وخلال تلك الفترة بدأت المحادثات حول المعونة العربية تأخذ طريقها، فقد سافر وفد أردني الى القاهرة والرياض. وقد أعمانا ضباب السلام عندما كنا في وسطه تماما، فقد تصورت في البدء ان اتفاقية عربية حول المساعدة سوف تجعل مهمتنا للانفصال اكثر صعوبة، اذ كنت اعتقد انها سوف تبلور موقف الاردن للابتعاد عن بريطانيا، حتى دون أن تؤمن له المبالغ التي وعد بها. وبهذا يتوجب علينا عندئذ ان نتحمل الاردن ولكنا نكون فقدنا شعبيتنا بينهم اكثر من اي وقت مضى، وفي ضوء هذا الاجتهاد بعثت بتوصيتي الى لندن باننا يجب أن لا نبادر الى انهاء المعاهدة، لاننا لو فعلنا هذا في تلك الفترة، فإن الاردن سوف يتمسك بتثبيت اتفاقية المعونة العربية!..

وبعد ايام قلائل بعثت بتقرير آخر، بالرغم عن وضوح سخافته، (بان مصر وسوريا لا يتوافر لديهما المال للمساهمة على اية حال) الا أن امكان اتفاقية المعونة العربية يجب ان تؤخذ على محمل الجد. وقد أوصيت بانه عندما نقتنع بان مثل هذه الاتفاقية توشك ان تتم، عندئذ يتوجب علينا بسرعة ان نبدأ بالمبادرة الى انهاء المعاهدة وبذلك نكون قد أحبطنا مساعي الاردن لتفسير الامر على «انهم طردونا خارجا». وفي اليوم التالي، وبالتحديد في اليوم الخامس عشر من شهر يناير. وبدون انتظار أطول لاتفاقية المعونة العربية، أوعزت الى وزارة الخارجية بادب أن اتقدم باقتراح ايقاف

المحادثات حول مستقبل المعاهدة.

وكان تقبل النابلسي لهذه المذكرة مضحكاً نوعا ما، فبعد ان قراها بامعان وضعها في درج مكتبه، وما هكذا يكون شان الرجل الذي حقق امنية مرغوبا فيها؟!..

كنت قد سلمت المذكرة في اليوم السادس عشر من شهر يناير، وفي اليوم التاسع عشر من الشهر نفسه، وقعت في القاهرة اتفاقية التضامن العربي، ويظهر ان مذكرتنا قد عجلت فجاة باتخاذ القرار، فقد قوي ساعد الريماوي الذي كان يحاول دفع رئيس الوزراء لهذه الاتفاقية، بالرغم من شكوكه حولها. لم يكن هذا ابدا ما تصورته بان هذا ما قصدت اليه وزراة الخارجية. ولكن النتيجة كانت حسنة، اذ لولا اتفاقية التضامن العربي وما جاء بها من استبدال المعونة البريطانية، ما كان باستطاعتنا مطلقاً انهاء المعاهدة بالصورة الودية والانيقة كما حدث بعد شهرين من ذلك التاريخ.

وفي (٢٢) من شهر يناير سلمت مذكرة اخرى، بموجب تعليمات لندن، اسال بها الحكومة الاردنية عن تحديد المكان والزمان اللذين ترغب بهما في اجراء محادثات المعاهدة، واجابت الحكومة « في عمان ابتداء من اليوم الرابع من شهر شباط».

ولقد حصلنا على ما كنا نريده بالضبط. سوف تلغى المعاهدة بالاتفاقية في محادثات اقترحناها نحن جوابا على رغبات الحكومة الاردنية!..

اما اصدقاؤنا في الاردن فقد اشتبهوا بعد ذلك باننا كنا كالعادة «مكيافيليين»[(١)]، وفي الحقيقة لم يكن الامر كذلك، فلقد عملنا ضمن النطاق المفتوح امامنا، وتكفل بالباقي حسن الحظ..

وقد ادرك الاردن هذا الموقف، بعد انتهاء المعاهدة، وانتقد النابلسي كثيراً لانه لم يدع المعاهدة تستمر حتى نجد انفسنا مجبرين على دفع الثمن لخروجنا منها. ومن حسن حظنا انه لم تكن لديه القدرة على استيعاب هذا الدهاء، وقد ساعدنا في تلك الفترة، اعتقاد الاردنيين بانه مهما قلنا في هذا الصدد، فلا يمكننا باي حال ان نكون صادقين في رغبتنا بانهاء المعاهدة.. وعندما تاكد النابلسي من تامين المعونة العربية

(١) المبدأ الميكافيلي المعروف بأنه (الغاية تبرر الوسيلة)

شعر بانه يجب ان يمارس ضغطه علينا كي نباشر في اتخاذ الخطوات لانهاء المعاهدة.

وبنظرة الى الماضي، ومما تجدر الاشارة اليه، ان لندن عندما اهملت تحذيري لها بعدم القيام باية حركة قبل التحقق من اتفاقية المعونة العربية، قد سببت التعجيل لانهاء هذه الاتفاقية، تماما كما توقعت سابقا، ولكن ذلك الامر جاء لمصلحتنا وليس العكس كما كنت اخشى واتوقع، وبهذه المناسبة وددت ان اتصور ان بصيرة لندن كانت اصدق من بصيرتي، واعتقد ان الدافع الاساسي كان خوفهم من تحمل المخاطرة في امكان «طردنا» من قبل الاردنيين وكان هذا، وغالبا ما يحدث، ان الحكومة كانت تتصرف حسب الضغوط الخارجية، وليس اتباعا للاسلوب الميكيافيللي؟!.. ولقد تصورت اننا باستعمالنا الاساليب الدبلوماسية المعروفة، وذلك بارسال مذكرتنا الى الاردنيين المؤرخة في (١٦) يناير، كنا نحاكي بهذا برقية (إيمز) التي تمكن (بسمارك) بواسطتها من دفع فرنسا الى إعلان الحرب على بروسيا سنة ١٨٧٠، اي ان الامر كله كان يتمثل في النتيجة، وليس في القصد؟؟.. وكانت القصة بمجموعها، مثلاً قريباً متواضعا لزوبعة تثيرها لعبة الاستغماية، وهي المادة الاساسية في التاريخ الدبلوماسي.

وكانت تعليماتي من لندن تتلخص في انهاء المعاهدة بصورة لا تخلف وراءها ميراثا من الشعور بالمرارة والحقد، فلقد كانت الحكومة البريطانية تعتقد ان التعاون وحسن نية الاردنيين ضروريان لتامين انسحابنا مع معداتنا بنظام جيد وتجنبا «للبهدلة».

وكان غرض بريطانيا، وفوق كل شيء، ينصب على التخلص باسرع ما يمكن من تعهداتها لمساعدة الاردن في حالة تعرضه للهجوم، لذلك كانت تتطلع بشوق الى انهاء المعاهدة بدون ادنى تاخير، وادركت ان المفاوضات ربما تستغرق وقتا طويلا، الامر الذي يحمل الاردن على الاحجام عن انهاء المعاهدة، ومعها المعونة المالية، قبل ان يكون قد تاكد من تسلم المعونة العربية، وقد تلقيت تعليمات اكيدة ان الحكومة البريطانية لا يمكنها ان تتصور ان تدفع مبالغ اخرى من المعونة بعد اليوم الاول من شهر نيسان على ابعد تقدير. وفي تصور الحكومة البريطانية انها كانت ترغب في انهاء المعاهدة قبل

اليوم الاول من شهر آذار، ولكنهم كانوا مستعدين، كحل آخر، لتمديد ذلك التاريخ حتى نهاية شهر اذار ولكنهم لا يستطيعون قبول تاريخ أبعد من ذلك.

وأمام هذا الوضع، كانت تعليماتي أن اقوم بتحضير اتفاقية لانهاء المعاهدة وبعدها بالانسحاب المنتظم للقوات البريطانية المتمركزة في الاردن، ثم التخلص من الاجهزة العسكرية البريطانية في الاردن باقل الخسائر، وكذلك نقل المستودعات البريطانية او التخلص منها. وباقل الخسائر ايضا.. وبالاضافة الى ذلك كان علي انجاز وتدبير اية مسالة قائمة تنبع من قضية انهاء المعاهدة.

وكانت مستودعات سلاح الجو الملكي البريطاني في الاردن، ومعظمها موجود بمطاري عمان والمفرق، تقدر بنحو اربعة ملايين جنيه، اما تلك التي تختص بالجيش، وقسم منها يتمركز في مستودع الذخائر الكبير في الزرقاء، فتقدر بنحو (٧) او (٨) ملايين جنيه، وهكذا فقد كانت كميات هائلة من ممتلكات الحكومة البريطانية يجب تدبيرها، وكانت هناك دائما مخاطرة، نظراً للاحوال السياسية التي كانت سائدة وقتها. بانه لا يمكننا المحافظة على الكثير، وان وجد، من هذه المستودعات وكان من الصعوبة بمكان عظيم ايضا اقناع الاردنيين كي يدفعوا لنا ثمن بعض الممتلكات الثابتة، كمدرجي المطارين في عمان والمفرق واللذين يتوجب علينا باية حال أن نتركهما خلفنا..

وسوف تكون هذه تجربتي الاولى في المفاوضات المالية، ولهذا كنت اتطلع اليها بشوق. ذلك انني كنت اهتم كثيراً بالتفاصيل المالية. اما ما كان اقل استحسانا فهو ان تجربتي الاولى هذه سوف تجري مع العرب وخصوصا العرب المعادين لبريطانيا وكان من الواضح انني ساحتاج الى صلوات جميع الكنائس الروسية، والى صلوات اخرى يتقدم الي بها من يشاء مشكوراً!..



الوفد الاردني : من اليمين الى الشمال : ـ علي ابو نوار ، عبد الله الصالح ، عبد الله الريماوي ، سليمان النابلسي ، صلاح طوقان ، سليمان داود

الوفد البريطاني : من الشمال الى اليمين : المؤلف السفير تشارلز جونستون ومعه الوفد المفاوض .

الفصل الثامن

نهاية المعاهدة

بدأت المفاوضات في غرفة رئاسة الوزراء الاردنية[1] يوم الرابع من شباط، فاتخذنا اماكننا حول مائدة مستديرة، وجلس النابلسي مع الريماوي وابو نوار وثلاثة آخرين وبالمقابل جلست ومعي الجنرال ميسون، وقائد الجو جاردنر وهيث ميسون وعدد من الخبراء الماليين.

وظهر لي جليا انني مخطىء في اعتقادي بان المحادثات سوف تأخذ طابعا ماليا مستقيما، ذلك ان للسياسة نصيبا كبيرا في دنيا العرب، حتى لو كانت المحادثات تدور حول امور فنية محضة. وبعد تبادل الخطابات الودية بيني وبين النابلسي مباشرة اعلن الوفد الاردني أن اهم واسرع ما تصبو اليه هذه المحادثات هو انهاء المعاهدةوانسحاب القوات البريطانية، وقد كانت القضية الفنية المتعلقة بتسليم المستودعات والانشاءات امراً ثانويا بالنسبة اليهم. وقد اهتموا بسرعة اصدار بيان مشترك من الجانبين، تعين فيه تواريخ قريبة لانهاء المعاهدة ولانسحاب القوات البريطانية، أما بقية التفاصيل فيمكن بحثها بعد ذلك.

ويظهر ان النابلسي قد ابتعد قليلا عن شكوكه السابقة حول الحكمة في انهاء المعاهدة. وما دامت المحادثات قد بدأت فقد تركزت رغبته في الحصول على نتيجة يعلنها

(١) كانت الرئاسة في نفس المكان الذي يشغله البنك المركزي حالياً

الرأي العام، بأسرع وقت ممكن!..

ولم ينصب اهتمامه ابداً على الوصول الى اتفاقية مفصلة متينة من النوع الذي كنّا نود الوصول اليه، تماماً مثله في ذلك كمثل حكومة المحافظين في بريطانيا، فكانت اعتبارات الهيبة والسمعة لدى النابلسي اهم من كل شيء. وفي مساء يوم المفاوضات معنا، اذاع الملك خطاباً حول اخطار الشيوعية وكان ذلك الخطاب قريباً جداً من اعلان الإستياء الملكي من سياسة رئيس الحكومة المتساهلة نحو الشيوعيين في الأردن.

وشعر النابلسي انه في مفاوضاته معنا يجب ان يحقق نجاحاً سريعاً يسنده ضد الملك، لهذا فقد ابدى اهتماماً بالضغط علينا لكي نصدر بياناً مشتركاً بسرعة.

وكنت اتوقع مواجهة بعض الصعوبات في المفاوضات، وهي انني اتعامل مع جبهة اردنية مرتبطة بالأردنيين والمتعاطفين ضد بريطانيا، تبدأ من الملك حسين في اليمين، وتصل الى النابلسي في اليسار ومنه للريماوي وابو نوار والوزير الشيوعي عبدالقادر الصالح الى اقصى اليسار، لقد بدأ الشرخ في الجبهة حقاً..

وفي الخامس من شهر شباط طلعت علينا جريدة الجهاد[١] بمقال جاءَ فيه:

«إن الوطنية العربية التي تقاوم الاذلال والعبودية، قد دفعت بالاردن لأن يفك ارتباطه مع الاستعمار، بما في ذلك الارتباطات التي تشده مع بريطانيا، وهي التي كانت تعتقد أن باستطاعتها إذلال الأردن من خلال معونتها المالية. وكانت بعض الجهات البريطانية الدبلوماسية تفكر بقطع المعونة المالية عن الأردن، لكي تتمكن من الضغط علينا فنروح نستجدي تلك المعونة، ونسي هؤلاء الحمقى البلداء أن العرب هم أحرار اليوم، وأن الوطنية العربية قد نهضت مرة أخرى كي تحافظ على كرامتها وسيادتها في الأقطار العربية».. وكنا تعودنا هذه الهجمات الشرسة في الصحف المحلية،

(١) «جريدة الدستور اليوم»

وكنا عادة نتجاهلها، إلا انني في هذه الظروف توصلت مع النابلسي الى تفاهم على أن هجوم الصحافة علينا يجب ان يتوقف خلال المحادثات. وقرات المقال لرئيس الحكومة قائلاً ان هذا هو تماماً ما كنت وإياك نحاول منعه. وقال النابلسي انه لم يقرا ذلك المقال، واظهر غضباً شديداً ثم أعطى تعليماته بحضوري لإيقاف هذه الحملات في جريدة الجهاد، وأخذ يحدثني عن الاتصالات الصحفية مع القصر وان هناك بعض الجهات لا تبغي النجاح لهذه المفاوضات.. وقد عنى بذلك وبوضوح، خصمه زعيم المحور اليميني سمير الرفاعي. وقد وضح تماماً الآن أن بيت الوطنية الأردنية يحتوي على عدة انقسامات..

وبينما كنا نعمل على اصدار بيان مشترك بالخطوط التي اقترحها النابلسي، حدث شيء آخر عطّل بشدة تقدم المفاوضات. كان الضابط البريطاني المسؤول عن مستودعات الذخيرة التابعة لنا في الزرقاء قد اضطر بسبب ازمة السويس ان يهجرها في مطلع شهر نوفمبر، وكان المستودع في ذلك الوقت يضم سبع حظائر مملوءة بالمعدات والأدوات والذخيرة. وعندما تمكنا في السابع من شهر شباط من الحصول على إذن لاحد ضباطنا بزيارة هذه المستودعات وجدها خالية الوفاض تماما، ووجد ست حظائر ونصف من هذه المستودعات قد افرغت، وقدمت احتجاجي الشديد حالاً للنابلسي الذي ادعى بان جميع تلك المواد قد اختفت في شهر نوفمبر عندما كان الاردن مهدداً بهجوم اسرائيلي. وعندما قدمت احتجاجي للملك حسين حصلت منه على تاكيدات بان كل شيء سوف يعاد او يدفع ثمنه. وقد تمت التسوية تقريباً بناء على تاكيدات الملك. وبعث هذا الحادث ذكرى غير مستحبة، وهي، بالرغم عن مدنية جو المحادثات إلا اننا كنا لا نبتعد اكثر من خطوة فقط عن العادات البدوية القديمة في الغزو!..

والحقيقة أن ظروف هذه المفاوضات كانت تختلف تماماً عما سبق لبريطانيا ان جربته مؤخراً في مثل هذه الحالة، فمثلاً خلال محادثاتنا مع مصر سنة ١٩٥٤ كانت قواتنا لا تقل عن ثمانين الف جندي في منطقة القتال، وهم مسؤولون مباشرة عن جميع معداتنا، ولكن في الأردن، رغم ان محادثاتنا كانت تجري في جو من الإحترام، إلا

اننا كنا نسير على قشرة رقيقة، وكانت حادثة الزرقاء قد اعطتنا ايماضة مزعجة عما تخبئه لنا الاحداث!.. وكان واضحاً تماماً انه إذا ساءت الامور في مفاوضاتنا، فإن الانسحاب البريطاني المنتظم من الاردن سوف ينقلب الى شغب كبير تذهب فيه ملايين الجنيهات من اثمان الممتلكات البريطانية هباءً وضياعاً دون دفع ثمنها او حتى دون امكان احتمال تعويضها.

لم يكن امامنا في مثل هذا الوضع إلا الاحتفاظ بمعظم اوراق اللعب بايدينا. أولاً، ظهر بوضوح أن الفريق الأردني في المفاوضات الجارية لم يكن منسقاً. وكان يمكننا في بعض الاحيان ان نتقدم قليلاً باستغلال الخلافات بين النابلسي، الذي كان من خلال تشوقه للحصول على اتفاقية سريعة يظهر وكانه معتدل وايجابي، وبين الريماوي، وزير الدولة للشؤون الخارجية المتطرف او ابو نوار القرصاني النزعة، رئيس هيئة الأركان العامة.

وكانت هناك فائدة اخرى لمصلحتنا، وهي ان الاردنيين بعد عملهم سنوات طويلة مع الإدارة البريطانية يحفظون لها شيئاً من الاحترام القديم، اي اننا عندما نحزم أمرنا في شيء، (وليس دائماً طبعاً) كانوا يذعنون باظهار نوع من ذلك اللطف الانعكاسي!..

وكان اهم ضمانة في ايدينا ان الأردنيين كان لديهم دافعان قويان للحفاظ على علاقات طيبة معنا بعد المعاهدة، وقد تبين لهم امكان تحقيق ذلك فقط من خلال الوصول الى اتفاق ودي عند الإنتهاء، وذلك أولاً لان المعدات والتنظيمات للقوات المسلحة الاردنية هي من صنع بريطانيا، وفي هذه الحالة كان لا بد لهم من شراء قطع الغيار والمعدات الجديدة من بريطانيا، وكذلك ارسال المختصين الى بريطانيا للتدرب. ثانياً كانوا يرغبون بشدة في تامين المعونة البريطانية للأردن والخاصة بالتطوير الاقتصادي، والتي كانت تُدفع منفصلة عن المعونة المالية المنصوص عليها في المعاهدة، كي تستمر في الدفع بعد انتهاء المعاهدة، وبصورة خاصة اتمام الطريق الصحراوي بين عمان والعقبة، وتحسين ميناء العقبة، حيث لم يرد في اتفاقية المعونة العربية اي ذكر لهذه التحسينات.

ان المفاوضات المالية البريطانية مع الحكومات الاخرى، حتى ولو كانت بالطريقة القاسية البعيدة عن اسلوب (هوايت هول) المستقيم، كما هو الحال مع النابلسي، تتصف كلها «بالطقوس التقليدية» وكان هناك فوج من الموظفين الذين يمثلون الدوائر المعنية يجتمعون بانتظام في لندن لكي يدرسوا البرقيات الواردة للوطن من المفاوضين في الخارج، ثم هم بعد ذلك يوجهون هؤلاء المفاوضين كما توجه الدمى المربوطة بأطراف الخيوط. وانا لا اشكو من هذه الطريقة التي كانت تجيء عادةً بنتائج طيبة. ومع ذلك يوجد هناك عدد من المراحل الايقاعية والمبدئية التي يجب دراستها قبل أن تسمح «هوايت هول» لجماعتها في الخارج بالدخول في اي نوع من المفاوضات الجدية. وقد عرفت هذا من تجاربي الخاصة عندما عملت في لندن ولم تزعجني كثيراً التعليمات السلبية غير البناءة التي كنا نستلمها خلال شهر شباط جواباً على توصياتنا المختلفة في طريق السير نحو التسوية. ولم أستغرب ايضاً، بناء على اطلاعاتي القديمة. عندما فوجئت باعطائنا الصلاحية للبدء في البحث عن امكان ايجاد حل متكامل «ذي الصفقة الواحدة» وذلك بان يطلعنا الاردنيون على المبلغ الذي يدينون لنا به، وليس كمجموع عام لمختلف المواد المفردة!..

ومن هذه اللحظة بدأت المفاوضات تسير، واقنعت النابلسي بأن نجتمع ضمن جلسات مغلقة تقتصر على فريق صغير من كل جانب. وقد رحب بهذا الاقتراح، وأدركت بهذا أنه يريد أن يبعد الريماوي وأبو نوار لكي نسير بالمفاوضات ونصل الى تسوية سريعة. وتبع ذلك مساومة بريطانية شرقية محضة. وكان أول اشتراط لنا هو أن اية تسوية للمعاهدة تتمخض عن أنّ الأردن مدين لنا باربعة عشر مليون جنيه لا بد أن تدفع حالاً. ثم كان عرض الأردن الأول وهو ثلاثة ملايين جنيه تدفع خلال عشرة سنوات، واخيراً توصلنا الى الاتفاق على مبلغ أربعة ملايين وربع جنيه تدفع خلال ست سنوات، منها مليون وربع جنيه تدفع في اليوم الأول من شهر مايو والباقي يدفع على ستة اقساط سنوية كل قسط يساوي نصف مليون جنيه تدفع ما بين سنة ١٩٥٨ - ١٩٦٣ .

ونصّت التسوية على انّ المعاهدة سوف تنتهي اعتباراً من الرابع عشر من شهر آذار. ثم يبدأ حالاً انسحاب القوات البريطانية وينتهي خلال ستة اشهر، (والحقيقة ان الانسحاب تم في شهر يوليو) ولسوف تتسلم القوات الاردنية كلاً من محطة سلاح الجو الملكي في عمان والمفرق والمعسكرات الحربية في الزرقاء والعقبة ومعان، يضاف اليها كميات كبيرة من الذخائر والمستودعات، ولو اضفنا مواد اخرى مختلفة هنا وهناك والتي تعهد الأردنيون بدفع اثمانها، فلسوف نتسلم ما مجموعه خمسة ملايين جنيه استرليني للوصول الى التسوية المطلوبة.

وابعد ما أكون ابتهاجاً بهذا الرقم، فقد حذرت وزارة الخارجية بكل اخلاص بأنني سوف أتنفس الصعداء بحرية اكثر بعد اول مايو عندما يحين الموعد الذي يدفع الأردنيون لنا فيه اول دفعة تزيد قليلاً على (٧٠٠،٠٠٠) جنيه استرليني وهو رصيد المليون وربع المقابل لدفعات المعونة المالية. ويمثل هذا المبلغ اكبر مبلغ نقدي دفعه الاردن في حياته مرغماً الى احد ما تسديداً لدين في ذمته. (وبالحقيقة كانت دفعة مايو المستحقة قد دُفعت بعد شهر واحد من التأخير، ولكن الاقساط السنوية الباقية كانت تؤجل من قبل الحكومة البريطانية، وفي تلك الاثناء تبدلت جميع أساليب الحكم في الاردن).

وحتى خلال الفترة القصيرة التي استغرقتها محادثاتنا تغير الوضع العربي تماماً واهتز ميزانه بشكل اخذ يظهر نوعاً من الاستقرار ولكن بصورة مختلفة تماماً، فكان ما يدعى (بمبدأ ايزنهاور) الذي تدفع بموجبه الولايات المتحدة للدول العربية مساعدات مالية لمقاومة الشيوعية، قد سبب كثيراً من المشاحنات داخل النظام الاردني. وعلى كل حال فإن المبدأ، وكذلك انتهاء الاتفاقية الخاصة بالمساعدات العربية للأردن، كانا الموضوعين اللذين بُحثا في مؤتمر عقد بالقاهرة وحضره الملك حسين والنابلسي في الايام الاخيرة من شهر شباط. وقبل ان يغادروا، صرح النابلسي بأن الشيوعية لم تكن مشكلة الاردن، وكان ذلك التصريح اقرب ما يكون من تصريح يتبرا بموجبه علناً رئيس وزراء من مليكه... وكانت جريدة الجهاد وهي جريدة القصر قد كتبت بان

الوزارة الأردنية قررت مبدئياً قبول مبدأ ايزنهاور، وهذا ما حدا بالريماوي أن ينكر التصريح، الأمر الذي سبب تذمراً غاضباً ضده في جريدة الجهاد. وبهذا كان الجو في الجبهة الوطنية في اليمين واليسار قد بدأ يتداعى، وكالعادة في المناسبات الرسمية في البلاد العربية، لعبت الكوميديا دوراً كبيراً في انهاء المعاهدة في الثالث عشر من شهر آذار. وقد أُعطيت هذه الحالات الصبغة القانونية من خلال مذكرات تبادلتها مع النابلسي نيابة عن حكومتنا فقد وقعنا مذكراتنا حول المائدة المستديرة التي جرت عليها المفاوضات. وقد قدم النابلسي خطاباً رائعاً باللغة الانجليزية ذاكراً الجو الودي والتعاون المخلص والروح الطيبة التي سادت المحادثات منذ بدئها، واجبت منوها بالثناء الطيب على الصلات البريطانية الأردنية، قائلاً بأن التاريخ سوف يذكر بفخار رجال الحكم والجنود «وعنيت بهذا جلوب» من كلا البلدين الذين عملوا على بناء وصيانة العلاقات والتي كانت مصدر اعتزاز للبلدين، واضفت بان الأزمات تتغير، وأن اللحظة قد حانت لكي نضع علاقاتنا على اسس جديدة، وأن طبيعة التسوية التي خولتنا الحكومة البريطانية السلطة لقبولها كانت دلالة واقعية على رغبتها للاحتفاظ بصداقة أكيدة وعلاقات طيبة متساوية مع الاردن في الصفحة الجديدة التي فتحناها الآن. وبالحقيقة سارت الامور بشكل مرضي حيث تبودلت المجاملات الدبلوماسية المرحة والمنتظرة في مثل هذه الظروف. وبالرغم من النوعية الصورية لهذه المجاملات إلا انها لم تكن بالضرورة غير صادقة.

بعد انتهاء خطابي وكانها كانت اشارة متفقاً عليها، فتحت الأبواب المزدوجة بشكل فجائي، تدفق من خلالها الصحفيون الأردنيون. واندفعت الميكروفونات امام النابلسي والريماوي، ومع انهما خافتا من صوتهما إلا اننا تمكنا بصورة تقريبية من تتبع اقوالهما: «تصريحات عاطفية للاستهلاك المحلي، حول اندحار الراسمالية، وازاحة نير الاستبعاد الذي كان مرهقاً اكثر من النير التركي!..

وبعد انتهاء تبادل المذكرات مباشرة، اظلمت الدنيا وانطلقت الرعود تتجاوب وتهدر في كبد السماء، وهطلت الامطار بغزارة عظيمة!.. ولم اتمكن من مقاومة

النكتة فقلت للنابلسي بعد ان قابلته في مساء ذلك اليوم «ما ظنك بهذا التفاؤل أو النذير؟!..» ولم يعجز عن الجواب السريع، فقال «على العكس أن ذلك كان فالاً حسناً جداً لأن هذا ما تحتاجه البلاد من أجل تحسين محصولاتها من الحبوب؟؟..

واعتبرت الايام الثلاثة التي تلت التوقيع على الاتفاقية، أيام عطلة وفرحة وطنية للخلاص من المعاهدة. وكان اليومان الأولان قد تعطلا كثيراً بسبب الطقس السيء، ولكن الجماهير في الشوارع كانت بالرغم من هطول الامطار تبدو قلقة حزينة، وكانت الاجراءات خلال هذين اليومين منتظمة، حيث سارت الاستعراضات العسكرية في الشوارع، وسار أطفال المدارس والكشافة والجوالة. وكانت هذه المواكب قد نظمتها جماعات الاخوان المسلمين والشيوعيين.

وجاء الطقس في اليوم الثالث جميلاً لطيفاً، والحق كان الطقس ملائماً للشغب، وزاد النشاط حدة، وبدأ الشجار بين الاخوان المسلمين والشيوعيين فاسفر عن بعض الجرحى، وأطلقت في الهواء مئات الآلاف من العيارات النارية، وبالنتيجة الحتمية افلتت بعض هذه الطلقات، فاصابت واحدة منها سائق الشريف ناصر شقيق الملكة زين، وأخرى استقرت في ظهر سيارة السفير التركي. وبالرغم عن ان الشعور العام كان بشعاً في اليوم الثالث إلا انني احسست بانه لا شيء يوجد من هذا ضد البريطانيين، ومرّة وجدت نفسي (مزنوقاً)، ففي السيارة المعروفة التابعة للسفارة ويرفرف عليها العلم البريطاني، وفي نقطة من طريق جانبي يفتح على شارع رئيسي في عمان، مرت بجانبي مظاهرة تحمل صورة كبيرة لعبدالناصر، وكانت تطلق العيارات النارية في الهواء، ولم يلتفت أحد الى وجودي بخلاف بعض الملاحظات ذات المزاح السافر!..

وكان الامر المزعج هو روح العداء التي أبدتها الجماهير نحو الطبقة المتوسطة من الاردنيين. فقد حاول البعض أن يخترقوا المظاهرة بسياراتهم، فاوقفت السيارات ثم حطمت أو رفعت أو اسقطت. وقد تحرش البعض بزوجة أحد الاشخاص وهو ابن تاجر معروف، كانوا يخترقون المظاهرة بسياراتهم، فترك مقعده ليدافع عن زوجته فهاجمه الجمهور وضربوه بوحشية. وأمثال هؤلاء الناس كان الجمهور يقول لهم بانهم

قريباً سوف يمشون حفاة في الشوارع، وكانت النغمة المميزة موجهة ضد الطبقية وليست ضد الاجانب.

وبالحقيقة فقد سرق الشيوعيون الموقف الى جانبهم، ولاول مرة ظهرت الأعلام التي تحمل اسم الحزب الشيوعي الأردني الذي كان ممنوعاً بصورة رسمية. وكان قادة الشيوعيين يخطبون في الجماهير، وترددت صيحات النداءات الشيوعية!..

وترددت الصيحات ايضاً والنداءات ضد مبدأ ايزنهاور، والآن، حيث لم تعد هناك علاقة بريطانية تحتاج للهجوم فلم يُضِعْ الشيوعيون الفرصة ليركزوا هجماتهم على امريكا التي جعلوها المحط التالي لانظارهم.

وبالرغم عن جميع التصريحات التي اعطاها الوزراء حول النير البريطاني الذي لا يطاق والذي رُفع فوراً عن الاردن، فقد عومل وفدنا خلال هذه المدة بمنتهى اللطف، فقد دعانا الملك حسين كلنا الى حفلة غداء وشكرني بحرارة على روح التفاهم التي ابداها البريطانيون خلال المحادثات. وبعد يوم أو يومين دعا رئيس الوزراء الملك الى حفل عشاء حضره جميع الشخصيات المرموقة في الأردن. وكانت الاحتياطات الامنية ضد الشغب تملأ الشوارع بصورة ظاهرة. وكان فندق فيلادلفيا، حيث اقيمت حفلة العشاء يظهر وكانه قلعة محاصرة، وحتى السلالم العلوية المؤدية لغرفة الطعام كان يحرسها الجنود الأردنيون وهم يلبسون الكوفيات الحمر، ويحملون الرشاشات بايديهم، وكانت عمان في ذلك الحين تدوي بالاشاعات عن أزمة حكومية وشيكة الوقوع وبالفعل كان النابلسي قد قال لي انه ينوي تقديم استقالته في اليوم التالي. ووجدت نفسي في هذا الحفل اجلس بين رئيس الحكومة وبين سمير الرفاعي الخصم الرئيسي للنابلسي. وكان رؤساء الوزرات السابقون المستوزرون حاضرين كلهم. وقد كان الجو السائد كثيفاً مضغوطاً ومفعماً بالالم حتى انّ التوتر كان شديداً على الحاضرين، ولكن الحفل انفضّ لحسن الحظ حول التاسعة والنصف.

وكان من الواضح انّ الاحداث في الاردن كانت تدخل حيزاً جديداً هاماً. وكان

إنهاء المعاهدة قد بدأ يظهر تأثيراً مندفعاً على سياسة البلاد الداخلية. وقد كان الموضوع الرئيسي المعادي لبريطانيا معروفاً لكلا الطرفين اليمين واليسار، ولكن الاختلاف الوحيد الذي خلقه هو المباراة لمعرفة اي جانب منهما يمكنه أن يتابعه بصورة أكثر تأثيراً. وما دامت بريطانيا قد قامت بدور الاختفاء الآن، فقد تهيا الطرفان لمجابهة النزاع. وكان معروفاً أنَّ الملك حسين كان مؤيداً لمبدأ ايزنهاور وهذا الأساس الذي كان الشيوعيون واليساريون يتخذونه ضد الملك. وفي الاردن كان الحقد دائماً يوجه ضد المستفيد، لو كان حقيقياً او ممكناً، ذلك هو المبدأ الناجح الراجح دائماً..

وفي نفس الوقت كانت الكآبة تسود رجال الاعمال العرب والمسيحيين والشراكسة، وهي الاقليات في الاردن، وتردد كثيرٌ من الكلام حول هجرتهم الى الكومونولث البريطاني. وفي الاحاديث الخاصة كان المحافظون الاردنيون قد بدأوا ينتقدوننا بحرارة لتركنا البلاد بهذه السرعة، وهو تحول جديد غير منتظر حول مسألة معاداة بريطانيا؛ «أيها المستعمرون الوحشيون، لا تذهبوا لبلادكم بعد»؟؟!..

وقد سمعت هذه الاسطوانة بصورة اوضح بعد ذلك في عدد من المناطق الأخرى التي كانت تعتمد علينا في السابق واهمها مالطا وماليزيا وسنغافورة، لكني أعتقد انها أول ما سمعت كان في الاردن سنة ١٩٥٧ .

وعلى العموم يمكننا الادعاء باننا توصلنا الى معظم ما نبتغي، فلقد انهينا مسألة المعاهدة خلال ستة أسابيع من بدئها، ولم نتكفل بدفع المعونة خلال شهر آذار، وقد حصلنا على وعد بدفع ثمن ما خلفناه وراءنا، والذي إذا كان سيدفع فسيكون ذلك أحسن بكثير مما كنا نامل، أما ما هو اكثر اهمية في الأمر فهو انه يمكننا ان ندعي باننا أنهينا المعاهدة. بحسب التعليمات، وبطريقة لم تخلف وراءها أي ميراث من المرارة أو الضغينة.

وخلال جولات المفاوضات كان لنا فضل اكتشاف أمر عن النابلسي الذي، ولأسباب خاصة به، كان متعاوناً أكثر مما كنا نامل او ننتظر. وكان من حسن حظنا

ان نكتشف أيضا شكوكة وكرهه للريماوي وأبو نوار.

ومع ذلك فلقد كان شعوري بعد الوصول الى هذه النتيجة هو الاشمئزاز والقرف. نعم، لقد نشلنا انفسنا من ارتباط لا فائدة منه، ولكننا : «فعلنا ذلك فقط باستغلال اخطاء الاردن استغلالا مريرا، فقد كان من الواضح ان المساعدة العربية لن تتمخض عن شيء مما وعد به الاردن مطلقا، وكنا على علم بهذا، الا اننا استغللنا اتفاقية المساعدة العربية لكي نخرج من المعاهدة بكل لباقة ولطف»، وبالنتيجة فقد وقع الاردن في الحفرة، إذ أن الاحتياطي الذي تبقى بيد الحكومة الاردنية كان سيمكنها من دفع المخصصات للجيش حتى شهر يونيو تموز فقط وليس أبعد من ذلك، وبعدئذ لن تبقى الا الفوضى وسفك الدماء والارتباك المخيف.

ولكن كم كنت مخطئاً في حسابي ووساوسي، وكم يثبت بالتالي خطأ الحساب المنطقي الاقتصادي البقيق، وذلك ما ظهر بعدئذ من تباين في الأحداث العظيمة، وهكذا، فلم يكن من العبث أن وجدنا أنفسنا نعيش في بلاد الف ليلة وليلة!..



الجزء الثاني

«بغداد»



الفصل التاسع

"وأخفقت المؤامرة"

أورثتنا المفاوضات توتراً وتعباً، فشعرت بانني أصبحت مستعدا «لتغيير الهواء»!.. وفي مطلع شهر نيسان سافرنا (زوجتي وأنا) الى بغداد عبر الصحراء، بالسيارة التي يسوقها «سعيد» سائق السيارة، وسعيد هذا رجل ضخم أسود اللون إفريقي من جدة ويحمل جواز سفر بريطاني، وهو مخلص غاية الاخلاص لبريطانيا، وكانت شجاعته عندما كان يسوق السيارة مخترقا جماهير المتظاهرين قد اكسبته ميدالية الامبراطورية البيريطانية والتي كان يفخر بها بولع شديد.

وكان «سعيد» رجلا إفريقيا متحذلقا حاد الذكاء فيما يتعلق بالسياسة المحلية، وعلى أثر انتهاء المعاهدة قال لي بانه كان لي «شانس»[1] كبير، ومضت فترة ليست بالقليلة لكي أفهم بانه كان يستعمل الكلمة الافرنسية «شانس» ليقول لي بانه كان لدي «حظ»، وبالفعل فقد اكتسبت بهذا سمعة في الاردن ويبدو انها لازمتني خلال السنوات السبع التي قضيتها في دنيا العروبة، وأثبتت بصورة مصغرة بانها نوع من الكسب السياسي.

(١) شانس يعني chance أي حظ

وجلس بجانب سعيد «مو» بمعطفه «الباشوي» وبدلته «الكاروه»[1]. وكانت السيارة محملة بسلاسل «الشطحات» ومعاطف من جلود الغنم، وراديات نقالة (بورتابل) وصناديق مملوءة بالقوارير..

وعلى العموم فقد قمنا بهذه الرحلة للنزهة عندما انعطفنا من طريق دمشق حيث يوجد المؤشر المغري على الطريق مكتوبا عليه «بغداد».. وكان ذلك الصباح قارص البرد كأيام الربيع الأولى في صحراء شرقي الاردن. وكانت الشمس تزوغ منا في كل برهة وراء الغيوم السوداء بينما كنا نسوق السيارة على الطريق الممتدة خلال الحزام البركاني الذي يتألف من الحجارة السوداء الصغيرة الحادة على الطريق الطويلة المدى. الممتدة أمامنا. ومن الافق الى الافق، لا تقع العين على أي شيء حي. وشمالا على البعيد، خلف الحدود السورية، وبينما كنا نسير بسرعة، كانت الجبال البركانية من جبل الدروز تتعرج فتغير المواقع امامنا وكانها أسطول مسطح القسمات يسير في عرض عسكري تحت مراقبة الاميرال؟؟..

وجلسنا نتنزه في مكان مرتفع يطل على الصحراء الزرقاء الهائلة. وكان المنظر امامنا مكشوفا ومعرضا للبرد الا انه مُبهجا للغاية.

وصلنا محطة الضخ في الاجفور (H4) التابعة لشركة البترول العراقية (I.P.C) حيث كانت تنتظرنا استراحة مضيافة!.. وكان خط أنابيب حيفا قد هجر بعد نهاية الانتداب عندما قرر العرب قطع ضخ الزيت عن اسرائيل، وأخذ الفلسطيني المسيحي القدير، المسؤول عن محطة الأجفور، يدور بنا في أرجاء المحطة مزهواً فخوراً، وكانت أجهزة الضخ منتظمة بصورة أنيقة ولامعة، وكما حدثنا بان هذه الاجهزة كانت معدة للعمل خلال (٢٤) ساعة إنذار، ولكن للأسف كان ما يزال التنبؤ مستحيلا عن ميعاد إصدار الامر بالمباشرة.

---

(١) البدلة المرقطة الألوان

وفي مساء اليوم التالي، وبعد ان تعبنا، واتخمنا استمرار التحديق في الصحراء، وصلنا بيت السفارة في بغداد، فواجهنا قصراً وجواً مفعمين بالعظمة الرومانية، وكان هنالك خارج الابواب تمثال على الحصان للجنرال «مود» وحارس عراقي يؤدي التحية بالبندقية كلما دخل السفير بسيارته، وكانت لغرفتنا شرفة تطل على النهر العريض الاملس (كنهر التيمز) في ناحية (بلاك فرايرز)[1] وكانت الجوامع امامنا مضاءة بحبال من الانوار الملونة بمناسبة رمضان، وكان المؤذنون كلهم يصعدون ويهبطون قبل الفجر بجانب نهر دجلة، الواحد تلو الآخر منتظمين كساعات التنبيه!..

وقضينا يومنا مع اصدقائنا (مايكل واستر رايت)، واقاموا لنا حفل عشاء، صغيراً بهيجاً. وبينما كنت اقف احتسي كاسي قبل العشاء مستريحاً ومنشرحاً، شاهدت فجاة مرافق السفير يتقدم نحوي وعلائم القلق بادية على وجهه، ويحمل في يده ورقة صغيرة، وكانت تلك برقية من (هيث ميسون) في عمان ليقول لي «لقد قبل الملك حسين الآن استقالة سليمان النابلسي».

واجبرني هذا الخبر على تغيير خطتي بسرعة، حيث اصبح من الضروري ان اعود الى عمان باسرع وقت ممكن، في صباح اليوم التالي. ولم تكن هناك رحلات منتظمة بالطائرة، ولكن بعد ان هاتفنا سلاح الجو الملكي في الحبانية، تمكنّا من تنظيم رحلة جوية خاصة، للعودة بنا حالا، وبعد اتمام الترتيبات، طار بنا قائد القاعدة نفسه الكولونيل «هيو ادواردز» الاسترالي، الطيار الحربي الذي نال وسام «صليب فكتوريا» مقابل نجاح عملياته فوق مدينة «بريمن» بالمانيا النازية، واعادنا الى المفرق دون اية حادثة، وعلى الاثر قابلت الملك حسين قبل الغداء ثم ارسلت برقية بالأمر الى وزارة الخارجية لكي اعلمهم بما حصل.

وبالاختصار، فقد كدت اقع في الفخ، ولكن ليس تماماً!..

---

(١) Blackfriars موقع على نهر التيمز في لندن

منذ تصفية المعاهدة البريطانية الاردنية، كان النزاع القائم منذ زمن بين الملك حسين والقوى الراديكالية الوطنية (الاحرار المتطرفين) والتي كانت تدير الجماهير من المدن ومن معسكرات اللاجئين، قد بلغ الذروة. وكانت هذه القوى تمارس القوة الحقيقية في البلاد، لبعض الوقت، نظراً لضعف الحكومة الاردنية، وقد ظهرت قوتهم عندما منعوا الاردن من الانضمام الى حلف بغداد سنة ١٩٥٥، وفي اكتوبر سنة ١٩٥٦ كما سبق ان رأينا، ثم انهم حصلوا على تمثيل دستوري بسبب نجاحهم في الانتخابات العامة التي تشكلت حكومة النابلسي على اثرها.

ومنذ حادثة حلف بغداد، عندما وجد الملك حسين نفسه يقف في صف الديمقراطية الاردنية كان يجدّ في السعي كي يبرهن للرأى العام بانه لا يقل وطنية عن غيره، ومن خلال هذه النظرة للأمور، وحيث انه وجد بريطانيا هدفاً مغرياً، فقد تخلص من جلوب، وكان دور الملك المعادي لبريطانيا والذي كان محتملاً في البدء ان تكون اسبابه حسابية تقديرية بقدر ما هي عاطفية، قد بولغ به لدرجة قصوى عندما تدخلنا ضد مصر في نوفمبر!..

وبالحقيقة كانت الساحة المعادية لبريطانيا توافق الاثنين، الملك والحكومة، موافقة جيدة، وقد عملا بانسجام لمدة طويلة للاسراع في إنهاء الصلة ببريطانيا، وقد تم الوصول الى هذا الهدف بسرعة، ولم يكن الملك حسين ولا حكومته يتصوران ان بريطانيا ستوافق بهذه السهولة على إنهاء المعاهدة. وكان السرور الذي اغتنمنا الفرصة به لإنهاء المعاهدة قد أورث هزة اليمة للأردنيين من مختلف القطاعات السياسية.

وفي نفس الوقت الذي تخلص الأردن فيه من الامبريالية، بدا يجد نفسه لأول مرة يخوض في التجربة «الايديولوجية» سنة ١٩٥٠، الا وهي «الحرب الباردة».

وبدأ الملك منذ بضعة اشهر يشعر تدريجيا بخطر الشيوعية المستوردة لبلاده وعرشه، وفي نفس الوقت لاحظ ان الاردن لا يمكنه ان يعيش على مبدا المعونة العربية فقط. ولذلك لم يجعل وجهة نظره سراً بان الاردن يجب ان يفكر جدياً، على الاقل، في

قضية قبول مبدأ ايزنهاور.

وقد أتاح مركز رئيس الاركان الذي اشغله ابو نوار منذ طرد جلوب، السيطرة الفعلية على الجيش. وكان ابو نوار شديد التحالف مع زعيم الجناح المتطرف في الحكومة وزير الدولة للشؤون الخارجية، البعثي عبدالله الريماوي!..

وفي اية مجابهة تحدث بين الملك وقوى اليسار، كان ولاء ابو نوار على اقل تقدير مشكوكا فيه في ذلك الوقت، وهذا يعني ان الملك يصبح غير متاكد من الجيش. ولذلك كانت هناك جميع الاحتمالات بان القوى الراديكالية الوطنية يمكنها، باستخدام العنف الجماهيري، أن تدير دفة الامور الى ناحيتها مرة اخرى.

وفي هذه الحالة، وكما ظهر لي ولمراقبين غربيين آخرين في ذلك الوقت، كانت افضل خطة يتبعها الملك هي في تجنبه تصعيد المشاكل الى الذروة ولفترة ما، يكون خلالها قد جرب تحسين قبضته على الجيش، ومن ثم يسمح للأحوال الاقتصادية في سياسة الحكومة أن تضع النابلسي خارج الحكم، وكان صبر الملك خلال الاحداث التي تلت قد دلّت على انه كان من نفس الراي ايضا.

ومع هذا كان النابلسي داهية ايضا فقد أمن لنفسه موقفا مماثلا لكي يخرج منه بنتيجة عكسية، اي انه يقدم استقالته او على الأقل يهدد بالاستقالة، بينما هو بالفعل يمتطي قمة الموجة بعد إنهاء المعاهدة، وبهذه الصورة يقوي مركزه، حيث يثبت ضرورة الحاجة إليه. وفي حساب مواصفات القوة السياسية لم يكن هذا التقدير بعيدا عن المنطق المعقول، وبعد، فقد كان بسمارك يستعمل نفس التكتيك بصورة متكررة.

ولحسن الحظ لم يكن النابلسي شبيها ببسمارك، فقد لعب باوراقه كلها دفعة واحدة وبذا فقد خسر الجولة، ويظهر ان ما دعاه لأن يتبع هذا الاتجاه كان له سببان طارئان، أولهما، هناك ما يدعو للاعتقاد بان النابلسي كان خلال شهر آذار على اتصال بالحكومة السوفيتية، التي تمكنت من أن تسيطر بنفوذها القوي عليه، وكان هذا التاثير او النفوذ، مضافاً إليه مبدأ «لا تجعل من اليسار عدواً لك» كانا السبب على ما

يظهر في كيفية انقلاب رئيس الحكومة، وفي ذلك الوقت من إتباعه سياسة المبدأ المخلص الصريح «الطريق الوسط» الى تزعم المبدأ العلني وهو «المعتقدات الشيوعية» وفوق هذا كان أصدقاء النابلسي المصريون قد بدأوا ينصحون بأن الملك، بكل بساطة، لا يملك أن يطرده من الحكم، ومعنى ذلك أن باستطاعة الحكومة أن تُخضع الملك بقدر ما تشاء ثم هم يستمرون في الحكم. وما كانت نتائج هذه التأثيرات على النابلسي إلا اندفاعات مبالغ بها من العنجهية الطائشة، والتي خلفت عواقب تقليدية سريعة، بصورة غير منتظرة!..

وعندما أرادت الحكومة أن تجرب قوتها مع الملك، كان طبيعياً وصحيحاً أن تختار ساحة القتال، الا وهي إنشاء علاقات دبلوماسية مع روسيا. وكان البرلمان قد طالب بهذه العلاقات، وكان يمكن اعتبارها سرياناً وتمتعاً طبيعياً للبلاد المستقلة، وبهذا يصبح من الصعب على الملك ان يرفضها في حين انه في نفس الوقت يعتبر قبولها زيادة في التحدي العلني للملك. نظراً لتصريحاته الاخيرة ضد الشيوعية، وبعد ذلك مباشرة اتخذت الحكومة ايضا قرارا بانشاء علاقة دبلوماسية مع روسيا، وأذيع ذلك في الثالث من نيسان، والملك حسين بدوره لم يتخذ اية خطوة نحو إلغائها...

ولما تمادوا في فرض أنفسهم الى ابعد من ذلك، قدمت الحكومة الى الملك في السابع من نيسان قائمة أخرى من الموظفين لطردهم، بما فيهم مدير الأمن العام[1] الذي كان موضع ثقة الملك والذي كان قد ازعجهم بأن أخرس جريدة أسبوعية شيوعية، وهنا تساهل الملك ايضا فاحيل المدير العام على التقاعد، مع كتاب شكر ملكي!...

وفي صباح العاشر من نيسان ظهر أن الحكومة قررت أن تشد البرغي سناً آخر، فقدموا الى الملك حسين قائمة اخرى من الموظفين لطردهم من خدمة الدولة... وهنا يظهر أنهم أخطاوا في تقدير طباع الملك، ومنذ أيام كان الحسين قد شعر انه لا خيار له إلا بالتخلص من حكومة النابلسي بينما كان يأمل بأنهم سيقتنعون من تلقاء انفسهم

---

(١) المرحوم بهجت طبارة

ويبادرون الى الاستقالة. ويظهر ان الطلب الثاني لطرد الموظفين قد اقنع الملك بانه يجب أن ياخذ بزمام المبادرة، فارسل بهجت التلهوني رئيس الديوان الملكي الى الحكومة بعد ظهر العاشر من نيسان، مصطحبا كتابا بطلب الاستقالة، وحيث انهم كانوا يثقون بانهم اسياد الموقف قبلوا الاستقالة فوراً، اما في حالة رفضهم الانصياع لامر الملك فقد كان التلهوني يحمل في جيبه الآخر كتابا بإقالتهم فورا. وهكذا فقد كانت تجربة لعبة القوى والتي طال تاجيلها، قد تحققت اخيراً.

وعندما قابلت الملك حسين في صباح اليوم التالي من عودتي الى عمان كان الملك ممتلىء الثقة، وقال بانه يعمل على تشكيل حكومة من كبار رجال الدولة، كي يتخذوا إجراءات فعالة ضد ما وصفه من «عوامل من الخارج» التي تعمل ضد مصلحة الاردن.

وخلال الايام التالية، تمكن النابلسي واعوانه بطرق غير مباشرة من إحباط محاولتين للملك لتاليف حكومة من رجال الوسط، وما أن حل صباح اليوم الثالث عشر من الشهر حتى ظهر أن الازمة ستقع وأن الموقف سينفجر، فقد كانت قوى الطرفين المتصارعين تحشد في كل من الجانبين وقد وصل «احمد سعيد» المعلق الذلق اللسان في إذاعة صوت العرب الى عمان، ومعه عدد من الصحفيين المصريين المشكوك في إخلاصهم بعض الشيء!..

اما عن جانب الملك حسين فقد جاءته رسائل من الملك فيصل ملك العراق ومن الملك سعود، يعدانه فيهما بالتاييد المطلق، وبقي الاخوان المسلمون على ولائهم للملكية، وكذلك اكد زعماء البدو ولاءهم للملك، وتمركز حوالي عمان (٤٠٠٠) مسلح من القبائل وبالاضافة الى ذلك بدأت الحكومة العراقية تعزز تسليح الفرقة التي كانت متمركزة في محطة الضخ (H4) على الحدود الاردنية.

وخلال هذه الفترة المتوترة احتفظ ابو نوار بمركزه الاستراتيجي على راس مركز الاحداث، وأخذت القوات المسلحة تتداخل بازدياد في هذا الجو.



دولة المرحوم بهجت التلهوني

وفي اليوم الثامن من نيسان وبعد الالتفاف الى الحوادث الماضية، ظهر أنه قد حصل ما يشبه الاجهاض لمحاولة أولى لانقلاب عسكري. وقد ظهرت في عمان سيارات مصفحة جاءت من الزرقاء وأخذت مواقعها حول قصر الملكة الوالدة، وفي مواقع أخرى حساسة خارج ضواحي المدينة، ومن المؤكد أنّ آمر هذه السيارات كان من ضمن المؤامرة كما ظهر بعد ذلك. وكان من المحتمل أن تكون هذه محاولة حمقاء وسخيفة

لتخويف الملك حسين، أو ربما الى أبعد من ذلك، لحمله على التنازل الى العرش. وبعد اطلاع الملك على هذه الحركة أمر هذه السيارات بالعودة الى مراكزها فوراً، ويظهر أنّ المتامرين خانتهم اعصابهم فاطاعوا وعادوا.

وقد وجدت نفسي بالصدفة وسطهم، حيث كانوا عائدين بسياراتهم شمالاً وقت الظهيرة عندما اخترقوا شوارع عمان، وكان موكباً مضحكاً نوعاً ما، فهؤلاء المتآمرون الساخطون العائدون كي يلعقوا جروحهم، يسير في وسطهم السفير البريطاني في سيارته الأوستن المحطمة، ذاهباً الى بيته كعادته لتناول طعام الغداء، وكانت تلك الحادثة أشبه شيء بصفعة مضحكة، وما هي إلاّ صفة دامغة صادقة من صفات التاريخ الدبلوماسي!..

وخلال مدة هذه الأزمة كانت السيارات المصفحة منتشرة وكنا نراها كثيراً، ففي الصباح الباكر من يوم الأحد في ١٤ نيسان افقتُ من نومي لاجدها تحتشد في الساحة المقابلة على مدى مئة ياردة على الهضبة المكشوفة، والتي تفصل السفارة عن قصر الملك حسين، كانت تروح وتجيء بنشاط على الهضبة، وبدت لي كأنها حشد من الديدان تهاجم قطعة من الجبن. كانت إحداها تتحسس دربها نحو الطريق أمامنا، وعندما تذكرت حوادث الثامن من نيسان شعرت أنّ من واجبي بل وبسرعة أن أتبين هوية هذه السيارات لأستطلع الى اي جانب تقف؟.. وعندما خرجت من بيت السفارة كي أتحرى عن الامر، تلقيت تحية طيبة من طاقم السيارة، وكانوا من البدو المرحين الذين يلبسون «الطاقية» السوداء وهي الخاصة بالسلاح المدرع، قالوا بانهم جاءوا لحماية الملك، وقال احدهم أنه كان هناك بعض الاضطرابات في الجيش بسبب وجود اثنين من الجنرالات «السيئين»!.. من السلط والذين يجب التخلص منهما. والسلط اقدم مدينة مسكونة في شرقي الأردن، وهي تمتاز عن بقية البلاد بنفس السمعة الماكرة التي تمتاز بها مدينة (جاليسيا) في اسبانيا. وكانت السلط مسقط راس الجنرال أبو نوار والجنرال علي الحياري، وكان الاخير عندئذ قائداً للواء الزرقاء.

وكان تفسير الجندي البسيط هذا، عندما جاءني في وقت كان تقريباً كل واحد

من الملك حتى أصغر جندي ما زالوا يعتقدون بإخلاص الحياري، قد بدا لي تفسيراً مسلياً، ووجهة نظر بدوية ساذجة لكنها تدخل في التاريخ، وكانت صورة بسيطة من هذا الجندي عن الاحداث تشبه في مصدرها «أوسترلتز تولستوي» أو «استندول ووترلو»[1].

أما الحوادث التي تلت فقد اثبتت أنّ سائق السيارة المصفحة البدوي لم يكن ساذجاً كما كان يبدو.

وكانت فرقة السيارات المسلحة جميعها قد أخذت مواقعها في الساحات المحيطة بالقصر وكانت مدافعها المقاومة للدبابات مسلطة على المنحدرات التي تطل على الطرق من الزرقاء ومن الشمال، وهذا المنظر يدل على أنّ الهجوم المنتظر على القصر فوق الهضبة لم يكن من جماهير الشعب، بقدر ما كان عسكري الصبغة.

وفي مساء ذلك اليوم مشيت عبر الساحة الى القصر ومنحت مقابلة مع الملك حسين. وكانت العادة المتبعة أن يجلس الزائر مع عدد من الناس في غرفة السكرتير الخاص، ثم تدار القهوة البدوية في الفناجين الصغيرة، وتنتظر حتى يأتيك من يأخذك الى الملك. وفي هذه المناسبة انعدم البروتوكول تماماً، فقد وصل الملك الى الغرفة الجانبية، وخرج الآخرون ثم جلس بجانبي، وكان شاحب اللون من التعب تحيط بعينيه الدوائر العميقة. وبدون أي مقدمات دفع الي بمجريات الحوادث في يوم أمس بمنتهى الوضوح والتأثر، وكان حجاب المجاملة قد اختفى، ولأول مرة شعرت أنني على اتصال روحي حقيقي معه، وأيضاً شعرت فجأة بأنني أواجه رجلاً ناضجاً. وبعد جمع أجزاء القصة أعتقد أنها كانت تقريباً كما يلي:-

في يوم السبت ١٣ نيسان، شعر النابلسي أنه ورفاقه حجزوا الجماهير مدة أطول من اللازم، وقرروا أن يفلتوا زمامها بقصد تخويف الملك، لعله يستعيدهم للحكم بدون قيد أو شرط، وبناء على ذلك فقد وضعوا خططهم لإقامة مظاهرات واسعة في

(١) قصتين عن موقعتين حربيتين سابقتين كتبها تولستوي واستندول

اليوم التالي، الاحد في ١٤ نيسان، وحتى يمنعوا الملك من استعمال الجيش لخلق الفوضى، وكان من الضروري على اقل تقدير، أن يتاكدوا من انّ القوات الموالية في الزرقاء غائبة بحجة القيام بواجباتها في حفظ الامن الداخلي في عمان، ويكون من الضروري أيضاً استعمال ضغط مباشر على الملك من خلال اجراءات بعض الوحدات التي يقودها اشخاص متعاطفون مع النابلسي وزملائه. وقد اتخذ فريق ممن يسمون انفسهم «بالضباط الاحرار» بعض الاحتياطات المناسبة والتي كان يجب وضعها موضع التنفيذ في الزرقاء ليلة (١٣ - ١٤) نيسان.

ويظهر انّ المتامرين[1] اساءوا تقدير نفوذهم على الجيش واستخفوا بعزم وقوة الملك. ففي مساء (١٣) نيسان وصل الى الملك تقرير بان قائد فرقة السيارات المدرعة الاولى في الزرقاء قد طلب من بعض رجاله أن يخطفوا الملك وانهم رفضوا الانصياع للأمر. وفي الوقت نفسه قام متامر آخر برتبة رئيس، وهو آمر اللواء الاول للمشاة،باصدار الأمر الى كتائب مشاة بدوية لتقوم بدوريات ليلية خارج المعسكر وقد رفض اولئك الجنود الأمر بالذهاب، وقد طلب آمر اللواء المساعدة من ضباط فرقة المدفعية، الذين كانوا، معظمهم وليس جنودهم، داخلين في مخطط المؤامرة. وقد قال ضباط المدفعية لرجالهم أن المشاة بدأوا تمرّدهم ضد الملك وأمروهم بالتدخل، ومن خلال الالتحامات التي تلت وقع عدد من الإصابات.

وما أن سمع الملك بهذه التطورات حتى ذهب بسيارته الى الزرقاء وأصر على «علي ابو نوار» أن يرافقه في السيارة. وقد وجد الملك منظراً محيراً هناك، ظلام دامس، إطلاق رصاص، صيحات من كل جانب. وبنفس كلمات الملك «أن الرصاص كان يتطاير حولنا» وخاطب الملك الجنود الذين تجمعوا حوله وهتفوا له، وهرب الضباط المذنبون وعادت فرقة السيارات المصفحة الى عمان ولكن مع الملك واخذوا مواقع

---

(١) لقد عشت تلك الفترة شخصياً وعاصرت الأحداث التي مرت وتمر بالبلاد وكنت مع صديقي وأخي المرحوم أحمد خليل على مقربة من الأحداث والغريب في الأمر أن حدسنا ومعرفتنا عن كثب بشجاعة الملك حسين وبعد نظره أكّدا لنا بوضوح أن النصر سيكون بالنهاية للحسين وبعد نظره وحكمته في الأزمات.

تحصينية حول القصر الملكي. ومن خلال هذه الإجراءات، هدد الجنود الموالون للملك علي أبو نوار أكثر من مرة، ولولا تدخل الملك لما نجا، وبعد حجزه في القصر فترة وجيزة، أعطاه الملك حسين حراسة الى درعا، وغادر في اليوم التالي الحدود الأردنية الى سوريا مع عائلته وامتعته. أما «الضباط»[1] الآخرون فقد هربوا الى سوريا أيضاً أو ألقي القبض عليهم. وفي صباح ١٤ نيسان كانت المؤامرة العسكرية قد أخفقت تماماً، وربح الملك الجولة الأولى، ولكن القوى السياسية التي كانت تعمل ضده بقيت على حالها.

وكانت هناك تهديدات عسكرية أخرى يجب الاهتمام بها. كانت سوريا قد بعثت منذ أشهر لواء عسكرياً قد تمركز في منطقة اربد والمفرق شمال الأردن، تنفيذاً للاتفاقية المشتركة التي وقعت في شهر أكتوبر سنة ١٩٥٦ بين الأردن ومصر وسوريا. وفي مساء (١٣-١٤) نيسان أحاطت القوات السورية، وذلك بحجة التدريبات العسكرية، بجميع المناطق والقرى الحساسة في شمال الاردن وعزلت المنطقة عن بقية البلاد. وفي (١٤) نيسان تحركت بعض القوات السورية نحو الزرقاء بينما تحركت منها قوات أخرى نحو جرش وصويلح، حيث تمر هناك طريق الى الجنوب من الحدود السورية وتقطع الطريق الرئيسي من عمان الى القدس. وفي الظاهر كانت هذه التحركات ناشئة عن قرار بان القوات السورية تشكل قسماً من حامية العقبة، ولكن القصد الحقيقي كان بدون شك لحماية المتآمرين ضد الملك حسين.

وعندما استقى الملك حسين هذه المعلومات عن التحركات المذكورة جابه مشكلة حرجة، فلم يكن باستطاعته مقاومة القوات السورية بتحريك قوات موالية من الزرقاء إذ بذلك يصبح بدون حماية في عمان. ولذلك قرر اتخاذ اجراء خطير وهو احضار قوات تعزيزية من الحدود الأردنية الاسرائيلية في وادي الأردن، حيث كانت هناك فرقتان سعوديتان وضعهما الملك سعود تحت تصرفه. وفي الوقت نفسه وصلت تقارير للملك

---

(١) كانوا يومذاك يسمون أنفسهم بالضباط الأحرار تقليداً لثورة ورجال «عبدالناصر»

عن بعض السخط بين لواء المشاة الاردني المتمركز في وادي الأردن، وتقترح عليه بان حضوره أصبح ضرورة مستعجلة، وخلال الليل دعا بعض قوّاد الكتائب من الضفة الغربية لمقابلته في قصره في الشونة قرب البحر الميت، ولم يجد اي صعوبة في التاكد من ولائهم، وهكذا فقد أصبح قوياً بما فيه الكفاية ليقوم بضربته في الشمال وليخرج القوات السورية من الاردن. وفي الوقت نفسه اتصل هاتفياً رئيس الديوان الملكي السيد التلهوني بناء على تعليمات الملك، بالرئيس القوتلي بدمشق طالباً اصدار الامر الى القوات السورية بوقف تحركها فوراً، ويدعي القوتلي انه لا علم له بشيء من هذا، ومحتمل جداً أن يكون ذلك صحيحاً، حيث ظهر بعدئذٍ ان هذه التحركات كان قد نظمها الكولونيل سراج، الذي كان يوم ذاك رئيساً للمكتب الثاني[1] في دمشق- والذي كان على اتفاق مع المتامرين - بدون الحصول على موافقة الحكومة السورية. ومع هذا اتصل القوتلي بعد برهة وجيزة ليقول بان كل ما حدث هو سوء تفاهم فقط وأن القوات السورية كانت جميعها تحت إمرة الملك حسين، ولسوف تسحب عندما يرغب جلالته بذلك. وعاد السوريون الى ثكناتهم وهكذا انتهت الازمة. وهنا ايضاً كان ثبات الملك حسين مدعاة لتمكنه من الخروج من هذه الازمات منتصراً.

ولكن المشكلة السياسية بقيت مع ذلك بدون حل، وكان الملك مستعداً لمجابهة أي اضطرابات في عمان، ففي الصباح الباكر من يوم (١٥) نيسان، حضرت القوات الموالية من الزرقاء وتمركزت في الأمكنة الحساسة في البلد، بما في ذلك خارج مكاتب السفارة البيريطانية واخذت تتجول في الشوارع، وقد سحب جنودها بعد ذلك بفترة ولكن وجودهم اظهر ان جميع وحدات الجيش قد تجمعت حول الملك بعد دحر المؤامرة.

واصبحت اولى الضرورات الآن هي تشكيل حكومة جديدة، والتفت الملك نحو الدكتور الخالدي وهو وطني فلسطيني محترم جداً. وبالرغم من معتقداته اليمينية، كان الخالدي بصفة عامة انتخاباً طيباً نظراً لسجله الوطني والذي كان خلال الانتداب

---

(١) المكتب الثاني أي المخابرات السورية بقيادة عبدالحميد السراج كان تقليداً فرنسياً اتبعته الحكومة السورية آنذاك، وكان يعمل بروح عدائية للوطنيين السوريين وخصوصاً فخامة الرئيس الوطني شكري بيك القوتلي يرحمه الله.

البريطاني على فلسطين يحتوي على قضية نفيه الى سيشل.. وقد نجح الخالدي في تشكيل الحكومة وضم اليها النابلسي، رئيس الوزراء الأسبق، كوزير للخارجية. وكان ضم النابلسي يعني أن الملك ما زال متطلعاً الى الحفاظ على الكيان الدستوري ليحكم بالتعاون مع مجلس الامة الذي كان يسند النابلسي. وبالتأكيد فان هذا الاعتماد أعطى للنابلسي مركزاً ذا اهمية كبيرة، وبالنظر لاشتراك النابلسي العملي بالمؤامرة، اضطر الملك أن يتخذ طريقاً أكثر تساهلاً مع قواد الحركة، فكان في ذلك حكمة وسلامة، وقد مثلت هذه الحكومة «الحل الوسط»، ولذلك فلم يكن منتظراً أن تعيش طويلاً.

ولم يطل الامر بالجنرال حياري، الذي كان قد تعين رئيساً للأركان ليخلف ابو نوار، كي يعود الى صفوف الراديكاليين، فقد حصل من الملك على إذن لزيارة اقربائه بدمشق!؟!... وفي الظاهر كانت هذه الزيارة بحجة التحدث مع رئيس الاركان السوري حول نشاط قواته في الاردن. ولكنه عندما وصل الى دمشق، استقال من منصبه وأذاع تهجمه على الملك حسين مسانداً الراديكاليين المتطرفين. وظهر جلياً الآن أنَّ الحياري كان ايضاً وعلى الاقل منضماً الى المؤامرة، وخشي ان ينكشف أمره أثناء الإجراءات العسكرية والتحقيقات التي كانت تجريها اللجنة التي الفها الملك.

في الرابع والعشرين من نيسان، تحركت قوى اليسار بالهجوم فقامت مظاهرات واضرابات في جميع المناطق الاردنية. واغلقت الحوانيت ابوابها في عمان وكان هناك قذف بالحجارة وبعض إطلاق الرصاص، وتوقف السير في وسط المدينة واغلقت الشوارع وأقيمت الحواجز بالحجارة في الشارع الرئيسي. ووقفت بعض الوحدات الصغيرة من فرق الجيش ترابط أمام المباني الهامة. وبينما كنت ألقي نظرة على المنحدر من غرفة مكتبي، رأيت لمحة من المد والتدفق الجماهيري في المعركة، وكان البوليس الذي يلبس الخوذ الفولاذية ويتسلح بالترس المجدولة من الخيزران، يهجم، ثم يقف، ثم يتراجع، وكان الثائرون يلاحقونه بالحجارة ثم ينسحبون بعد ذلك. وفجأة حوالي الظهر تراجعت المظاهرات، فقد كانت تنقصها التلقائية المتطوعة، واحتوت بشكل محسوس بعض عناصر المنظمات الشيوعية. وكان المتظاهرون يرددون النداءات

المعادية لامريكا وللقصر، ولكن هذه النداءات كان واضحاً أنه ينقصها التاثير والقناعة الاكثر عمقاً فقد كانت تستعملها القوى المعادية للاستعمار وقت الشغب من أجل حلف بغداد سنة ١٩٥٥ .

ولا شك أن منظمي المظاهرات كانوا يأملون في أن ضعف الحكومة سوف يسمح لهم بحرية الحركة لعدة أيام يتمكنون خلالها، وحسب طبيعة الوضع، من دفع السكان الى إشعال الاضطرابات أكثر فاكثر حتى تصل القمة، ولا بد انهم قدروا هذه التقديرات دون معرفة مزاج الملك الجديد، إذ خلال ليلة ٢٥/٢٤ نيسان سبقهم الملك بضربة عكسية حاسمة، فقد أعلن راديو عمان استقالة الدكتور الخالدي وتشكيل حكومة جديدة يرأسها الرجل الشيخ السياسي المحترم ابراهيم هاشم ومعه الرجل القوي اليميني المعتدل سمير الرفاعي. وكانت الحكومة الجديدة معروفة صراحة بأنها ملكية، مع السعودية ومع الأمريكيين، بينما رئيس الحكومة نفسه هو ممن عاصروا عهد الملك عبدالله، وعاش حياته في العهد البريطاني، وبصراحة كان انجليزي المشرب والسياسة.

وقد سمعت بعدئذٍ أن ليلة تشكيل الحكومة كانت أسوأ ليلة عرفها الاردن في حياته، وقد كان الرئيس المكلف يحجم بشدة عن تحمل المسؤولية، ويحث على تشكيل حكومة عسكرية بدل حكومته. وأخيراً قيل لهم بانه سوف لا يسمح لهم بمغادرة القصر قبل حلف اليمين الدستورية وتسلم الحكم. وكانت هذه الأسس التي لم تكن مشجعة هي التي بنيت عليها قصة تشكيل الحكومة، وكان أول عمل لها، وفي نفس الليلة، إعلان الأحكام العرفية ومنع التجول في جميع انحاء البلاد.

وفي صباح الخامس والعشرين من نيسان كانت شوارع عمان خالية تماماً إلاّ من دوريات الجيش والبوليس. وكان عدد كبير من جنود البدو قد طلوا وجوهم بالأسود «طلوها بالطين» وهي عادة قديمة وضعت لتمنع التعرف على الوجوه، تفادياً للنزاعات العائلية والقبلية، في حال سفك الدماء، وقد كان لهذا المنظر المزعج تاثيره القوي في شوارع عمان خلال أزمة الأيام العشرة السابقة. ومنذ أيام الاضطرابات ومن اجل

حلف بغداد اثبت «منع التجول» بحد ذاته بأن له اكبر الاثر في مقاومة الاضطرابات والشغب. وكانت الصورة المميزة في هذا الإجراء تكمن في التوقيت، إذ مع انتشار الجنود في الليل البهيم، كانت الجماهير تمتنع بصورة طبيعية عن التجمهر أو التظاهر ولا يدعو الأمر حينئذ لتفريق الجماهير، وكان الفضل الأكبر في هذا الإجراء يعود الى سمير الرفاعي باستعماله هذا السلاح الماهر.

وكان تصميم الملك حسين قد أنقذه وانقذ بلاده ثلاث مرات خلال شهر واحد: الاولى في حادثة السيارات المصفحة يوم ٨ نيسان، والثانية في التمرّد الذي حصل في الزرقاء يوم ١٣ نيسان، والثالثة ضد التهديد العسكري من سوريا يوم ١٤ نيسان. والآن، وفي الوقت المناسب فقط، قام الملك بضربته القوية ضد العناصر المتطرفة، التي اثبتت انها حاسمة وحازمة. وشعر الاردن بالضربة المكينة ضد القوى المتطرفة، تلك الضربة التي لم تكن تعرفها منذ أيام الملك عبدالله.

وفي نهاية هذه الليلة الطويلة قال الملك حسين للتلهوني أنه امسى متعباً جداً وأنه قد حان الوقت لكي يأوي الى الفراش. واجاب التلهوني باحترام انّ هناك إمراً واحداً يتوجب على الملك ان يقوم به وهو أن يسجد لله شاكراً ومترحماً على جده، إذ لولا تدريب الملك عبدالله لما كانت هناك وزارة هذا المساء تحكم البلد، وقد عمل الملك باقتراح التلهوني وذهب لينام حتى ساعة متاخرة من ذلك اليوم.

رسالة الى الوطن، ٥ مايو.

كانت حياتنا خلال العشرة أيام الماضية غريبة جداً، إذ كانت خليطاً من الوضع «الطبيعي والمستهجن»، أولاً كان منظر الحديقة رائعاً جداً، وكان يوم الاحد يحمل في طياته صباحاً جميلاً دافئاً. وأنني أكتب إليكم وانا ارتدي القميص واجلس على مرجة خضراء في ظل شجرة عوسج بنفسجية فارسية، قد بدات تزهر، وعلى حافة الحشائش تصطف أحواض من زهور المنطور، والقرنفل، وعشبة الذنب، وبالتالي تنحرف نحو منظر رائع من أحواض الورد، والى حوض آخر من «الحصلبان». وكان تراب

الاحواض في الحديقة يبدو نظيفاً وبلون «الشوكلاته»، وذلك من تاثير الجرف والتعشيب، والشيء الوحيد الذي يختلف فيه عن حدائقنا الانجليزية هو مجموعة الاحواض المصنوعة من الطين مزخرفة كانها الكعك بحواجز صغيرة كي تمنع تسرب المياه. وتحت الحوض هذا توجد مصطبة اخرى فيها بركة للسباحة تختفي خلف سور من اشجار البامبو (الخيزران الهندي)، وكذلك مرجة خضراء صغيرة، يتلوها من الأسفل منحدر صخري خشن تحيط بها كرمات العنب، وتحت هذا قطعة من الأرض المهملة في الأسفل والتي كنا حرثناها وزرعناها بالذرة الحلوة، وحفرنا فيها المجاري مصلبة بقصد الري، لكي تسقى بالمياه الفائضة من حوض السباحة. إلا انني لا ادري شيئاً من هذا حيث اجلس ويقفز بي البصر عبر هذه الاحواض الانجليزية من الزهور، مستقيماً الى التل الداكن الخشن في الناحية الاخرى من الوادي، حيث ابصر البيوت الصغيرة المكعبة والملونة بالازرق والبني، ثم ارى من بعيد دخان القطار الحجازي يتلوى مرتفعاً خلف القمة.

وخلف المرجة الخضراء من بعيد، من الزاوية اليمنى الى حوض الزهور، يقع البيت وهو مبني كالقلعة من احجار ذهبية اللون، مع القضبان الحديدية المتينة، ومصاريع النوافذ التي كنا طليناها باللون الازرق اللازوردي المتلالىء عوضاً عن لون وزارة الاشغال الاخضر التقليدي. وهناك ساحة مغلقة، بين المرجة والبيت، مبنية من حجر الحيطان الرخيص، وتتسلق الجدار وردة صفراء تعلو حتى القمة من الداخل. وكان هناك نشاط كبير هذا الصباح في الساحة، فلقد قررنا أن نقص بقسوة شجرة ورد استرالية صفراء (بانكسيا) كان سمح لها أن تنمو وتنمو بقوة حتى انها اغلقت النافذة، وأزاحت ماسورة ماء عن مكانها. وكان في ضيافتنا ضابطان من سلاح الجو الملكي من كتيبة المفرق لقضاء عطلة الاسبوع معنا، وها اني اراهما مبللين من العرق يعملان على نقل هذه الشجرة (البانكسيا) ويساعدهما البستاني الرئيسي (علي)، وهو رجل عفيج إلا انه صغير الجسم لكنه كفؤ، ويدل مظهره على انه الماني اكثر منه عربي.

ولإكمال الوصف وبحسب دوران الساعة، من الجهة التي اجلس فيها، ياتي اولاً

ملعب التنس يختبيء وراء دغل كثيف من أشجار الصنوبر، وله سطح مشقق مغطى بالاسفلت الخفيف يقع الضوء عليه بشكل خاطيء. واني آلعب عليه مرتين او ثلاثاً في الاسبوع واغتبط باللعب كثيراً وكذلك الآخرون في السفارة فهم يلعبون هناك إذا لم آكن بحاجة اليه. ويقع خلفي حوض آخر من زهور (البانسيه) وهي زهرة الثالوث، والتي تزدهر بصورة غير عادية، حيث تعطي زهرة مخملية غزيرة، وخلف الحوض سياج مسور كانت تعيش فيه «الانسة جلوب» وهي غزالة مخططة ذات قرون متجعدة، كانت آخر ما تبقى من الحيوانات المدللة لدى جلوب باشا. ولسوء الحظ، بينما كنا نشرب الشاي بعد حفلة صيد للفر منذ أيام، قفزت كلاب الصيد الخاصة بضيوفنا من فوق السور واخذت تنهش الغزالة بوحشية، حتى اضطررنا لذبحها، وقد وعدت «ناتاشا» بكثير غيرها بدلاً منها. وبعد ذلك لكي تتم الدورة، ياتي حوض آخر من زهور الاقحوان، التي تظهر متالقة زاهية، مقابل خط من الاشجار الشربينية (شجر الشوح). وبعد هذا يظهر السياج الشائك والأنوار الكاشفة المحيطة بنا من كل جانب.

وامس اقمنا حفل بوفيه (غداء وشاي ومشروب) لعشرين شخصاً معظمهم صحفيون بريطانيون جاءوا ليراقبوا الاحداث ويشاهدوا ما سيقع بعد ذلك، وكانت هناك لعبة تنس ثم سباحة، وتخللها المزاح والمقالب. وفجاة جاءَ صوت الأذان من الجامع المقابل يدعو لصلاة العشاء، واضيئت المصابيح حول سياجنا، وسمعنا بعد ذلك صوت مذياع البوليس ينذر الناس بإخلاء الشوارع، وبعده جاء صوت زامور التنبيه يعلن بدء منع التجول لهذه الليلة. وكان الجنود الموالون من كتيبة سلاح السيارات المدرعة ما زالوا يرابطون خلف الطريق بمواجهة مدخل السفارة، لكنا أصبحنا لا نراهم كالسابق وقد اقام معنا «توني ناتنج»[1] من آجل عيد الفصح وهو يكتب الآن مقالات لصحيفة «نيويورك هيرالدتريبيون»، وقرر أن يبدأ مقاله عن عمان فكتب يقول مثلاً: «لا تنظر خلفك الآن، ذلك ما قالته السيدة حرم السفير، أعتقد أنَّ هناك دبابة تطاردنا!..». وهكذا فقد سارت الامور بسهولة ويسر حتى الآن، وبالحقيقة

(١) السير أنطوني ناتنج الوزير البريطاني الذي استقال من وزارة «أيدن» احتجاجاً على عملية السويس

احسن مما كانت قبل الآن - ولكني أخاف أن يكون الأمر كله هشاً وقابلاً للقصف، فيمكن أن يتحطم أو ينهار دون اي انذار. وماذا يمكننا أن نفعل لو حصل، إلا أنّ مراقبة الأوضاع تدعو فعلاً الى الإعجاب، وكلانا نستمتع كثيراً بالمرح والطمانينة.

كان هناك شيء واضح تماماً امامي، وهو انه لا يجب فقط ان نُحسِّنَ علاقاتنا بالملك حسين، ولكن يجب أن نظهر للراي العام باننا نقوم بذلك فعلاً.

وبالنظر الى الزوبعة التي حدثت في انجلترا بسبب طرد الملك للجنرال جلوب منذ عام مضى، فإن ذلك يحتاج الى اهتمام وعناية خاصة، إذ كانت الكرامة البيريطانية الحساسة أكثر من المعتاد، خلال الفترة التي جاءت مباشرة بعد السويس، يجب أن لا يساءَ اليها..[1]

(١) حقاً كان التخلص من جلوب باشا ضربة معلم رائعة قام بها الحسين الملهم وسجلت له في التاريخ المعاصر بأنها حركة سياسية رائعة أكسبت الحسين بعدها شهرة سياسية معاصرة جعلت المتحذلقين في السياسة والمتطرفين يلون ريقهم ويخرسون في انتقادهم ضد هذا السياسي البارع الفذ.



الفصل العاشر

آراء حول الأزمة

كانت السيرة القصيرة، والطائشة المتهورة، لحكومة النابلسي قد قدمت مشهداً مُثبطاً للعزيمة ولاولئك الذين يرغبون إذا تمكنوا في ان ينظروا نظرة متفائلة نحو طبيعة الانسان العربي. وكانت انتخابات اكتوبر التي انبثقت عنها الحكومة، هي الانتخابات الحرة الاولى تقريباً في تاريخ الاردن. وهذا لا يعني انها انتخابات «صحيحة» بالمفهوم الغربي. ومن المنطق المعقول ان نقدر بان المرشحين الوطنيين المتطرفين كانوا قد تسلموا مساعدات مالية من مصر، ورغماً عن هذا، فلم تكن النتيجة «اقصى التطرف» كما كان منتظراً ان يكون!..

وكانت الاغلبية الساحقة في المقاعد قد كسبها حزب النابلسي، وهو الحزب الوطني الاشتراكي. وبالرغم من عدائهم المسعور ضد بريطانيا، كان من المؤمل بعد حصولهم على التجارب وعلى الوقت، ان ينقلب الحزب الوطني الاشتراكي تدريجياً الى جبهة وطنية اكثر نضوجاً، وان يمارس سياسة مستقرة ثابتة ضد التاثير الشيوعي، وذلك طيلة الفترة الحساسة خلال وفي نهاية العلاقات البيريطانية، كما فعل حزب النواب في الهند (الكونجرس) وما دمنا نحن رغبنا ايضاً في انهاء علاقات التحالف الاردني، فلم يكن هناك سبب لعدم مقابلة الوطنيين الاشتراكيين في منتصف الطريق وذلك بأمل أن نجد في المستقبل حكومة أردنية ذات سمعة طيبة وأصالة حقيقية وتكون بنفس الوقت صديقة لنا. هذه هي الافكار التي كانت تجول في خاطري خلال فترة مفاوضات المعاهدة.

ولمدة ما كان ممكناً ان تتحقق هذه الآمال ولا تفشل، إذ انه بدون استعمال القوة، تمكنت حكومة النابلسي من حفظ النظام في الاردن كله، وحتى خلال ازمة السويس، كذلك تمكنت بنجاح من تاكيد منع التسلل على الحدود الاسرائيلية التي اصبحت اهدأ من قبل بسنوات عدة. وخلال مفاوضاتهم لانهاء المعاهدة كان النابلسي مع بعض زملائه يُظهرون الاعتدال والمنطق الحسن، حتى انه كان ممكناً ان يامل الانسان في ان الوقت قد حان لكي تمارس الدولة قيادة الراي العام بدل العكس!..

إلا انه ولسوء الطالع ثبت انّ هذا المستوى الرفيع من اسلوب الحكم كان مستحيلاً على النابلسي وزملائه، ففي الشهر الاخير من حكمهم، وكما تحدثت آنفا، تسلمت الغوغائية الزمام واصبح المنحدر الذي تهوي اليه الامور يشبه منحدر ام قيس «من اعلى القمة الى اسفل الوادي» واصبح ذلك واضحاً جداً في نظر المراقبين. وكان ظاهراً ايضاً ان الاردنيين، نظراً لعدم الشعور بالمسؤولية وعدم الاستقامة والفوضى التي اتصف بها ممثلوهم المنتخبون، لم يكونوا مؤهلين لممارسة امورهم في وجه التخريب السوفياتي او المصري او السوري المتطرفين. وإذا ما اعتبرنا التوتر القائم بين الدول العربية وإسرائيل، فإن بقاء الاردن بلداً مستقلاً اصبح ضرورة لحفظ السلام. وفي الوقت الحاضر على الاقل، كان احسن امل لإنقاذ الأردن يتمثل في عودته إلى «الحكم الأبوي» الذي استنه الملك عبدالله لهم من قبل!..

ثم إن الاحداث التي تلت استقالة سليمان النابلسي كانت مثلاً حسناً آخر على ضباب السلام، فلم تكن المسألة قضية «وضع خطة واخرى معاكسة» يرسمها فريقان قويان تسيرهما عقول متفوقة، بل على النقيض كانت مسالة مضطربة ذات ثلاث شعب، ولعبة اخرى من لعب الاستغماية، إلا انها هذه المرة كانت بين ثلاثة متنافسين يصطدمون ببعضهم في الظلام ولا يعلمون بصراحة ما يحدث ثم ماذا يجب عمله بعدئذ. وكانت هناك مدرسة فكرية بين بعض الصحفيين الاجانب في ذلك الوقت تقول بأن الملك حسين على علم بما يحدث وانه بكل مهارة وحذق «يبروز» المتآمرين. انا لا اصدق هذا، وإني اظن انّ احداث تلك الليلة في (١٣) نيسان كانت مفاجأة للملك بقدر

ما كانت مفاجاة للمشتركين الآخرين، وذلك لانه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة من قبل ليضع حوله الجنود الموالين له، والذي كان طبيعياً أن يقوم بذلك لو كان هو الذي يسير الأحداث الى الخطة التي يضعها هو بنفسه!.. بل على العكس فقد كان اكتشاف الملك للدور الغامض الذي لعبه معاونه وصنيعته (ابو نوار) جاء صدمة وهزة مفاجئة له تماماً... وبدا ان مظهر هذه الازمة كان أكبر من غيرها، فقد ساهمت في سرعة نضوج الملك حيث تحملها بصورة أكيدة في ذلك الوقت، وكذلك يمكن القول انه تحملها بصورة شجاعة وحكمة فائقة وصبر ووعي ورثه عن جده السياسي المحنك المغفور له عبدالله بن الحسين.

ولقد بقي دور ابو نوار في هذه الدراما احد تلك الغوامض النفسية من الغدر والتقصير، وقد كانت هاتان الصفتان من مميزات سنة ١٩٥٧، وابو نوار لم يتبع الطريق السوي، وظهر لي أن الطرفين لم يكونا يثقان به. كان الجنرال نهّازَ فرص متفرد في بابه، وكانت له جاذبية خاصة، وهبة كبيرة من الثرثرة، يضاف الى ذلك ما كان يخبئه في قرارة نفسه قديماً من نفخ أبواق الدعاية المقاومة لبريطانيا، ولا شك انه بهذا كله قد كشف عن حقيقة نفسه لسيده الملك. وكانت مشكلة ابو نوار انه لم تكن تنقصه الاستقامة السياسية فحسب بل كان ينقصه ايضاً الثبات العاطفي. فلقد اشترك في المؤامرة الساذجة مع الملك ضد جلوب باشا بحماس الهواة، وكان الفارق بين الاثنين انه منذ ذلك الحين بقي ابو نوار في نفس الصورة غير الناضجة، بينما استمر الملك في التطور والنمو، وعندما وقف الامر عن أن يكون مسالة حرب ساخرة ضد جلوب، تطور الى حرب خشنة حقيقية متدهورة، مع امكانية وقوع أحداث وكوارث، ظهر ابو نوار على حقيقته، تنقصه صفات العزيمة والقيادة، تلك الصفات التي ابداها الملك حسين في تلك الآونة الحرجة. وكان ابو نوار قد نما على يدي سيده، ولكن ثبت انه ما زال «هاوي مؤامرات بدائي»، بينما تقدم الملك خطوات نحو منزلة الاحتراف السياسي وبعد النظر والصبر على الاحداث بحذق وذكاء.

اما وضعية النابلسي وخصوصاً في الوضع الذي لعبه في اشتراكه بالمؤامرة. فإن

تقديره أكثر صعوبة. فالنابلسي كان اكبر سناً وأكثر تجارباً من أبي نوار وامهر منه نسبياً في إخفاء اموره، ومع انّ النابلسي كان في مركز قوي كرئيس لحزب الاغلبية في البرلمان، إلا انه لم تكن له شخصية قوية، ولو كان الامر يتعلق به وحده لكان من المعقول أن يتفق مع الملك حسين ويستمر في الحكم بدون بعض زملائه الاكثر تطرفاً منه، ولكن الواقع أن الوزراء المتطرفين الذين كانت تسندهم مصر وسوريا، اثبتوا أنهم قادرون على ان يبذلوا تاثيراً اكبر على رئيس الوزراء الطيّع من تاثير الملك عليه. فلقد كانوا الذنب المحرك، لكنهم بالفعل حركوه خارج الحكم!... وفي نهاية المرحلة كان النابلسي وزملاؤه يعملون بصراحة لطمس الملكية في الأردن كخطوة أولى نحو الإنضمام الى الجمهورية السورية، وبذلك يظهر أن حزب البعث كان في الحقيقة هو الملهم الرئيسي لهذه المؤامرة. ويظهر ايضاً أنه كانت هناك خطة لانقلاب عسكري في سوريا، لكن هذا الانقلاب فشل بسبب عدم الاتفاق بين كبار الضباط السوريين، ولو نجح هذا الانقلاب لكان محتملاً ان يكون في نيته توحيد الأردن وسوريا وانشاء جيش مشترك تحت قيادة أبو نوار. وبعد اختفاء الجنرال أبو نوار وجدت في مكتبه رايتان غريبتان، ويظهر أنه كانتا وضعتا لترفرفا على الجمهورية المتحدة؟...وكانت فلسفة البعثيين في الجمع بين مبدأ سوريا الكبرى مع الوطنيين المتعصبين والمتعصبين الفلسطينين المتطرفين، هي الفلسفة التي تؤمن القناع المثالي لهذه الحركة . وقد ساندت القوة الشيوعية هذه الحركة من أجل اغراضهم الواضحة ، ويساعدها في مهمتها المال السوفياتي وبعده المال المصري ...

ومن حسن حظ الاردن والملكية ، كانت العوامل المختلفة المتورطة في هذه المؤامرة تعمل بدون تنسيق ولا نظام ،وعلى سبيل المثال ما ظهر في مسالة تحركات القوات السورية في الاردن والتي لم تشكل تهديدا «رئيسيا» على عمان الا بعد (٢٤) ساعة من تمرد الزرقاء وهذه الاخطاء التي ارتكبها ذلك الفريق ساهمت الى حد كبير، كما ساهمت الاجراءات الفعالة من قبل الملك ،في تفشيل المؤامرة.

الفصل الحادي عشر

أصدقاء الملك

هناك مشكلة حول نظام الحكم الجديد تتمثل بوجود شخصيتين قويتين فيه؛ الملك نفسه، وسمير الرفاعي.

ويشف مظهر سمير عن روحه المرحة الاخاذة وقلبه الطيب. وكانت عيناه تتالقان خلف نظارتين سميكتين، وتحتهما فم تخاله مصيدة فولاذية،وكانت مفاصل إبهام يديه غريبتين جدا، تنحنيان بانعطاف الى الخارج، كانهما مخالب مقلوبة وباختصار فهو كالصقر يلبس ريشاً ناعما! ..

وكان سمير سياسياً حتى اخمص قدميه، وبكل ما في الكلمة من معنى. وفي الفترة الاخيرة، بعد تركه الحكم بقليل، حضر الى حفل عيد ميلاد ملكتنا، وعندما لاحظ ومضات آلات التصوير، امسك بيدي على الفور، فقد كان حريصاً ايضا على دحض الاشاعة باننا قد اخرجنا سمير، الرجل الموالي لامريكا، ووضعنا هزاع مكانه وهو الرجل الموالي لبريطانيا. وكانت النتيجة صورة رائعة هزلية لكلينا نتطلع بشوق نحو الكاميرا لكي نتأكد أن هذه التعابير الدالة على صداقتنا قد سجلت بدقة.

كان سمير الرفاعي فلسطيني الأصل من مدينة صفد في شمال فلسطين، وكان ابوه موظفاً اثناء الحكم العثماني[١] وكانت صورته المعلقة في صالة الاستقبال تعطيك

(١) كان المرحوم طالب الرفاعي موظفاً كبيراً في دائرة قائمقام ورئيس البلدية/ القسم المالي في أوائل الانتداب البريطاني

فكرة عن تلك الحقبة الرائعة من الزمن: فالطربوش، والقبة المنشاة، والجاكيت الفراك «الاستانبولي» ، وشاربان مصففان مرتفعان على طريقة(الكايزر ولهلم) دليل ذلك كله، وكان الملك عبد الله هو الذي اكتشف سمير ودفع به الى اعلى مراتب الحكم بين رجال الدولة السياسيين الاردنيين.

وكان سمير ذا شجاعة وعزم بالاضافة الى ميزته السياسية الحساسة، إلا انه بالحقيقة كان يجابه عائقين هما: أولاً انه كان معروفاً جداً بهويته السياسية في الجناح اليميني من المحيط السياسي الاردني ، وكذلك أيام الملك عبد الله، وجلوب، والعلاقات



دولة المغفور له سمير باشا الرفاعي

البريطانية، وبذلك كان من المستحيل عليه مطلقاً أن يجعل نفسه مقبولاً لدى الجناح اليساري الوطني، فهو لو قدم جميع العروض الممكنة لما تمكن من التغلب على شكوكهم القوية ضده. وثانياً كان واضحاً جداً انه الرجل القوي في تعامله مع الملك ومع القصر، فمن وجهة نظر معينة كان ذلك له قيمته وفائدته الظاهرة الواضحة لمصلحة الملكية الهاشمية. وعندما كان سمير في الحكم كانت اية إجراءات ممجوجة وغير مقبولة من الجماهير يقع اللوم فيها عليه وحده، وليس على الملك. وقد كان سمير السياسي الوحيد في الأردن المشهور بحزمه، والمعروف أنه من هذا الطراز القوي، وبهذا فقد كان هو المرشد الحازم الفعال للملكية، وما ان ترك الحكم حتى اضحت الحكومة التالية تعتبر مباشرة بانها حكومة يسيرها القصر.

وكان أول حدث جرى تحت الحكم الجديد هو التسليم الرسمي لمطار سلاح الجو الملكي البريطاني في المفرق الى الاردنيين بموجب اتفاقية الغاء المعاهدة، وقد اغتنمت الفرصة التي كنت انتظرها في هذا الحفل، فبعد تادية التحيات المناسبة، ثم التفتيش، قدمت خطاباً يحتوي على ثناء مؤثر على الملك حسين. فقلت «ان المفرق الذي يمثل تضحيات بريطانية جساماً من حيث الجهد والمال، نقوم بتسليمه اليوم الى جلالته بصفته ملك الاردن، وبصفته القائد الاعلى للقوات المسلحة الأردنية المسلحة، ولكن تسليم هذه القاعدة اعطانا الثقة اذ نعلم باننا في الوقت نفسه أودعنا هذا المطار في يد الملك الطيار النفاث، ورجل ذي فعالية، واذا سمح لي أن اقول، رجل ثبتت شجاعته وحزمه».

وكانت هذه العملية بمثابة طريقة جديدة لنا في ذلك الوقت - وأول خطوة تجريبة نحو إقامة علاقات اطيب مع الأردن في ظل الحكومة الجديدة.

وبعد ذلك نزل العلم البريطاني ومعه ايضا نزل علم سلاح الجو الملكي البريطاني، وان اهم ما شعرت به حينذاك هو الراحة البدنية والفكرية، فلم يكن لنا مكان هناك مطلقاً، وكنا مجانين عندما صرفنا هذه المبالغ الكبيرة من المال على المطار. وتحرك حرس شرف سلاح الجو الملكي البريطاني الى ناحية، بينما سار الحرس الاردني الى

الامام حيث كانت ترتفع أيديهم في السير الى مستوى العين، تماما كأنها موسيقى الجيش البريطاني، وأمامهم فرقة موسيقى الجيش تعزف تماما كأنها موسيقى الجيش البريطاني وشكرني الملك بلطف على خطابي، وبعد أن ارتفعت الراية الاردنية على الصاري نفسه، جاء ما هو بمثابة أهم جزء من الحفلة، فتحدث الملك طويلا عن الشيوعية وهاجمها، وعن المؤامرة الاخيرة ضد العرش، وكان بحديثه صاحب احتراف سياسي، حيث كان يندفع عندما يصل الى الجمل الرئيسية، وكان يتكلم بصوت عميق جذاب ظهر لي انه يصدر عن ذلك الرأس الكبير الشجاع أكثر مما يصدر عن جسمه النحيل. وفي تلك اللحظة شعرت بالاسى لحرس الشرف التابع لسلاح الجو الملكي البريطاني الذي وقف يتصبب عرقا من حرارة الصحراء خلال العشرين دقيقة التي استغرقها الخطاب الملكي الفصيح البليغ، باللغة العربية.

وعندما انتهى الحفل تبع الملك كل من الضباط البريطانيين والوزراء وكبار شيوخ البدو ثم أنا، الى خيمة صغيرة خانقة للأنفاس، حيث تناولنا قدحاً ساخناً من الشاي وقطعاً من كعكة كبيرة مثلجة كتب عليها كلمات التهاني باللغة العربية. أما الملك الذي كان يؤمن بتقصير مدة الاحتفالات بأسرع مايمكن فقد تمكن بعد عشرين دقيقة تقريبا من الانتهاء بتقبل مراسم التهاني من قبل رجال السلك الدبلوماسي، وقبلات زعماء القبائل، فاندفع بلطف عبر الطريق المهد، وكانت تنتظره طائرة من سلاح الجو الاردني التي كان سيقودها بنفسه الى عمان.

وتبعه الوزراء ثم عرض علي أحدُهم مكانا استريح فيه إلا أنني رفضته لكي أتمكن من توديع أصدقائنا من سلاح الجو الملكي البريطاني، الذين كانوا يصطفون للدخول الى الطائرة، وكذلك قافلة طويلة من السيارات اللوري المغادرة الى الحبانية في العراق. وعندما خرجنا بسيارتنا كان الجنود الاردنيون قد أخذوا مكان الحراسة الذي كانت تشغله قوات سلاح الجو الملكي البريطاني عند الحاجز.

ومع ثقتنا بأننا أصبحنا خارج المفرق تماما، إلا أنني أعلم بأننا سوف نفتقد أصدقاءنا هناك بحسرة شديدة، إذ كان لذلك المكان جو خاص به، ولعله كان نقطة

حراسة عقيمة في وسط الصحراء يشغله(١٢٠٠) جندي بريطاني معزولين خلف اسلاك محددة. و«ميس» للضباط وكانه نزل انجليزي صغير (تيودوري الصبغة)[١] ومعهم الكولونيل(لاو) (lowe) ذو الشاربين الطويلين، كانهما مقبضا باب، يقيم حفلات الجعة(البيرة) التي لا نهاية لها، وتحيط بالجدران اعلانات مطبوعة، بعضها تقول«ممنوع عليك ترك مقعدك ما دام البار مفتوحا!..» وقد بقي المكان شبه اسطورة في سلاح الجو الملكي، وتبرع الطيارون من جميع انحاء الشرق الأوسط لحضور حفل حرس الشرف الاخير هناك، وانتشرت نكتة حول المفرق:«هل كنت في الراف- ماك» (raf-mac) اي أنهم قلبوا الكلمة كي تعني(المفرق).

وبعد هذا الحادث مباشرة تقريبا اقمنا حفل عيد ميلاد الملكة في السفارة بعمان وكان هذا أول حفل بعد انتهاء المعاهدة البريطانية الاردنية ولذلك كان هذا الحفل فرصة مواتية لتجربة الأوضاع.

رسالة الى الوطن، ١٦ يونيو١٩٥٧

كان هذا الحفل، بصورة او باخرى، تسلية لطيفة، فقد حضره مئتان وخمسون شخصياً تقريباً، بما فيهم الوزراء والرئيس الشيخ العزيز، وعدد كبير من الموظفين والضباط ورجال الاعمال . وكانت هذه أول مرة منذ حادثة السويس حضر فيها أكبر عدد من الاردنيين. وبالفعل اصبحنا مالوفين لدى الناس هنا مرة اخرى !..

وقامت ناتاشا وانا بجهد كبير لتنظيم الحفل، وذلك لاننا رغبنا في ان نبني سمعة السفارة كمكان تقام فيه الحفلات السارة والمنظمة، حتى في تلك الحفلات الرسمية كحفلة عيد ميلاد الملكة، حيث تشعر برغبة الناس في أن يدعوا إليها، وقد بدأنا في تخفيض العدد بصورة عنيفة، فقد كان عدد المدعوين في الحفلة السابقة (٧٥٠)

(١) Tudor Inn - نزل من المرحلة القديمة «التيودورية» في انجلترا.

شخصاً، ثم أوصينا على احسن الماكولات في المدينة وجربناها بانفسنا سلفاً، وانتخبنا الانواع التي فضلناها - الكافيار، الفراخ، اللحم، والباتيه (pate)،[1] وتسلم المشروبات «مو»، ووزعناها على عشرين طبقاً يحملها الخدم ويدورون بها على المدعوين، ووضعنا احتياطياً كبيراً من البيرة والصودا والماء المثلج داخل براميل حديدية سعة الواحد منها اربع أقدام مربعة. أما فرقة موسيقى الجيش (فرقة الهوزار العاشرة) فقد طارت خصيصاً لإحياء هذه الحفلة من العقبة بواسطة سلاح الجو الملكي، وكان أفرادها قد وصلوا قبل نصف ساعة فقط من بدء الحفلة، بمظهرهم الرائع وهم يلبسون البدلات البيضاء الصيفية والقبعات الحمراء المنبسطة، بكامل آلاتهم وحمالات النوتة الموسيقية، وشارات الفرقة المطرزة (X.R.H.). وابتدأ المدعوون[2] يفدون حول السادسة مساء، وقد نظمنا مداخل الحفل بصورة فخمة قدر المستطاع، فعند دخول السيارات، كان يقابل المدعوين على البوابة الخارجية حرس شرف من البوليس الأردني (يلبسون الكاكي الصيفي وعلى رؤوسهم الخوذات ذات الحربة والقبات الرفرافة، على الطريقة الفرنسية الجميلة). وكان يستقبل المدعوين على البوابة الكبيرة السكرتير الثالث الذي كان يدلهم على المدخل عبر الساحة الامامية، حيث أقمنا طاولة كبيرة للرجال كي يضعوا عليها طرابيشهم، ثم يدلفون من الباب الامامي، وعندما كانوا يصلون الى القاعة الكبرى تحت القبة كان مساعد الملحق العسكري الجوي يستقبل الضيوف ببزته الرسمية، وكان ما يبهر النظر عند زاوية المدخل إناء فخم من زهور«الكلاديولا» التي جاءت بها سيارة خاصة من القدس، والتي نسقتها ناتاشا بشكل جميل رشيق، يجذب الابصار. ثم كانوا يعبرون الى الساحة الداخلية والتي كنا طليناها باللون الازرق الفاتح لكي يتماشى مع لون الورد الاصفر وحشائش(اللمباجو) التي بدأت تزهر الآن. كان كل شيء حتى تلك اللحظة يبدو هادئاً وغريباً - وهنا يفاجأ الضيوف، حيث يهبطون عدة درجات ليصلوا الى فسحة مغطاة بالحشائش الكثيفة

---

(١) Pate دهن مصنوع من بيض السمك.

(٢) دعيت الى هذا الحفل ودعي كذلك صديقي المرحوم أحمد خليل وكانت حفلة موفقة بعد ذلك العداء الواضح ضد البريطانيين، الذين ظهر بوضوح بعد ذلك بأنهم يريدون الخير للأردن والمليك الأردن.

المخملية. وتتلألا الانوار اللامعة على الاشجار وتختلط أصوات الضيوف بعضها ببعض ويرتفع صوت الفرقة الموسيقية تعزف لحن«نزل الحصان الابيض» وتظهر خلفها صورة كبيرة للملكة سلطت عليها الأنوار الكاشفة، وعند قاع الدرج وقفنا (ناتاشا وانا) حيث كنا نشاهد الضيوف يتقدمون الينا، قبل ان يشاهدونا، وكان يقف خلفي موظف محلي يهمس في أذني أسماء الضيوف وذلك لكي نتمكن من مفاجاتهم باسمائهم حيث نقول مثلا«كيف حالك يا باشا» أو«أهلا وسهلا شكري بك[1]»!...



يبدأ الظلام هنا تقريبا حول السابعة مساء، وما أن تقترب عقارب الساعة نحو الثامنة حتى يبدأ بزوغ القمر الذي كان هذا المساء أكبر بيوم واحد من منتصف الشهر، يرتفع تدريجياً من خلف الجامع فوق الجبل المقابل. وكانت الحفلة جيدة، وبالتاكيد فإنها تركت تاثيرها الحسن، كآخر حفلة لعيد ميلاد الملكة، تحل أثناء حكم النظام القديم في الأردن، إذ عندما يحل العام القادم سوف لا يكون هناك فرقة الهوزار الموسيقية، وسوف نصبح كاية سفارة عادية من السفارات الاخرى!..

(١) يقصد المؤلف المرحوم «حيدر شكري» مؤسس ومدير عام بنك القاهرة عمان، بعد ان كان مديراً للبنك العثماني السابق

وكانت أعظم فائدة جناها الاردن نتيجة لازمة النابلسي هي أنه حفز الأمريكيين في عقر دارهم على تحمل المسؤوليات في تلك المنطقة، حيث أنهم ونحن معهم، أصبحنا سوية الآن، فقد أدركنا انّ مصالحنا ومصالح الاردن الحقيقية تتفق تماماً، وقد تمثل هذا الادراك، بصورة مقبولة لدى الاردنيين، بهدية مقدارها ثلاثين مليون دولار من الحكومة الامريكية كمعونة عسكرية واقتصادية.

وفي الوقت نفسه قبلت الحكومة البيريطانية أن تؤجل لمدة شهر واحد الدفعة التي تزيد قليلاً على (٧٠٠،٠٠٠) جنيه استرليني، والتي كانت الحكومة الاردنية مدينة لنا بها يستحق دفعها بتاريخ (١ مايو) بموجب اتفاقية المعاهدة. وقد رجاني رئيس الوزراء الجديد أن اطلب من الحكومة البيريطانية الغاء هذا المبلغ نهائياً، فاجبته بانه على العكس من الضروري أن يدفع المبلغ من اجل تدعيم علاقاتنا المستقبلية، بدون تاخير لابعد من (١ مايو). وبالفعل فقد تم دفع المبلغ في حينه، مما بعث الثقة مجدداً بين الحكومة الأردنية وبين السلطة البيريطانية الحاكمة آنذاك.

وفي تلك الاثناء كانت عملية انسحاب القوات البيريطانية والمستودعات العسكرية من الأردن تسير بسرعة تامة. وفي شهر يوليو كانت العقبة تستعد للانسحاب، وتوجهت إليها لاودع اصدقائي من فرقة الهوزار العاشرة. وفي أوقات العسرة الوطنية، يكون دائماً مستحباً بل ومستملحاً أن يتناول الانسان طعام العشاء مع فرقة الفرسان البيريطانية، وكانت هذه الفرقة العاشرة تضم مجموعة ظريفة وموثوقاً بها. وقد نظموا «ميس» مريحاً على شاطىء العقبة الصحراوي زينوه بالالوان الفضية اللامعة، وبصف طويل من كؤوس الكادار، التي كسبها بعض جنود الفرقة جوائز لصيد الخنازير البرية بالحربات في الهند. وكانت الفرقة الموسيقية تجلس خلف ستارة تعزف لحن «كلا .. كلا.. يا نانيت». وبعد العشاء لعبنا الروليت. وكان الضباط كذلك فخورين جداً باسلحتهم، وبالقبو الذي انشأوه هناك، وقد قال لي احدهم «لدينا التشكيلة الوحيدة التي تنتصر دائماً في المعركة، خصوصاً موقعة «هايدسيك» ١٩٥٣ على الأرض اليابسة الآسيوية» (وهو يعني بذلك صف زجاجات الشمبانيا المسماة

وقاموا في الصباح الباكر من اليوم التالي بلعبة البولو على الشاطىء بمحاذاة المياه المرجانية الصافية في الخليج. وكانوا يركبون أحصنة صغيرة كانوا قد اشتروها بخمسين دينار للحصان الواحد من خيول السباق في بغداد. وكانت هذه الاحصنة تعدو جيداً على الشاطىء، ولكن في بعض الأحيان وعندما تدار رؤوسها نحو الشرق (الى بغداد) كانت تندفع بسرعة عجيبة نحو تلك الجهة حتى يصعب كبح جماحها!..

اما أصعب مشكلة في عملية الانسحاب كلها فقد كانت في كيفية شحن أحصنة البولو هذه، عائدةً الى انجلترا، وكانت هناك باخرة جاهزة لشحنها، مع مستودعات اخرى ولكن المشكلة كانت «هل يمكن من الناحية السياسية أن تسافر الباخرة عبر قناة السويس؟ وإذا امتنع ذلك، كان على الباخرة أن تبحر عبر رأس الرجاء الصالح (Cape Town) وبذا تموت الأحصنة من دوار البحر، ولكن لحسن الحظ سار كل شيء بصورة حسنة وعبرت بها الباخرة قناة السويس الى الوطن بسلام!..

والآن وبعد أن تم الانسحاب أصبح ممكناً أن نمنح أنفسنا (زوجتي وأنا) اجازة للوطن، حيث وجدنا هناك جواً مختلفاً تماماً فيما يختص بالأردن، فقد كان الوزراء والموظفون، بدل اشمئزازهم وتشاؤمهم، كما كانوا خلال معاهدة بغداد، ثم فترة جلوب باشا، كانو يعتبرون الأردن الآن وكأنه هواية مسلية لهم. وقد شعرت بنوع من الفخار لمبلغ الاهتمام الذي يظهر انهم أولوه لبرقياتي ومراسلاتي - وهذا الاهتمام لا يتناسب حقاً مع حجم الأردن الصغير، واتساع المشاكل الأخرى في العالم، والتي تحتاج الى اهتمام كبير!.. وكنت أجدهم بعض الأحيان يفسرون لي بعض النقاط عن الأردن!.. ويحذرونني من عدم وقوعي في شرك بعض السياسيين أولئك الذين كنت في السابق، وليس منذ وقت طويل، قدمت لهم تقارير مفصلة عن أساليب خداعهم!..[1]

(١) مع العلم أن المؤلف (السير جونستون) سبقهم في تقديم تفاصيل «مفصلة» عن هؤلاء السياسيين وأساليبهم في الحكم.



الفصل الثاني عشر

الروتين الجديد

عند عودتنا الى عمان بعد انقضاء اجازتنا، وجدنا الوضع مجمداً وقد اتخذ مظهراً أكثر استقرارا.

رسالة إلى الوطن ٢٤ اغسطس ١٩٥٧

ها قد مضى على عودتنا الآن ثلاثة اسابيع، وبدأنا نشعر أننا شفينا من الاجازة، وكانت عمان بالفعل أكثر هدوءاً من لندن، وقد مرت موجة من الحر تركت بستاننا جافاً تقريباً، ولكن ما زال لدينا الكثير من الزئبق البري(زينيا) ولو ان مظهره كان هزيلاً وجافاً، إلا انه ما زال يعطي بعض الالوان، أما الخضار والفواكه في منطقة البستان الجديدة، التي رويناها من ماء بركة الباحة، فقد بدأت تنمو بصورة ملحوظة، وفي كل صباح عندما كنت أتناول طعام الإفطار على المرجة الخضراء في البستان، كان البستاني يعرض بعض من محصولات الموسم على مائدة محاذية، مثلا بعض حزم من أكواز القمح الخضراء، الكوسا الصغيرة، الباذنجان الاسود اللامع، الطماطم، قطوف العنب الصغير الحلو، ومرات عديدة، بطيخة كبيرة. وكنا نعيش على ما ناكل من أكواز القمح المحمص التي كان يحضرها «مو» بطريقة تجعل الحبوب ناشفة (ومقرمشة) وكأنها الجوز المحمص ولكن بالحجم الصغير، وبالباذنجان المحشو والفلفل الأخضر المحشو كذلك، وعصير البندورة الطازجة المثلجة، وشوربة الطماطم الباردة اللذيذة، والتي تُحضّر باللبن الزبادي بدل الكريما.

وحل طير الهدهد في بستاننا، وقد رايت ثمانية منها تنقر الحشائش بشراسة بالقرب مني، وكانت « بقنزعاتها » وخطوطها اللامعة تظهر كانها مرتدية البستها الرائعة كلها، بطريقها إلى إحدى حفلات الكوكتيل في بيروت، ولم تحضر إلى عمان إلاّ بطريق الخطا!..

وبالحقيقة اصبحت الحياة الاجتماعية بعمان تتطور بطريقة ممتعة، وقد كانت الاصول الاساسية المتبعة في الضيافة هي المائدة البدوية كما وصفها لورنس (المنسف)[1]، الجلوس على الأرض، الاكل بالاصبع وشرب الماء، وتوجيه راس وعيني الذبيحة نحو ضيف الشرف (المنسف العربي) وقد تطورت هذه العادة إلى عشاء (بوفيه)، والسكين، ثم تشرب بعدها الويسكي بالصودا!.. ومنذ ليلتين اكتشفنا تقدماً آخر، نحو هذا التطور الاجتماعي، وكان هناك تاجر مسيحي عربي[2] قال بانه يرغب ان يقيم على شرفنا حفل عشاء، لانني كما قال « فعلت الكثير من اجل هذا البلد » (وهي مجاملة شرقية معروفة ولكن كما قال « اديلاي استيفنسون » إن المجاملة شيء سار ما دمت لا تبتلعها) .. وقد حددنا مساء الجمعة، حيث ذهبنا إلى قصره الجديد «جداً» الواقع في صف أصحاب الملايين المحليين، كما كنا ندعوه « الميل المرمري» .. وقد خطفت ناتاشا بخفة، لكي تجلس مع زمرة من السيدات العربيات البدينات الصامتات، بينما وجدت نفسي أجلس حول مائدة مستديرة على الشرفة في حلقة تضم دزينة من الرجال يُسيّرون الأُردن تحت ظل الملك. كان هناك سمير باشا بشعره الاشيب ونظارته ذات البراويز المدببة، ووجهه العنيد المرح: وبهجت بيك سكرتير الملك الخاص والرجل الاشيب وصاحب التاثير الكبير في كثير من امور الدولة، ثم فلاح باشا الحاكم العسكري العام، الرجل المسن الضخم الجثة، بحطته وعقاله، وبعصاته الصغيرة التي لا تفارق يديه ثم هزّاع باشا، رئيس الحكومة السابق الذي قام بمحاولة شجاعة لإدخال الاردن في حلف بغداد منذ سنتين تقريبا، وابن عمه حابس باشا الميجر جنرال والقائد العام، رجل انيق، اقرب إلى الصلع، وكانه ضابط سواري إسباني، ويجلس إلى جانبه العقل المدبر الاصلي في الجيش البريجادير

---

(١) المنسف : هي الأكلة البدوية اللذيذة المطبوخة بالرز واللحم واللبن وتعتبر هذه الاكلة اللذيذة الوجبة القومية في الأردن والتي لا تخلو «عزومة» منها.

(٢) هو المرحوم توفيق باشا قطان وقد كان قصره قد بني حديثاً وقتذاك وعلى صف السفارة الروسية ووزارة الخارجية وهو اليوم بناء عادي قديم. دعيت إلى نفس الحفلة ودُعي اليها صديقي المرحوم الاستاذ أحمد الخليل ايضاً.

صادق بك، وهو رجل صغير الحجم ، وكأنه ضابط بريطاني، وكان لا يزيد على الاربعة وثلاثين عاما، وكان معظمهم من رجال المدرسة الأُردنية القديمة، ومن المحافظين ومن الملكيين المتطرفين، وكلهم من صميم المؤسسة الأُردنية الحالية، وكانوا يشربون الويسكي ويتحدثون عن كيفية تقليص عدد البنادق في الايدي المدنية، وهي مشكلة هامة في هذا الظرف، لأن سوريا الشيوعية آنذاك مهتمة إلى ابعد مدى بتنظيم الارهاب في الاردن. ويظهر ان منطقة معان والطفيلة تغص بالاسلحة التشيكية الاتوماتيكية، والتي خلّفها الجيش المصري في حملة غزة، ثم جرى بعد ذلك تهريبها للبلاد بواسطة البدو. وكانت السهرة لطيفة ومريحة تختلف تماماً عن الحفلات التي كانت تغص بالشك وعدم الارتياح، والتي كان النابلسي والجنرال ابو نوار يدعوانني اليها.

بعد ساعة، وبعد تناول قدحين من الويسكي وعدة صحون من اللوز، دخلنا إلى العشاء فوجدنا - بدلا من البوفيه العادي الزاخر - مائدة طويلة وفوطا وبطاقات الجلوس - وكانت بالحقيقة حفلة عشاء غربية ديبلوماسية، ولعلها الوحيدة المقامة في بيت أردني، ثم ماذا، نبيذ أبيض، نبيذ احمر، شامبانيا، مآكل شهية ومفروشات غير شهية، وكان ممكناً تقريباً ان نحسب انفسنا في سفارة ما، باوروبا الغربية؟..

وعلى كل حال كانت حفلة مريحة أكثر من البوفيه، وقد كانت بالفعل حفلة مؤثرة ودليلا واضحا نحو الصداقة معنا. وقد انفضت الحفلة بعد العشاء مباشرة - وهي عادة شرقية متمدينة محببة، كنت آمل ان لا تضيع في خضم التعقيدات التي تتسرب ببطء إلى المدينة الحاضرة!..

وصادق الشرع الذي ذكرناه آنفاً هنا، سوف يلعب دوراً هاماً فيما بعد في هذه القصه[1].

والاجراءات الامنية التي اتخذتها الحكومة في نيسان قد بدأت تخف تدريجياً وعادت المدارس تفتح ابوابها ثانية، واستعملت المحاكم العسكرية صلاحيتها باعتدال؛ فمن ضمن

(١) انظر الصفحة ٢٠٤

الستين رجلاً الذين قدموا للمحاكمة، حكم على اثنين منهما بمدد طويلة بالسجن، أما الباقون فقد حكم عليهم اما بسنتين أو ثلاث سنوات وبالسجن أو بالتبرئة النهائية. أما معظم مدبري مؤامرة نيسان فقد هربوا من البلاد بما فيهم أبو نوار، الذي ذهب ليعيش في القاهرة، يذيع من محطة صوت العرب. اما الريماوي فقد ذهب إلى دمشق ليعمل في شؤون حزب البعث هناك. ولم يبق من رؤوس المؤامرة في عمان غير النابلسي، الذي لم يحاكم ابداً ولكنه فرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله وبقي هناك عدة سنوات. وهناك نكته دار الحديث بها بين الناس وهي ان سليمان باشا كان يقول « سامح الله الملك، ويا ليته اكتشف.اني بهذه الإقامة الجبرية كنت مسجوناً مع زوجتي أم العيال وهو سجن فظيع لا يطاق ولو عرف الملك لعفى عني وخلصت من مناقشات ام العيال » ولما سمع جلالته بهذه النكتة ضحك ثم سمح للباشا النابلسي بالخروج إلى المدينة.

اما الجنود الذين كانوا يملأون الشوارع في اوج الأزمة فقد غادروا منذ زمن طويل، وتركوا خلفهم سيارتين مصفحتين فقط ترابطان على بوابة «حوش القصر» تذكرةً لتلك الأيام العصيبة، وكان يمكن للجو المسالم الجديد أن يكون مستحيلاً لو لم تكن الحكومة تتمتع بكثير من دعم الراي العام. وكانت الطبقة العليا والمتوسطة، وخصوصاً رجال الأعمال وأصحاب الحوانيت، وكل أولئك الذين يعتمدون على التجارة السياحية، جميعهم يعبرون بصوت عال عن ارتياحهم، وكثير منهم لم يكونوا يخفون امتنانهم بعودة العلاقات الطيبة مع الغرب. وكان هناك أيضا ارتياح شديد عام لتمكين الناس الالتفات لأعمالهم وأمور معيشتهم، بدون تشتيت الاذهان في اجواء السياسة ! ..

وكان من المهم جداً ايضاً أن لا يكون للناس اية شكوك حول سياسة الحكم الجديد في الاردن ،فقد مرت المؤسسات الديمقراطية بفترات محن قاسية منذ الخمسة اشهر الشاذة خلال فترة حكومة النابلسي ، والتي كان من نتيجتها امكان ان تجلب للاردن حرباً اهلية ،ولم تبعد الاردن شعرة واحدة عن فقدانه استقلاله ،مع جميع الاحتمالات الدولية التي كان يمكن أن تتبع ذلك وكان من المؤسف جدا ان تكون البلاد التي نشات تحت رعاية بريطانيا ،وبنيت منذ وقت ليس بالقليل والتي تتبع تقاليدنا، أن تُجبر الان

للبحث عن خلاصها، بأن تحتمي بالنوع الخاص من الخضوع للسلطة الابوية وهي التي استنّها الملك عبد الله قبل خمسة وثلاثين عاما، اذ كانت هي الطريقة الموافقة والمناسبة المحدودة للحكم في إمارته الصحراوية المحددة. ومع كل ذلك عندما ناخذ الحقائق بعين الاعتبار، وننظر إلى العرب كما نراهم، نكتشف ان مصالحنا تؤمن بصورة افضل بواسطة وسيلة للحكم كهذه، حيث تتمكن من تامين الاستقرار والعلاقات مع الغرب، افضل من وسيلة الحكم الديمقراطي غير المجدي، والذي يندفع نحو الهاوية، الى حيث الشيوعية والفوضى، وكان هنالك ايضا. كما تصورت، شيء يستحق الذكر في مصلحة الحكم السليم الحازم، الموجود حاليا في الاردن، اذا ما قارناه بالانتخابات غير الصحيحة في مصر.

ففي شهر اغسطس اصاب الاردن خبر مفاجيء آخر، وهو انه حدث انقلاب عسكري في سوريا جاء بحكم موال للشيوعية تحت قيادة الجنرال عفيف البزري، حيث بدأت رياح الحرب الباردة تعصف بشدة في منطقة الشرق الادنى، وهنا بدأت المساعدات الامريكية تتدفق على الاردن، وكانت علاقات الاردن مع جاراتها الشمالية متردية منذ وقت طويل!. وفي نيسان حاولت فرق الجيش السوري في شمال الاردن جهدها لمساعدة المؤامرة العسكرية ضد الملك حسين. وبعد ان ضمن الملك النصر على المؤامرة وتثبت منه، قابل المحاولة الفاشلة بالمثل فامر القوات السورية بالخروج من البلاد. وقد وقّت الملك بمهارة فائقة لهذا الاجراء وهو التخلص من السوريين، قبل انسحاب سلاح الجو الملكي البريطاني من المفرق، الذي خلّف فراغاً عسكريا في تلك المنطقة، جاءت بعد ذلك فترة من تبادل الدعاية العدائية كانت فيها سوريا المهاجمة واقتصر دور الاردن على رد الهجوم فقط. وهنا يظهر الفرق الكبير بين الحكم السوري السابق المتطرف وبين الحكم السوري الحالي المستقر بقيادة الرجل الحكيم السياسي المحنك الزعيم السوري المحبوب حافظ الاسد والذي يعتبر من اصدقاء الملك حسين.

وبعد الانقلاب العسكري في شهر اغسطس بدمشق بدأت العلاقات بين البلدين تتدهور بسرعة، وزادت حدة الحملات الدعائية من الجانبين، وبدأ المكتب الثاني

السوري[1] بتنظيم عمليات التخريب والتدمير في الاردن بمساعدة بعض المهاجرين الاردنيين في دمشق.

ولفترة ما، كانت التصريحات الاميريكية المشددة حول التهديد الشيوعي من دمشق، قد جعلت حتى الاردن يشعر انه من الفطنة أن يتبع إخوته العرب في إظهار الشعور التضامني مع سوريا!... ولحسن الحظ، استعيد حالاً ذلك الموقف من خلال اخطاء كبرى ارتكبها الفريق الآخر؛ وبصراحة: كان هو ادعاء روسيا المفضوح حول التهديد التركي السوري!..

ومن مراقبة الدول الكبرى لهذه العملية، ظهر لي في ذلك الوقت أن الحرب الباردة بين امريكا وروسيا كانت تشبه لعبة تنس سيئة على الحشائش في الخلاء إذ ان النقاط الوحيدة التي تحسب هي التي فقط تنتج عن الاخطاء المزدوجة التي يخسرها اللاعب المقابل..وبهذه العملية، وبعد وقوع الاخطاء الأولى، كان الغرب حكيماً في أنه سمح للروس بالبدء باللعب؟؟..

وإلى الآن كان مرور الزمن قد بدّل تماما علاقات الاردن الخارجية. ومع انسحاب القوات البريطانية على اثر انتهاء المعاهدة، وبعد ابتداء المساعدة الامريكية الكبيرة الواسعة كانت بريطانيا والولايات المتحدة قد تبادلتا الوضع فيما يتعلق بعلاقتهما مع الاردن تقريباً، فقد كانت الولايات المتحدة هي التي تتحمل عبء المسؤولية لمساعدة هذه البلاد غير النامية، والتي عرضت نفسها مباشرة وبقوة إلى كفر العرب بها ونكران جميلها، فلقد ارتكب الامريكيون بعض الاخطاء بأنهم بالغوا في نشر الدعاية عن مساعدتهم، وخصوصاً عندما وصلت منهم اول شحنة سلاح إلى مطار الاردن، فسبّب لهم سمعةً أسوأ بكثير مما كانوا في العادة يتمتعون به كمحسنين للأردن. ويضاف إلى ذلك عامل آخر خاص من عوامل النفور، ذلك انه كان من غير المستطاع سياسياً لاية حكومة أردنية في ذلك الوقت

(١) (الدوزيم بيرد) اي المخابرات السورية بقيادة (عبد الحميد السراج)

ان تلزم نفسها بعقد مثل تلك الاتفاقيات مع الحكومة الاميريكية، تلك الحكومة التي لم يكن امامها من الناحية الدستورية ان تمنح المعونة للاردن على اساس المدى الطويل. ولذلك كانت الترتيبات « من اليد للفم» هي التي كانت قائمة بالفعل، بمعنى تقديم المساعدة الى الاردن للسنة الجارية فقط، فاورثت هذه النتيجة الحتمية، عامل التردد في ذلك الموقف، الأمر الذي حال دون تفكير الحكومة الاردنية في تخطيط اي مشروع للمستقبل، وقد بدت هذه الصورة من الاستياء العام واضحة المعالم بسبب إنهاء المعاهدة البريطانية فلقد كان صدى هذا الاستياء يسمع دائماً (ليس من قبل أناس بريطانيين، بل كانت تتداول في الاحاديث الخاصة بين الناس في عمان!...).

ومنذ انهاء المعاهدة في شهر مارس(آذار) بدا واضحاً بالفعل ان بريطانيا اصبحت مشهورة ومحببة أكثر من أيّ وقت مضى في الاردن. وقد ساد الجو شعور بشهر العسل الثاني، غير العادي، والذي جاء مباشرة بعد طلاق الطرفين. ولم يكن هذا يعني اننا كسبنا انصاراً بين العناصر المتطرفة من اليمين او اليسار • (الإخوان المسلمون والبعثيون، والشيوعيون) الذين كانوا دائماً يقاومون بريطانيا. ومع ذلك ارتفعت اسهمنا بين البقية الباقية في البلاد، بما فيهم اولئك الذين يدعون باصحاب الاصوات العائمة، بينما سقطت اسهم الامريكيين. اما وجهة النظر الرقيقة عن الجنرال جلوب بعد طرده كانت تلاحظ وتقدر بصورة واسعة في الاردن. ولقد مست مرفقاً حساساً في الطبيعة العربية وهي التي كان بعضها عاطفياً وبعضها الآخر على ما أعتقد شيئاً أكثر إعجاباً ؛ وقد فجرت الرغبة للتسابق في ساحة الكرم والتي كانت اجمل ما يتميز بها العرب. ثم تداولت أخبار طيبة في ان الملك حسين قام مؤخراً بتسوية التعويضات المستحقة للجنرال جلوب، والتي كانت رفضتها الحكومة الاردنية، لكن الملك قام بتقديمها هدية مناسبة من جيبه الخاص[1].

وبالتالي في الاشهر الاخيرة، وقعت نفس الإجراءات، ولكن بصورة أوسع. حول

(١) يقال بأن جلالة الحسين عندما سمع بالضائقة المالية التي عاشها جلوب باشا في لندن عندما رفضت بريطانيا دفع تقاعده بحجة أن جلوب كان موظفاً في الحكومة الأردنية، هرع الحسين بشهامته العربية الأصيلة وزار جلوب في منزله وخصص له راتباً تقاعدياً مميزاً مما جلب انتباه العالم نحو الحسين لشهامته العربية الأصيلة.

العلاقات بين الاردن والملكة المتحدة(بريطانيا). وكان بعض الاردنيين الاذكياء ومن ذوي الميل لبريطانيا قد اشتبهوا بان بريطانيا في قبول انهاء المعاهدة البريطانية إنما هي قد استفادت من أخطاء الاردن لكي تتخلص من التزام غالي الثمن وعديم الفائدة.

اما بعض الأردنيين الآخرين فقد احسّو بأسف غير عاطفي، بل وواقعي في كيفية «اغتيال بابا نويل ، وسانتاكلوز» بهذه الطريقة البليدة الخاصة. ولكن هناك ايضا آخرون شعروا بتأنيب الضمير للطريقة التي عامل بها الاردن حليفته بريطانيا، وقد أعجبوا بالروح الكبيرة المتفهمة، التي عالج بها البريطانيون تسوية مسالة المعاهدة، وتلك الشهامة التي ابدتها القوات البريطانية عند انسحابها من البلاد، وفوق هذا كله، كرم الحكومة البريطانية بالاستمرار بدفع المعونة الاقتصادية للأردن على اساس الالتزام الادبي والذي كان بامكاننا جيدا اعتباره لاغياً نظراً لسير الاحداث وقتئذاك.

وعندما قال لي رئيس الوزراء الأردني الجديد بأن استمرارنا بدفع هذه المبالغ اظهر «نبل اخلاقنا» لم يكن قوله في هذه المرة نوعاً من اللطف الشرقي المحتوم!..

وبالفعل اظهر الملك حسين وحكومته دلالات على رغبتهم في الحفاظ على العلاقات البريطانية كي تبقى حية بكل معنى الكلمة. وكان الضباط الاردنيون وصفّ الضباط أيضاً يستمرون في زياراتهم لبريطانيا بأعداد كبيرة لحضور الدورات. واستمرت ايضاً المشتريات من بريطانيا للأجهزة العسكرية، وكذلك اتسعت امكانيات التعامل التجاري البريطاني في الاردن، فلقد تعود الاردنيون التعامل مع بريطانيا ووجدوا باننا ما زلنا نفهمهم أحسن من أي انسان آخر خارج العالم العربي.

وبالاضافة إلى ذلك فقد كنا نستفيد مما يسمى «بالتصرف العاطفي المتوازن» من قبل الملك وحكومته، ذلك التصرف الذي وضع لإثبات نظرية تقول بان بلادهم ليست خاضعة للسيطرة الامريكية، وكان هذا حقيقة صادقة، وتنطبق بصورة خاصة على سمير الرفاعي الذي كان يعتبر بوضوح بأنه صديق متعامل مع الامريكيين، ولكنه كان يسعى إلى ابعد مدى في تكذيب هذه التهمة بشكل حازم وذلك باظهار نفسه متعاوناً معنا ومجاملاً لنا بصورة اكيدة، خصوصاً بالصور التي تمثل سمير باشا ممسكاً بيد السفير

البريطاني دلالة على الصداقة التي تربط الشعبين العربي الاردني والبريطاني.

والواقع أن الحرب الباردة قد خلّصت الاردن من اشرافه على حافة الإفلاس فقد جاء «الممول الاميريكي» من لا شيء ليحل محل البريطاني الذي قد ودع الاردن الان،اما العربي، الذي خف رصيده فقد كان منذ عام مضى يأخذ المال البريطاني والنصيحة المصرية، واصبح اليوم يأخذ المال الميريكي، بينما توفر لديه الميل للأخذ بنصيحة الانجليز مرة اخرى.

وكانت هناك ناحية غريبة في العلاقات البريطانية الأردنية، وهي كيف نُسيت بسرعة مشكلة السويس، حتى انه في ذلك الوقت أحسست أن تاثيرات تلك الخيبة في الأوساط الحاكمة في الاردن تشوبها تلك المشاكسة التي توصف بها بقية البلدان في العالم العربي، فقد كانت بريطانيا على الاغلب فيما مضى تشبه المربية العربية المشاكسة في بيت الطفولة العربي، لكن مشكلة السويس اثبتت ان هذه المربية هي أيضاً من البشر وأن باستطاعتها ان ترتكب اسوأ أنواع الحماقات! ... وكان لديَّ شعور غريب في انه حتى اولئك المتضامنين مع مصر كان يتوفر فيهم بعض التعاطف الخفي معنا، وانهم مهما علت اصواتهم بالاحتجاج ضدنا الا ان هذه الاصوات لم تكن صادرة عن القلب بصورة فعلية. اما فيما يتعلق باسلوب الحكم الحاضر فقد كانت علاقاتهم مع ناصر، بعد حادثة اكتشاف النشاط الهدّام الذي كان يقوم به الملحق العسكري المصري والذي تم طرده من الاردن، ثم ما تبعه من سحب السفير الاردني من القاهرة حسب طلب من مصر، فقد ساءت إلى حد بعيد لدرجة انه ربما خطرت في نفوسهم سراً عوامل الأسف على عدم استمرارنا إلى النهاية في عملية السويس!..

وهذه التطورات التي اخذت بناصية السياسة الأردنية أصبحت ممكنة فقط لأن البعبع الاسرائيلي اخذ يتقلص في الوقت الحاضر. وأن الهدوء الذي ساد الحدود الاردنية الاسرائيلية كان فيه الفائدة غير المنتظرة، والناتجة عن قضية السويس، وأن التوتر الذي ساد المنطقة خلال ١٩٥٦ كان مرده الرئيسي هو خوف اسرائيل من محاولة التطويق، ومنذ حملة السويس تبدلت هذه المخاوف فاصبحت الشعور بالاطمئنان من جانب اسرائيل،

بينما ضاعف الاردن مجهوداته تحسباً من وقوع اية حوادث.

وفي ضوء هذا الوضع العام ظهر لي أن من مصلحة بريطانيا أن تقوم بمساعدة الحكم الاردني الحالي على الاستمرارية. وبمثل هذه الافكار التي أبديتها للحكومة في لندن اكدت على كلمة «مصلحة» بطريقة تناقض عامل «الرومنطيقية»، والذي يمكن ملاحظته في سجل التعامل البريطاني مع الاردن ، فقد كان الخيط الذي لم يقطع ويعود عهده الى الوراء من عهد«جلوب» الى «بيك» الى «كيركبرايد» الى «لورنس» ومغامرات الثورة العربية البريطانية الرائعة، الى الشخصية البهية النفاذة للملك عبد الله، الى قوة حدود شرق الاردن «بقلابقهم» الطويلة القفقازية ، الى الشراشيب والخناجر المزركشة التي ترتديها فرقة الهجانة التابعة للجيش العربي، الى المواقع «الدرامية» ذات الأبراج المستديرة التابعة للبوليس، الى التقاليد القديمة للمقيم البريطاني، والسيارات المصفحة لسلاح الجو الملكي؛ كل هذا بنى صورة خيالية لبلاد ما زالت لبريطانيا فيها «مهمة رومنطيقية»، ولعلنا لا نسيء التعبير إذا قلنا انها مهمة يجب إتمامها، وهذه الصورة الزيتية والتي لم تكن بالحقيقة تحتوي على اي لون من لورنس بقدر ما احتوت مسحة من (كيبلنج)[١] ودفعة من (بوخان)[٢] واكثر من لمحة من «المظاهر الانسانية اللطيفة» !.. (Beau Geste) لكن هذه الصورة قد أذيبت بخشونة في العام الماضي بطرد الجنرال جلوب. ومنذ ذلك الحين اهتزت النظارة الملونة اهتزازاً واضحاً وظهرت فيها عوامل متباينة من أحلام وصور جديدة وحديثة تتمشى مع العصر الحاضر.

ملك شجاع وشاب، والملكة الأم الرائعة، ورئيس الحكومة شيخ هش ابوي، وبريطاني النزعة، ويسنده رجل قوي العزيمة، وهو مدبر سياسي حاذق ذو شخصية تشبه شخصية«ليتون ستراتشي»[٣] ويلازمهم أعوان من رجال الدين المسلمين الحاذقين، ومشاة من البدو السمر بخوذاتهم الفولاذية، وعلى كل حال كانت هذه الهيئة مجموعة

---

(١) Kipling ,Rudyarg : كاتب وشاعر انجليزي يضرب المثل بشعره الممتلىء حكماً وأقوالاً فلسفية.

(٢) John Buchan : كاتب استكلندي ورجل دولة فذ.

(٣) (ليتون ستراشي) : كاتب انجليزي ومؤرخ معروف.

غير عادية، فقد كانت اشبه ما يكون بانتقال من «ب.س.ر ن»[1] إلى «انتوني هوب»[2] ومن «فورت زندرنوف» إلى ما يشبه الطقوس الشرقية البراقة!..

ولكنني حذرت بأنه لا يجوز لأي انسان ان تعميه نعومة الحكم الحالي عن الحقيقة في تكوينه القوي الفعّال، واعتماده الكامل على دعم الجيش، الذي حمل شبهاً قليلاً من تلك القوات الوطنية العربية، التي سوف، لا بل ويجب بكل تأكيد ان نضع نصب اعيننا ان نتعامل معها في منطقة الشرق الاوسط.

ان وزراء حكومة «هاشم-الرفاعي» بالرغم من مظهرهم اللطيف الموالي للغرب لم يكونوا ملائكة بل كانوا جماعة عاديين من السياسيين العرب، وكانت الفضيلة فيهم انهم على الاقل يعرفون وجهتهم وانهم على الاغلب رجال حزم وإرادة، وكانوا كلهم تقريباً ذوي اعصاب قوية، فلم يحفلوا بالمخاطر الملازمة لمراكزهم بما في ذلك الخطر الحقيقي على حياتهم، وكان الضعف الخطير في حكمهم ناجماً عن شيء آخر لا ذنب لأعضاء الحكومة فيه، ولكنه كان يكمن في صغر حجم البلاد وفي تخلفها الحضاري، وفي النقص المؤلم في عدد القادة القديرين، الامر الذي وضع (العبء) الثقيل على اولئك الذين كان عليهم ان يتحملوا معظم العبء مثل سمير الرفاعي.

ولكن الحمل الاثقل كان يقع على عاتق الملك حسين نفسه، ذلك لان الملك كان هو سيد البلاد الفعلي في هذا الحكم. فبالإضافة إلى القلق والتوتر اللذين لازماه منذ ان تسلم العرش، اصبح الآن يجابه لاول مرة ضخامة العمل الشاق المحض، الذي يكتنف تجربة السلطة. وكان التوتر شديد على صحته، لكنه كان يحب عمله، ويحب تحمل عبء ذلك العمل بنشاط. وبالإضافة إلى شجاعته وقدرته على القيادة، بدا وكانه يُنمي أيضاً غريزة ثابتة الخطى في الشؤون السياسة الداخلية.

وبعد ان هدات الاحوال وتحولت إلى روتين جديد، حدث أمران في حياتنا الخاصة. اولهما انه توافر لنا وقت اكثر للراحة، فباشرت دوراً للقراءة حول «سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب» .

---

(١) ب.س.ر ن : كاتب انجليزي وروائي معروف.

(٢) انتوني هوب : كاتب وروائي انجليزي معروف

رسالة إلى الوطن ١٥ أيلول سنة ١٩٥٧ .

تتلخص خطتي في هذا الدور في تحسس طريقي حول سنة (١٠٠) ميلادية تقريباً، وهي نهاية الامبراطورية القديمة، وكنت قرأت هذا الموضوع في «اكسفورد»، إلى نهاية الحرب الصليبية، وفي الوقت الحاضر وصلت إلى «أمانيوس مارسلينوس» الجندي المؤرخ في أواسط سنة (٣٠٠)م وقد قرأته في طبعة «ليوب» ولم أجد صعوبة في لغته اللاتينية، مع ما هي عليه من بعض «ركاكة»، وقد كانت بالاحرى شبيهة بلغة «الهوايت هول» الرسمية مقارنة باللغة الإنجليزية الصحيحة. «وامانيوس» هذا شخصية جذابة، تتجلى فيه الرومانية القديمة، وقد اعجبت كثيراً بابطاله الاباطرة مثل «جوليان» «فالنتيتيان» «ثيودوسي» الذين لا بد انهم ادركوا ان الامبراطورية بدأت بالانزلاق، ولكنهم حاولوا دعمها بشجاعة.

إن تحطيم الامبراطورية الرومانية الغربية هو كما وجدته، موضوع جذّاب تماماً وقريب جداً من طبيعة هذه الايام وكل ذلك كان مضحكاً ومسلياً..

وبعد ذلك بدأت اقرأ قصة دوستويفسكي« الابله» باللغة الروسية، وذلك لكي أحسن معرفتي بها، وعلى الاخص لان هذا يورثني مزاجاً هزلياً، لا يتوفر أبداً بعملية الترجمة. والكتاب جيد للقراءة في جزيرة صحراوية كهذه، ذلك ان قراءته لا بد أن تستغرقني ستة اشهر على الاقل لكي اتمه. واني اقرأ اثناء الليل مذكرات القديس «سيمون» حتى اخلد للنوم، وكنت افعل ذلك في طوكيو قبل الحرب وقد وصلت في القراءة إلى الآن إلى المجلد الثالث عشر من الواحد والعشرين وهو يشبه تقريباً مذكرات« المستر ديل» إذ تكون مملة جداً في بعض المواقع ولكن يصعب عليك تركها. وإنك لتشعر بانك تعرف الشخصيات في تلك المذكرات جيداً، ولذلك تتابع قراءتك حتى تعرف ماذا جرى لهم بعد ذلك. وبالنتيجة تظهر مذكرات لويس الرابع عشر في فرساي وتتمثل للخاطر كانها مركز اضافي يخدم الانسان بوظيفة سكرتير ثالث منذ زمن بعيد!..

وثانياً، بدأ الأصدقاء من لندن يزورروننا، وكانت لدي فكرة للإحتفاظ بمذكرات

لاعداد كتاب أدعوه«محادثات في عمان» حيث تكون الفكرة ليس اظهاراً لذكاء ناتاشا وذكائي أنا مع ضيوفي الانجليز، بقدر ما تكون ابداء أو نقل بعض النكهة اللذيذة حول «القلعة الحصينة على شفا بركان شرقي» وبالداخل « الثرثرة اللندنية الناعمة» والتقارير من دنيا المستر «تشيبس»[1] ! ..

وحلّت علينا ضيفة هي «ديانا كوبر» واحضرت معها ابنها «جون جوليوس نورتش» الذي كان في سفارتنا في بيروت مع زوجته آن. ولسوء الحظ جاءتني فكرة تدوين المذكرات بعد رحيل «ديانا» بفترة طويلة، حيث فات الآوان الآن لاذكر اي شيء عن مبالغاتها الرقيقة، إلا انني سألتها مرة أن تصف لي: «رجلاً سياسياً من حزب العمال كئيباً وصعصاعا» فأجابت على الفور «ذلك هو رجل كرس نفسه للملذات»! ..

وكانت ديانا تعمل في تحضير مجلدها الثالث من مذكراتها، وقد قرأت لنا رسائلها من سنغافورة. وقدرت بانها أحسن الرسائل عن امبراطورية تتهاوى : مثل «سيدونيوس أبوليناريس» عدا عن أن من كتبها كانت سيدة ذات عقلية قاسية، عزلاء خيالية، بدل أن يكون كاتبها رجلاً من الطراز القديم حول سنة(٤٠٠ق.م) تحجر عقله من فرط نعيم العيش ورغده!..

أما ديانا وفريقها جون جوليوس وآن فقد بهروا الملك حسين عندما حضر حفل عشاء لمقابلتهم. والملك الذي كانت انجلترا بالنسبة اليه تعني بعض المؤسسات المقبضة مثل كلية «هارو» و «ساندهيرست»، وشهر عسل رسمي في فندق كلاريدج، لم يحسب أن اناسا مثل ديانا وآن موجودتان؛ جمال انجليزي فتّان من جيلين مختلفين، كل واحدة منهما مسلية ولطيفة أكثر من الأخرى. وقد جلسنا بعد العشاء على الشرفة، وغنى لنا «جوليوس» على الجيتار بصوته الناعم بعض الأغاني الفرنسية الممتعة. (Tous le Cheuvaux du Roi) ثم اغنية ثنائية (ديويت) عاطفية مع آن (on Top of old smoky) . وكان كل شيء حولنا مؤثراً وكان الجو حساسا عاطفياً جميلاً، وبنتيجة السهرة اللطيفة، امر الملك بسيارة القصر أن تقل عائلة كوبر إلى البتراء والعودة

(١) المستر تشيبس وجيه بريطاني ثري ومعروف بكرم حفلاته ومعروف للعائلة المالكة ولبعض الشخصيات الاردنية.

في آخر الاسبوع. وكانت السيارة من نوع الكاديلاك الزرقاء اللامعة «تشبه لحن الأغنية» يسوقها شاويش في الجيش كان يعمل في السابق سائقاً لسيارة «الملكة دينا»، وقد كان سعيداً أن يعود للعمل مرة اخرى. وقام محافظ الكرك ومحافظ معان بمقابلة الضيوف على الطريق، وبالحقيقة كان استقبال الشخصيات الهامة، وكانوا أول بريطانيين جرت لهم مثل هذه الحفاوة منذ سقوط جلوب قبل سنتين.

وفي أثناء عطلة عيد الميلاد حلت علينا ضيفة هي «كاثلين ديور» وقد جلبت معها إلى دنيانا العربية الصغيرة المغلقة، أريجاً من البسة «ديور» وكثيراً من ثرثرة طبقة «سباق الخيل» وقد دعونا ابراهيم هاشم رئيس الوزراء كي يقابلها في حفلة غداء، ومع أن الباشا رجل كبير في السن[1] إلا أنه أرمل مشبوب العاطفة، وقد سحرته ضيفتنا؟.

وفي صباح اليوم التالي زارني زوج ابنته، وكان شديد النزعة الانجليزية، والرئيس الدائم لوزارة الخارجية الاردنية، وقد لمحت في عينيه لمعة رسمية غير عادية.

وبعد أن سحب نفساً من غليونه قال «لقد اعجب الوالد كثيراً بالسيدة مدام ديور. قل لي هل أنا صحيح في اعتقادي بأنها«ارملة»، فقلت نعم هي أرملة منذ بضع سنوات، ثم قال «هل هي» فعلاً ...؟ وقاطعته لأُخلصه من الحرج «نعم بالفعل هي كذلك»؟؟..

وهنا انسحب المبعوث بأدب كما جاء.

وقد أنذرنا «كاثلين» بأنها ربما لا تتمكن من مغادرة البلاد لأن رئيس الحكومة سيرفض اعطاءها التصريح بالخروج الا اذا اعطيته يدها.. ولكن لسبب ما، وربما بنتيجة أزمة سياسية، لم يجدّ شيء، وسافرت كاثلين بأمان لتعود إلى هيث في «النيوماركت» و «أسكوت» في انجلترا[2] .

رسالة للوطن، يناير ١٢ سنة ١٩٥٨ .

---

(١) يرحم الله ابراهيم باشا كانت «نفسه طرية» كما يقول المثل العربي في حبه للنساء .
(٢) أسكوت : قرية صغيرة لا تبعد كثيراً عن لندن اشتهرت بسباق الخيول امام الملكة.

في صباح يوم عيد الميلاد، حدث أن المطران الجديد للاردن ولبنان وسوريا كان سيكرّس من قبل رئيس الاساقفة الانجليزي في الكاتدرائية الانجليكانية، وكانت هذه عبارة عن عراك شديد، ذلك لأن العرب، انجليكان أم غير ذلك، يحبون «أخذ الصور» ولو كان ذلك في اقدس لحظة أثناء الصلاة، ومع أن رئيس الاساقفة رفض السماح لهم بالتصوير، إلا أنهم لم يذعنوا واندفعوا في أرجاء الكنيسة تلمع اضواء آلاتهم (الكاميرات) في كل مكان. وقطع رئيس الاساقفة القداس طالباً اليهم الخروج من الكنيسة، ولكن احدهم تسلل عائداً فاضطر ضابط (كولونيل) اردني ان يضربه بعصاته حتى أخرجه، ثم في النهاية خرج موكب ممثلي الكنائس الاخرى(الارثوذكسي، الاقباط، الكاثوليك، واللوثريين)، عن طورهم غضباً حول مسألة جوقة المرتلين، وكان نتيجة ذلك ان عدد كبيراً من جماعة المصلين اندفعوا متقدمين عن وجهاء الكاثوليك، وحدثني احد رجال الدين من جماعتنا بأن رجال الطائفة اللاتينية جن جنونهم وتركوا الكنيسة ذاهبين إلى بيوتهم رأساً دون الحضور إلى حفلة الكاكاو التقليدية التي يقيمها «القس قبعين». وبالاختصار سار الاحتفال بكامل طقوسه على احسن ما تكون التقاليد المسيحية في القدس، حيث لا تكتمل صلاة كبيرة بدون صف طويل واحد متكامل على الاقل.

وفي المساء عندما كانت ناتاشا مع امها، زرت الدير الروسي الآخر، في الجسمانية، وبينما كان الدير الذي على جبل الزيتون كبيراً وفقيراً، كانت الجسمانية اغنى منه وأكثر اناقة. وكانت الراهبات قديسات لكنهن لا تفوتهن أية حركة تحدث في العالم الخارجي.

أما رئيسة الدير، الأم ماري، فقد كانت امرأة اسكتلندية ذات شخصية قيادية ومظهر تقشفي، يضاف اليه القسوة التي تحتاجها لكي تصبح فعلاً سيدة قديسة عظيمة. وناتاشا وانا معجبان بها بشدة، اما تابعتها الثانية فقد كانت سيدة ممتازة ذات ذكاء وقّاد، وهي روسية الأصل واسمها الام «بربارا» وقد تناولت الشاي معهم في غرفة رئيسة الدير وانضمت إلينا الام مارتا وهي الآنسة استيرلنج من جلورات، وكذلك الأم... ودار الحديث حول فظاعة الانتخاب الذي قامت به مجلة «التايمز» للمستر خروتشيف ليكون «رجل هذا العام». وحان موعد الصلاة في الكنيسة فدخلنا واستمعنا إلى صلاة

عيد الميلاد. التي كانت في غاية الجمال، حيث رتلت الراهبات، وكان ذلك أروع شيء في القدس المسيحية. كانت تعلونا قبة عظيمة مظلمة والضوء الوحيد الذي يأتينا كان من الشموع الضئيلة التي تحملها الراهبات بأيديهن، وقد أعارتني الرئيسة ماري نسخة مترجمة للإنجليزية من كتاب الصلاة الارثوذكسي والذي يختلف تماماً عن كتابنا حتى أنك تحسبه من ديانة أخرى وكانت هناك أسماء غريبة لم أعهدها مثل «صلاة الباسل العظيم» و «الساعات الامبراطورية» إلى غير ذلك!.. ثم إذا بك بعد ذلك تُفاجأ بصلاة الاعتراف بالدين (Nicene Creed) وهي تشبه صلاتنا تماماً.

وصعدت الربوة بعد ذلك لانضم إلى ناتاشا عند والدتها، وكانت راهبات هذا الدير أكبر سناً وكانت أصواتهن «مشروخة تفح عواءاً، وكان معظمهن من المربيات والطباخات فيما قبل الثورة الروسية في هذا الدنيا» كما كانت تردد الرئيسة ماري. ولا يتوفر نفس الجو هنا ولا الذوق أو الذكاء كما هو الحال في الجسمانية بمنحدر التل ولكن كان هنا حتما جو آخر قوي، ومن نوع مختلف تماماً، فالأضواء الزيتية التي تحترق أمام الايقونات، والرهبان بشعورهم الطويلة، ولحاهم المدلاة، الذين يدفعون رؤوسهم أمامهم كلما مشوا، ثم بعد ذلك العشاء في غرفة الرئيسة تمارا، تلك الغرفة التي تلتصق بجدرانها صور القياصرة الأخيرين وعائلاتهم، وكذلك الحديث عن صلاة القداس الغائب عن روح الدوقة العظمى «اليصابات»، أو عيد ميلاد نقولا الثاني، وانك لتشعر هنا ان الساعة أعيدت إلى الماضي البعيد قبل الثورة الروسية وكأن البولشفيك لم يرهم أو يسمع بهم أحداً..

الفصل الثالث عشر

الملكان الشابان

كان الاتحاد القصير الأجل بين الاردن والعراق قد جاء من وحي الملك الحسين. وكان يعمل منذ وقت طويل على تامين أسمى درجة من الاتحاد بين البلاد العربية التي تقاوم الشيوعية. وكان لديه اندفاع مثالي نحو قضية الاتحاد العربي قبل ذلك. ووجد نفسه الوريث الوحيد لجده الاكبر الحسين بن علي، الذي بدأ بالثورة العربية ضد الاتراك، وكان الملك حسين متمسكاً فعلاً بمثالية الوحدة العربية، واعتبرها كأنها تركة عائلية من ضمن إطار العائلة الهاشمية، وبدا انه يعتبر نفسه الانسان الوحيد المقدر له أن يسير



بالمهمة من اجل هذا الاسم. وكان مصمماً على ان المحرك الدافع نحو اتحاد العرب، يجب ان ياتي من مملكته الصغيرة. وكانت وجهة نظره هذه تحتوي على عنصر تقدير سياسي، وكان فيها ايضاً شعور فذ من التضحية والإخلاص. وغالباً ما كان يقول لي الملك حسين علناً بانه لا يتردد بأن يتخلى عن عرشه إذا كان في ذلك ما يسهل امر الاتحاد العربي. وكانت اتفاقيته مع العراق قد اثبتت ان هذه الآمال لم تكن مجرد كلمات عقيمة باطلة.

وكانت هناك عقبات هائلة تواجه اي اتحاد متقارب بين المملكتين الهاشميتين. فكانت هناك اولاً العوامل الجغرافية الواضحة، وهي الصحراء الشاسعة المتداخلة بينهما، وكان هناك ايضاً تاثير الملك سعود، الذي كانت عداوته العائلية مع الهاشميين مرتقبة دائماً بطبيعة الحال، كي تجعله يخاف من اي تقارب وحدوي بين تاجي الاردن والعراق. ومرة اخرى مع ان الملكين الشابين كانا صديقين عظيمين الا ان عائلتيهما كانتا على علاقات اقل صداقة منهما. وبصفة عامة كانت العائلة الملكية الاردنية تميل إلى اعتبار ابناء عمومتهم العراقيين قوماً متغطرسين واصحاب فخفخة، بينما كان تصرفهم الشخصي نحوهم بمثل قرابة الفقير الذي يحمل على كتفيه عبئاً... وبالفعل كان الراي العام الأردني بمجموعه يحقد على العراقيين لانهم «أولاد عمومة اغنياء لكنهم بخلاء». وكان الابطاء من جانب العراق بمنح الاردن اية مساعدة اقتصادية قد حسم هذا الشعور بالمرارة، وكان من الطبيعي جداً، وخصوصا لاسباب عسكرية واقتصادية ان يكون الاردن اكثر اهتماماً بالاتحاد من العراق، وكانت المفاجاة الحقيقية ليست في ان الملك حسين هو الذي اقترح الاتحاد بل لأن العراقيين تقبلوه بدون اي عناء.

وكانت القوة الدافعة المباشرة للاتحاد قد جاءت بعد المفاوضات بين مصر وسوريا التي حدثت حول نهاية يناير ١٩٥٨، حيث كانت تتبلور بشكل واضح لتؤدي إلى إيجاد ما عرف بعد ذلك «بالجمهورية العربية المتحدة». وفي الوقت نفسه كانت هناك تطورات هامة جديدة في الرياض بالسعودية، فقد قال الملك سعود للأردنيين بانه نظراً للصعوبات التي يواجهها الوضع المالي، فإنه لا يتمكن من دفع الخمسة ملايين جنيه، وهي المعونة التي استحقت عليه في سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩، بموجب اتفاقية التضامن العربية المعقودة في

العام الماضي. وهذا القرار غير المنتظر كان له تاثير ايجابي اكثر من اجل الاتحاد. اما المسألة كيف أن سعود قد بدد ثروات مملكته حتى انه لم يعد قادراً على تنفيذ تعهداته نحو بلد عربي ملكي آخر، فقد أصابته بضربة ضارة لكرامته في أوساط الحكومة الاردنية وقد بدا أن سعود نفسه أخذ يغرق بسرعة، إذ تحول من «بابا الاسلام البطولي» إلى «انسان متخوف وغير طبيعي»[1] !.. وكان اعوانه في الحكومة الأردنية، الذين كانوا فيما مضى اقوياء، قد شعروا الآن بإذلال شخصي، ولعلهم منذ الساعة، بدأوا يمعنون النظر في فائدة القفز من «العربة السعودية» إلى مثيلتها اي «العربة العراقية» . وعلى اية حال فإن سلطة سعود لإعاقة اتحاد قريب بين الاردن والعراق قد اختفت فجاة.

وبعد الاتصالات المبدئية والاستعدادات، وبدعوة من الملك حسين، وصل الملك فيصل وعدد من وزرائه إلى عمان بتاريخ كافة(١١) فبراير لاجراء المفاوضات حول الاتحاد. ومن وجهة نظر مراقب غربي ساخرة، فقد ظهر أن الاجتماع سوف يتمخض ببساطة عن عرض آخر إلى اللغو العربي، وعن صيغة ما لوثيقة اتحاد، ولكن دون جوهر حقيقي. وخلال المحادثات تقدم الاردنيون بمسودة وثيقة يحددون فيها الاتحاد كما يرغبون أن يكون. وكانت المسودة عبارة عن خليط خيالي ولكنه ذو طابع حاد يضم الواناً منتخبة من التحالف أو الاتحاد أو الوحدة الكاملة. وكان جوهرها الرئيسي يؤدي إلى ابعد الحدود الوحدوية الممكنة المتماسكة مع الاحتفاظ بالهوية الوطنية المنفصلة لكل من البلدين.

وقد اعتبر العراقيون أن المقترحات الاردنية مقبولة بوجه عام، إلاّ أن العقبة الوحيدة التي اعترضت هذه المقترحات هي مركز رئيس الدولة. وقد أبدى الاردنيون رغبتهم بأن يمارس كل ملك هذا الدور بالتناوب، ولكن العراقيين أظهروا بوضوح أنهم لا يقبلون طريقة التناوب هذه وأن هذه النقطة بالنسبة لهم هي أسّ الخلاف. وعند ذلك أوضح الملك حسين بأنه يتنازل عن هذا الدور كلية لصالح ابن عمه - وكان هذا قراراً كريماً إلا انه واقعي ايضاً، لانه بدون ذلك لم يكن ممكناً الوصول إلى اية اتفاقية.

وكان جو المحادثات على العموم في عمان يتصف بالوقار والتعقل المناسبين، وخلال

(١) القصد بهذا الوصف ان سعود اصبح منغمساً إلى حد بعيد بالملذات الدنيوية .

حفلة غداء رسمية اقامها أمين العاصمة في ١٣/فبراير شعرت بوضوح ولأول مرة بأن عجلات الشاحنة العربية الكبرى المتنقلة بدأت تدور فعلاً. وكان هذا الحفل هو الاكبر من نوعه، الذي تمثلت فيه جميع الطبقات، والذي اقيم اثناء زيارة الملك فيصل، فقد كانت المؤسسة الاردنية كلها هناك، وجاء معهم تشكيلة غريبة من «البسة الراس المختلفة» مما جعل حفل الغداء اشبه شيء بحفلة عيد الميلاد (الكريسماس)، فقد كان هناك وجهاء أردنيون بالبسة الراس المرقطة (الحطة والعقال)، ورجال الدين المسلمون بعمائمهم الناصعة البياض، والقس العربي الانجليكاني بطربوشه وقبته المنشّاة، وطرابيش اخرى عديدة، يلبسها رجال مسنون آخرون من العرب المحترمين، ورجال الادارة من العهد البريطاني أو حتى العثماني، وضباط (كولونيلات) من البدو تزين صدورهم الشارات والأوسمة الحمراء وهم يعالجون بشدة بين اسنانهم قطع لحم الضاني، بينما تغطي رؤوسهم القبعات المقصبة والمطرزة بالشرائط النحاسية، والتي استوردت من شركة معروفة للألبسة العسكرية في لندن وكامبرلي. وكان هناك ايضاً عدد من ضيوف آخرين اقل ولاء للحكم الحاضر الاردني، ورجال أعمال من الذين حنقوا مداجاة وملاطفة القوى المتطرفة الوطنية، ووزراء متقاعدون من الذين تتوق انفسهم للتقارب مع مصر. وعلى الرغم من تباين واختلاف الشخصيات، كان جو الحفل مفعماً كله بالحماسة، والقى رئيس البلدية خطاباً عاطفياً ضمنه كلمة عن الملك الحسين الاول وأحفاده فعلت الهتافات حتى اخترقت السقف. وخلال هذا الجو الحماسي، كان الملكان الشابان يجلسان جنباً إلى جنب محاطين بكبار رجال الدولة، وقد أطلقا لنفسيهما العنان فكانا يستغرقان في الضحك البريء اشبه ما يكون بضحك تلاميذ المدارس.

كان الملكان صديقين ومتجانسين تماما مع بعضهما، وكان الملك فيصل بخديه المنتفخين وبساطة خلقه. يلبس بدلة فخمة (من خياطة سافيل رو)[1]، وقبة منشاة من صنع (شارع جيرمين بلندن). وربطة عنق من سوق(بيرلنغتون)[2]، وحلاقة من (شارع

(١) سافيل رو: اعظم مكان للخياطة الراقية في لندن ويزوره عظماء الشخصيات العالمية.
(٢) شارع كيرزون: مشهور في لندن بحلاقيه الانيقين.

كيرزون)[1]، مما جعل الملك حسين، ببدلته المصنوعة عند خياط بشارع السلط الرئيسي في عمان، وحلاقة شعره عند حلاق السوق، يظهر بالمقارنة وكانه«ابن العم الريفي»، والذي كان بالمعنى اللفظي صحيحاً، ومع هذا فلم يكن هناك ادنى شك في انه الشخصية القوية من بين الاثنين، وكان الملك فيصل يشبه شخصية لطيفة كملازم من سلاح الفرسان الانجليز، يجلس إلى جانب نبي بدوي (ديناميكي) شاحب اللون. وعندما كنت ارقبهما لم اتمكن من مقاومة التمني لو ان هذين الشابين اولاد العمومة قد ولدا كل لعرش الآخر ! .. ولقد شعرت بان سجايا وخصال الحسين قد هُدرت في هذه المملكة المضطربة الصغيرة، ولو كان العراق تحت حكمه لسار في الدرب الطويل الناجح وازدهر، بينما العراق تحت حكم الفيصل، .. لا ادري .. ؟ .. وكانت خواطري كلها مبكرة جداً كي تُحمل على محمل الواقع العملي ! ..

وقد وُقّعت الاتفاقية في (١٤) فبراير وهي تؤمن خلق اتحاد عربي بين العراق والاردن، يكون مفتوحاً لدول عربية اخرى إذا رغبت في الانضمام اليه. ويحتفظ كل من البلدين العراقي والاردني بوضعهما الوطني المستقل وسيادتهما على اراضيهما. وبعدئذ ستتخذ الاجراءات لتوحيد الدولتين توحيداً تاماً في السياسة الخارجية، والتمثيل الدبلوماسي، وبالنسبة لجيشهما ولانظمة الجمارك في بلديهما، وكذلك في اساليب التعليم. وسوف يتفق الطرفان باسرع وقت ممكن إلى إتخاذ الاجراءات لتوحيد العملة وتنسيق سياستهما الاقتصادية والمالية. اما مهام الاتحاد فتقوم بها حكومة اتحادية تتالف من السلطات التنفيذية ومن مجلس تشريعي، بالانتخاب من مجلسي النواب الحاليين في البلدين، بعدد متساو لكل دولة، ويراس حكومة الاتحاد ملك العراق وفي حالة غيابه يتراس ملك الاردن، وكل ملك يحتفظ بسلطاته الدستورية في مملكته.

وبالرغم عن نوبات الضحك التي اعترت الملكين كما اسلفنا فقد أثبت أبناء العم أنهما كانا رجلي دولة افضل من مستشاريهما الكبار، وانهما دفعا للإمام بنفسيهما خطة الاتحاد مجتازين جميع العقبات، وبالحقيقة كان المهندس الحقيقي هو الملك حسين، وكما

---

(١) سوق بيرلنغتون في الحي الغربي في لندن مشهور بأناقته.

حدث في قهر مؤامرة النابلسي في العام الفائت، فقد اثبت مرة أخرى أنه يملك عظمة سياسية خاصة به، ومن المؤسف ان نتيجة جهوده هذه انه اختار لنفسه مركزاً جانبياً، لكني كما كتبت في ذلك الوقت، كان يجب عليه على الاقل ان يأخذ لنفسه بعض الراحة التي كان بحاجة شديدة اليها، واني آمل ان يقضي اجازته في انجلترا، فلقد خرج من هذه العملية بهيبة عظيمة، وهذا تماماً هو نوع من التضحية التي طالما قدّرها العرب، ولذلك إذا ما حافظ على صحته اعتقد انه سوف يكون لديه دور يلعبه في العالم العربي حيث توجد قيمة نادرة للملوك طيبين، اضف إلى ذلك أنهم ينحدرون هم ايضاً من سلالة النبي.

رسالة للوطن ١٢ مارس ١٩٥٨

ومع استكمال قضية الاتحاد بين الاردن والعراق التي تعتبر تقريباً المدعاه الوحيدة للتطلع نحو الآمال الجديدة في الشرق الاوسط منذ سنوات تصورت انه قد حانت لنا فرصة لزيارة أصدقائنا (آل رايت) وهي فرصة لي لابحث الامور مع (مايكل رايت) وهو الرقم المقابل لي في بغداد .

وكانت هناك نقطة تهمنا كلينا بصورة خاصة وهي مستقبل التمثيل البريطاني في تلك البقعه من العالم ولسوف يكون من الضروري وجود سفير للاتحاد الذي هو واضح تماماً بانه (مايكل رايت) اما اذا احتاج الاردن سفيراً منفصلاً فان هذا الامر يصبح غامضاً وبالفعل فان على الاردنيين والعراقيين ان يتفقوا فيما بينهم وكان هناك نقاش من الجانبين فقد فكرنا (مايكل وانا) بان الامر يجب ان يكون كذلك بصفة عامة ولو في الوقت الحاضر على الاقل وقد اعتقد الملك حسين ووزراؤه بأن هذا ما يجب ان يكون ولكن المحادثات حول هذا الموضوع تسير الان في بغداد وسوف نعرف قريباً اذا كان العراقيون قد وافقوا أم لا- وفي هذه الحاله سوف تستعد السفارة في عمان للرحيل ، وبهذا تكون عودتنا إلى الوطن قريبة جداً. اما ناتاشا وأنا فسنأسف حتماً لذهابنا، ذلك اننا وجدنا، ولعدة اسباب ان هذا المركز مثالي، وعلى كلا الجانبين فقد كنا ننظر للأمر نظرة فلسفية محضة. انا بالحقيقة لا احب بغداد كثيراً، إذ بعد شوارع عمان الحجرية الوجيهة، تشعر بالانحطاط عندما تشاهد الطوب الاصفر هناك، وكأنها محطة مراحيض كبرى، .. وقد

سافرنا في السيارة يوماً إلى بابل وهي تبعد ساعة ونصف بالطريق إلى الجنوب. اما بابل نفسها فلم تكن الا حفرة في الارض تحيط بها أشجار النخيل وكانت الرحلة بالسيارة مدهشة، حيث الحوائط الطينية العالية القديمة تفوح منها روائح الفاكهة التي تختلط بأشجار النخيل.

واذا ما سار كل شيء بصورة طيبة سنكون حصلنا أخيراً على استهلال لاتحاد العرب تحت مفاهيم طويلة الامد، معقولة وتجارية تقريباً، بدل معرض الدعاية الصارخة، كتلك المؤسسة المتنافسة تحت حكم الكولونيل عبد الناصر. وبعد، عندما ساءت الامور بالنسبة لنا في الشرق الاوسط - فلسطين، ايران، مصر، - فسيكون رائعاً أن نجد مركزاً تبدأ الامور تتحسن فيه على خلاف ما وقع، هذا إذا تحقق! ..

ويلاه، .. كم يمكن أن يكون الانسان مخطئاً؟ .. حيث سارت الرياح بغير ما تشتهي السفن!!..

وقد قررت الحكومتان بالفعل ان يكون لكل بلد أجنبي ممثل بسفير واحد في الاتحاد العربي، وبناء على هذا، وبعد محادثات جرت مع الملك حسين وغيره في عمان اوصيت بان أبقى في مكاني على اية حال كرئيس للسفارة على الاقل في الوقت الحاضر، وان قيمة تقديراتي هذه لها اهمية ثانوية، وربما كان ممكنا أن استمر رئيساً للسفارة في عمان مع مرتبة خاصة كوزير، وباية صورة فساكون بطبيعة الحال تابعاً إلى مايكل رايت كسفير للاتحاد .

ولقد اتخذ قرار بأن عاصمة الاتحاد في فصل الشتاء تكون بغداد، بينما تكون عمان العاصمة في فصل الصيف، وبالاتفاق مع (مايكل رايت) أعلمت وزارة الخارجية أن بيت السفارة في عمان كبير بما فيه الكفاية لان نشترك مع آل رايت بالسكنى فيه، خلال الفصل الذي تكون فيه عمان عاصمة الاتحاد.

وقد قبلت وزارة الخارجية جميع هذه الاقتراحات، وباشرنا العمل لتحسين البيت ببناء حمام آخر لكي نتمكن (آل رايت ونحن) ان نعيش حياة الريف خلال فصل الصيف[1] (Villeggiatura) في حكومة الاتحاد، وبعد أن وضعنا جميع الخطط

(١) Villeggiatura كلمة ايطالية تعني الحياة في الريف خلال الصيف.

ونظمناها سافرنا إلى بيروت لحضور عيد الفصح الروسي هناك.

رسالة إلى الوطن ١٤ نيسان ١٩٥٨ .

كان المنظر جميلاً ولكن يستحيل عليك ان تاخذه على محمل الجد، كان أشبه شيء بمنظر برّي جميل في سويسرا مرسوم على علبة الشوكلاته الموضوع بغرض الدعاية. وانك لتشاهد عبر الخليج القمم العالية المغطاة بالثلوج، اما القمم التي تليها في المنحدرات فانها موشومة بالفيلات الرائعة التي يملكها شيوخ البترول الاغنياء من الخليج الفارسي. اما المدينة التي كانت خليطاً من الفرنسيين والأتراك عندما زرتها أول مرة منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، فانها الان تكتظ بكتل لا حياة فيها من العقارات الامريكية الطراز ومن الشقق والمكاتب. اما بالنسبة الينا نحن القادمين من الخيم السوداء في عمان، فإن هذه المناظر تمثل الحضارة بحوانيتها ودور السينما المنتشرة فيها والمطاعم المختلفة، وعلى كل حال نحن نتمتع بكل هذا حتى آخر المدى..

وخرجنا بالامس بالسيارة مع (آل نوريتش)، و (ديانا كوبر) على طريق البحر في موقع الوادي الكبير بين لبنان ومخارجها على طريق دمشق. وتناولنا طعام الغداء في مطعم قروي حيث شربنا العرق مع الماء، وأكلنا أرجل الضفادع مع الثوم، ثم تابعنا السير كي نتفرج على الآثار الرومانية الهائلة في بعلبك، وكان منظرها جميلاً اذ كانت الثلوج تغطي قمم التلال، وكانت كلها ممتعة فهي تمثل قطعة ناجحة من «العمار في الامبراطورية الرومانية».. وكانت إعادة بناء هيكل (بعل) السوري، على طريقة الابراج، توحي باعجاب الرومان به، فعرفوه بأنه إلههم (جوبتر)،وكان هذا احد الاسباب التي جعلت الحكم الروماني في هذه المناطق ينجح نجاحاً عظيماً. كان هذا طبعاً يمثل روما تحت حكم الاباطرة الوثنيين. ولم يكن خلفاؤهم المسيحيون بهذه المهارة، إذ بطريقتهم «المشاغبة» الفظة بمعالجة علم اللاهوت، مع اهل البلاد، قد ساعدت هؤلاء على الارتماء في احضان الاسلام بمجرد ظهور هذه العقيدة. وعدا عن ذلك كله، فإن (بعلبك) شيء جميل جداً ولكن ناتاشا وانا بقينا على إخلاصنا إلى عزيزتنا «جرش» والتي مع صغر

حجمها بالنسبة لبعلبك تشعرك بالاتصال مع الشعب الروماني السوري، وطريقة حياتهم اليومية، وكان هذا موضوعاً أكثر متعة من سياسة الامبراطورية الدينية العليا التي تمثلت في فخامتها في بعلبك.

رسالة إلى الوطن نيسان ٢٧ سنة ١٩٥٨ .

عدنا من بيروت منذ أسبوع، حيث جئنا بالسيارة عبر اسرائيل وقضينا هناك ليلتين في سفاراتنا في تل ابيب. وانه لممتع حقاً أن نتعرف إلى هذه الشخصيات المختلفة في سفارتنا المنتشرة في الشرق الاوسط.. انك لتشعر في عمان بانك تعيش في قلعة صليبية بين الصليبيين. اذ كان هناك كل شيء حولك مسالماً، فنحن نتبادل المودة مع جيراننا في القلعة المجاورة، حيث يعيش الملك العربي المحلي. إلا ان سُمْكَ الحوائط في بيتنا يبلغ ثلاثة اقدام، وتحيط بالنوافذ القضبان الحديدية، ثم هناك البوابة الكبيرة، وكان كل شيء موجوداً هناك، عدا الجسر المتحرك[1]، وكنت تجد ايضا البراميل الضخمة تحت الأرض تمتلىء بالمياه ومستودعات أخرى تمتلىء بالطحين ... أما في السفارة البريطانية في بغداد فإننا نشعر بخروجنا من العصور الوسطى وعودتنا إلى عصر الامبراطورية الرومانية الذهبي. ومايكل رايت يشبه الوالي الروماني لمنطقة ما بين النهرين، وهناك دونمات ودونمات من الأرض المبلطة بالمرمر، وخلف كل عمود يقف عبد شرقي، وتمثال الفارس البرونزي للجنرال (مود) ينتصب خارج البوابة، وبعد إقامتنا هنا في سفارة تل ابيب شعرنا بالانحطاط المخيف في هذه المشابهة أو المفاضلة، والتي كانت تشبه إحدى ضواحي لندن هي « الحي الشمالي الغربي-٣» .. فالبيت الريفي والبستان الصغير، وتقوم بجميع الاعمال هناك تقريباً خادمة يهودية «مهسترة»، بما في ذلك خدمة غرفة الاستقبال والطعام. وبالحقيقة، فمن جو روما والصليبيين تهبط إلى الارض فيصفعك جو جديد في شارع هوليكروفت ..

(١) Draw - Bridge جسر متحرك كان يستعمل في انجلترا في القلاع القديمة حيث يفتح ويغلق عند الحاجة، ويقع تحت الجسر نهر عميق الغور ممتلىء بالمياه.



(الفصل الرابع عشر)

وكان العرض جاهزاً

كل شيء يعتمد الان على كيفية سير الاتحاد العربي عملياً، وكان اجتماع وزارة الاتحاد وافتتاح برلمانها من قبل الملك فيصل قد جرى في عمان، وقد نظم بشكل يتفق مع احتفال الاردن بيوم الجيش في ٢٥ مايو، وقد تمكن ضيوف عدد من الدول من حضور تاسيس الحكومة الاتحادية للمشاركة في تلك المشاهد العسكرية والتي كان الاردنيون ينظمونها جيداً دائماً تمشياً مع التعليم العسكري البريطاني في نظامه ووقته!!، وقد اقيم العرض عل سهل رملي خارج عمان. وبُذلت الجهود قبل العرض لوضع طبقة من التراب المبلل بجلب عربات المياه التابعة لامانة العاصمة، ومن جميع انحاء الاردن ومعظم سيارات الحريق من مطار عمان. ومع كل هذا فقد هبت رياح شديدة، واثارت تحركات معظم فرقة الدبابات غيوماً كثيفة من الغبار الرملي، الذي يلتف حول طوابير المشاة، كمثل الدخان المنبعث من «موقعة نابليونية»، كانت تعدو من خلالها فرقة من سلاح الخيالة، ممتشقين سيوفهم، وتعلو رؤوسهم «قلابق» شركسية من الفرو، فكانو كالاشباح التي جاءت راساً من ساحة «بورودينو»[1]، اما المظاهر الاخرى من العرض فقد كانت اردنية محضة. فالجمال من فرقة حرس الصحراء تعدو بخفة امامنا مع دقة نظام سلاح الخيالة المحلي في سيرها على نغمة ال (Keel Row) وكان قائد الكتيبة المسلحة

---

(١) Borodio قرية خارج موسكو حيث انتصر نابليون فيها على الروس.

يسير بسيارته الجيب تتقدم الكتيبة ويجلس في الخلف جندي يلبس بيديه قفازات جلد كبيرة يحمل بيده صقر الصيد، وكانت دقات موسيقى الانسحاب التي تنبعث من عدد كبير من ابواق الجيش الاردني تبعث على الحماس في أي مستوى، وكذلك منظر عرض سلاح الفرسان كان مشهداً رائعا آخر. وكانت القلابق الطويلة البيضاء المصنوعة من جلد الخرفان، ومشية الخيول العربية الراقصة، والرايات الملونة المستطيلة تخفق على الرماح في هواء الجبل النقي، كل هذا بدا وكانه ينبعث من مظهر حياة عسكرية قفقاسية كما وصفها (بوشكين) او (ليرمونتوف)، الكاتبين الروسيين المعروفين! ..

وكان بين الضيوف ثلاثة من الضباط البريطانيين الذين خدموا في الاردن تحت قيادة جلوب. وقد استقبلوا بحماسة شديدة من قبل اصدقائهم القدامى العرب، وقد بدا ان هناك جهد خاص قد بذل في هذا العرض لاثبات انه بالرغم عن انقضاء عامين منذ وقت رحيلهم، الا ان الجيش الاردني ما زال يحتفظ باعلى المستويات التي تعلموها في الكليات والمعاهد العسكرية الاجنبية. ومع ان عاما كاملاً قد انقضى معظمه بالمحافظة على واجبات الأمن الداخلي، الأمر الذي لم يحسّن من قيمة الجيش الحربية، إلا ان مظاهر هذا العرض على الساحة لم يترك اي مجال للانتقاد. وقد علق الوزير المفوض الالماني. وهو رجل عجوز يظهر بوجهه اثر جرح قديم وقد كان يعرف شيئاً او اكثر عن حفلات الجيش فقال: « ان روح جلوب ما زالت سائدة تماماً في هذا العرض» !!

وكانت الآمال عن الاتحاد الجديد تبدو مشجعة نوعاً ما. وكان رئيس وزراء الاتحاد حتماً هو نوري السعيد. وكان نائبه ابراهيم هاشم الذي كان اثناء الاتحاد رئيساً لوزراء الأردن. وهو شخصية مرموقة محترمة، ولكن ليس اكثر من ذلك، واصبح سمير الرفاعي رئيساً لوزراء الاردن بدلاً عنه، وظهر بوضوح ان مقياساً من الخطر، جاء من العنصر الفسطيني من داخل الاردن. وكما قال احد الساخطين من شرقي الأردن اثناء الاتحاد «لقد حطم الفلسطينيون الاردن، والآن سوف يحطمون العراق». طبعاً كانت هناك مخاطرة ما من ان اللاجئين الفلسطينيين في الاردن، الذين كانوا يتعاطفون مع عبد الناصر بصورة خاصة والذين كممهم الحكم العسكري بإحكام في العام الماضي، ربما

يحصلون على فرص متزايدة للقيام ببعض المشاكل، فكان مثلاً من الممكن أن يبعثوا ببعض نشاطهم الديناميكي إلى بعض اركان المعارضة القوية في العراق، والذي كان في الوقت الحاضر بدون قيادة. ولكن بصورة عامة ربما يجدون أن نشاطهم سيكون أسهل تقيداً في المجال الاوسع في الاتحاد، مما كان عليه في الأردن.

واذا ما وضعنا السياسة جانباً، فإننا نقول أن اللاجئين الفلسطينيين كانوا يمثلون احتياطياً من قوة بشرية هائلة عددها نصف مليون، يمتازون بنوعية خاصة، فمنهم المزارعون، والصنّاع المهرة، والتجار الصغار، والاداريون، والمعروفون تقليداً بأنهم متقدمون عن بقية السكان العرب لانهم يتدربون في المدرسة المنظمة القديمة اثناء الانتداب البريطاني. وهذا الاحتياطي من امكانية المستوى الرفيع العمالي، يمكن أن يكون ذا فائدة أكبر إلى العراق، عندم يتقدم برنامجه التطوري، وأن توفر وجود القوة البشرية في الوقت المناسب اثبت أنه عامل حاسم على ازدهار الشعوب، تماما كما اعتمدت الثروة الامريكية في القرن العشرين على الهجرة الاوروبية، وكما حدثت المعجزة الاقتصادية بعد الحرب في المانيا الاتحادية التي قام بها العمال اللاجئون من القطاع الشرقي، واذا سار كل شيء حسناً، فإنه يكون ممكناً أن تحدث المعجزة نفسها يوماً ما في الاتحاد العربي بتزويد المصادر العراقية بالقوة البشرية الأردنية .

ومن وجهة نظر اخرى، فان الاتحاد مع العراق، الذي لم يزل تحت حكم الملك فيصل ونوري السعيد الموالين لبريطانيا، والمتحالف مع بريطانيا في حلف بغداد، يشير الى دور آخر من عودة الاردن الى الصداقة مع بلادنا (بريطانيا)،

وكان الرمز البريطاني في الاردن يتمثل منذ عدة سنوات بقاعدة السلاح الجوي الملكي البريطاني الكبيرة في المفرق، وذلك عند مفترق الطرق بين بغداد ودمشق. وبعد أن انسحب السلاح المذكور سنة ١٩٥٧ من المفرق بقيت القاعدة مهجورة. ولفترة ما، وكما هو الحال في جارتها عبر الصحراء، البلدة البيزنطية السوداء المعروفة الآن فقط «بأم الجمال» ، يمكن ان تتحول هذه القاعدة بسرعة الى اطلال اخرى من الخرائب الامبراطورية القديمة التي يزخر بها الاردن. وقد منع الاتحاد مع العراق من حدوث هذا، وذلك لان المفرق عاد

إليها النشاط لتكون قاعدة لطيران الاتحاد. وقد طلبت المشورة البريطانية في الحال من اجل هذه العملية، واعطيت فعلا. وأوضح الاردنيون بأنهم يرحبون بعودة السلاح الجوي الملكي البريطاني ولكن بصفة مستشارين. وبنفس الوقت، طلبوا استعارة فريق صغير من المدربين البريطانيين لجيشهم الاردني. وبهذا اصبح الباب مفتوحاً الآن لاعادة تأسيس العلاقات البريطانية مع القوات المسلحة الاردنية، مع انة من الطبيعي أن تكون بشكل يتناسب مع تغير الاحوال في ذلك الوقت، وهذا التطور كان نتيجة لسياسة القرار الامريكي السخي لامداد الاردن بمعدات حربية انجليزية (هنتر - ٦) المقاتلة، وناقلات الفرق المسلحة «السراسين»، وكذلك أيضاً كان الباعث المباشر الناتج عن الاتحاد مع العراق، ان اقيمت علاقات بريطانية قوية في مجال الخدمات بدون انقطاع.

وكان عيد ميلاد ملكتنا يصادف يوم (١٢) يونيو واعتبرناه أعادة بريطانية لحفل في الهواء الطلق) وجاء الينا المئات من الوجوه المستبشرة بدل بضع دزينات من الوجوه العابسة الواجفة في العام الماضي، وفي العام الماضي جاءتنا فرقة موسيقى الهوزار من العقبة لتؤدي واجبها الاخير قبل إبحار الفرقة إلى بريطانيا، ومعنى ذلك انتهاء الاحتلال البريطاني الذي خلق جواً كنت تشعر به بقسوة، وتلك الفكرة مصحوبة ببضع أقداح من المارتيني جعلت عدداً من الزوجات من السفارة الامريكية يبكين تأثيرا عندما لعبت فرقة الهوازر نشيد «حفظ الله الملكة» وكن يرددن «أعزاءنا البريطانيون، كم هو مؤسف أنهم انتهوا من هنا» ... وفي هذا العام استحضرنا فرقة موسيقى سلاح الجو الملكي من قبرص بالطائرة بقصد لفت نظر ضيوفنا بان حيويتنا ما زالت مستمرة؟؟! .. وعلقنا الانوار الملونة على الاشجار، وسلطنا الانوار الكاشفة على الغزلان وعلى واجهة البيت، واضانا الشموع في النجف الزجاجي التركي، وعلى مائدة واحدة جلس العجوز نوري السعيد نفسه ويحرسه من خلفه المرافقون والبوليس، وهو يشرب الويسكي (الوايت هورس) من قارورة جلبت خاصة وكانت مؤمنة بطبيعة الحال، وكان يرمقنا من خلف ضوء الشموع بشزر وذلك بسبب مقترحاتنا حول تغطية العجز في ميزانية الاتحاد حيث أصدر بالنهاية موافقته عليها، وفي اليوم التالي تقدم اليه وزير ماليته، بان نقصاً قدره مليونان من الدنانير ظهر فجأة ويجب تغطيته، وقد عزا العراقيون هذا النقص إلى مصروفات عسكرية

غير منظورة من قبل الاردن، وقد رفض الاردنيون هذا الادعاء، ذلك أنهم وضعوا ميزانية للجيش بزيادة مليوني دينار، ولكنهم الآن حذفوا هذه الزيادة، وغطوها بطرق اقتصادية اخرى، وان كل هذه الضجة ما هي إلا تمويه لتغطية عجز في الجانب العراقي، والحقيقة ان العراقيين ارادوا هذا الاتحاد شريطة ان لا يضطروا لدفع فلس واحد في سبيله!! واستمر الحال على هذا المنوال مدة يومين، دون معالجة الامر وجهاً لوجه، ولكن احد الجانبين احال الامر إلى القائم بالاعمال الامريكي وإليّ واحد، ثم إلى الاخر، إلى ان حان الوقت قبل بدء الاتحاد ليبدو وكأنه عصر ذهبي!! ..

وجرت محادثات خاصة مع نوري السعيد في قصر الضيافة حيث كان يقيم. وكان نوري السعيد صغير الجسم بدينا قصيراً يلبس خفين، وقميصاً مفتوحاً من الحرير، عيناه جاحظتان كأنهما البيض المسلوق ولكنهما عنيدتان، ويعلوهما حتى يخفيهما، حاجبان كثيفان كحواجب المهرجين، ثم جرت محادثات ضمت الملك حسين حيث هاجمني نوري بعنف حول الكويت وردد السؤال لِمَ لَمْ تجلب الحكومة البريطانية هذه المنطقة الغنية بالزيت كي تنضم إلى الاتحاد، ويستفيد منها نسبياً كل من العراق والاردن؟ ويجلس قبالته توفيق السويدي وهو احد زملاء نوري الرئيسيين في الحكومة العراقية، بشعره الكثيف كالقش الرمادي اللون وسيجارته المدلاة، يدمدم مايثرثر به رئيسه في أذن سمير الرفاعي المصغية، وقد تقابلت نظرات الملك حسين والآخرين معي وابتسمنا فيما كان نوري مستمراً. وكانوا يتعاطفون معنا حول هذا النقاش من موضوع الكويت، ولكن اكثر هذا التعاطف مبعثه مضايقة نوري، أكثر من أي شيء آخر.

وكان ارتفاع حرارة هذه المحادثات المالية لا تبشر بالخير والامل لمستقبل هذا الاتحاد، وبعد انتهاء الحديث، سالت سمير الرفاعي إذا كان يريدني أن أؤجل اجازتي التي خططت لها طويلاً. واقترح سمير ان نتشاور كلينا مع الملك حسين حول هذا الموضوع. وقال لي الملك وكان كعادته هادئاً ومجاملاً «بينما نود دائماً أن تكون معنا، ولكن لا ارى سبباً يحملك على تبديل خططك». ...

وكانت وزارة الخارجية قبل اسبوعين او ثلاثة قد سمحت لي بالإجازة في ١٤ مايو

بشرط (وهذه عادة نموذجية تتبعها وزارة الخارجية) أن يكون الموقف في الشرق الأوسط هادئاً في ذلك التاريخ.

وبالحقيقة كانت هنالك حرب أهلية منظمة تجري في بيروت وكانت آخذة في التطور، ولكن لا يمكن عمل أي شيء حول هذا الموضوع بإقامتي في عمان. ووضعت وجهة نظر الملك حسين في برقية بعثت بها إلى لندن بدون استعجال، ثم بدأت أحزم استعداداً للسفر.

وعندما وصلنا إلى بيروت، شعرت بلحظة ما أنني ربما أخطأت بأخذ الإجازة. وكان المفروض أن نقيم مع السفير البريطاني (جورج ميدلتون) وزوجته، وقابلنا جورج في المطار، وكانت طبيعته عدم المبالاة أو التأثر كالعادة، قال بأن هناك ما يشبه ساحة الحرب حول بيته، وربما كان من الأفضل أن نذهب إلى فندق سانت جورج ونتلفن من هناك. وانتهى بنا الأمر بأن نقيم في الفندق وسط قعقعة الحرب تدوي في بيروت. وكان يتحدث إلى زميل صحفي عن الشرق فقال «هذه المعركة، إنها سخيفة، ويمكننا أن نصنع أحسن منها بعد ظهر أيّ يوم أحد في(سايغون). وبالحقيقة كانت المعركة شديدة الضجيج وقد انخرط فيها حتى الأذن سياسيون قياديون لبنانيون. وكان ذلك اليوم هو الذي نهب فيه الثوار بيت سامي الصلح، واليوم الذي حطمت الحكومة فيه بيت صائب سلام بالقنابل. ومع هذا كان هناك شيء غير حقيقي، «تقريباً كميزة أهل فينا حول الموضوع كله»، الموقف يائس ولكنه غير خطير. فلم يكن الموقف بالحقيقة مقبضاً ولم يكن النضال ذا صبغة حتمية، كما حدث في نيسان سنة ١٩٥٧ في عمان. وبعدها وجدنا أنفسنا نتحدث مع (جو إلسوب) حول نجاح كتاب (ديانا كوبر)، وكان على جانب الشاطىء صف من السيارات المصفّحة مضاءة مصابيحها تتقدم نحو أرض المعركة؟؟

وكان (جو) يجلس وظهره إليها، واستمر يقول «وقد أحبّ الناس كلهم هذا الكتاب، خصوصاً رجل الدولة الجديدة الذي... إلخ»..

وكان الطريق إلى المطار ما زال مفتوحاً وقد ركبنا الطائرة في الميعاد المحدد.

وفي لندن راعيت باهتمام الابتعاد عن وزارة الخارجية، وفي يوم من الايام وبصورة استثنائية، كان لدي ميعاد على الغداء للتحدث عن المشتريات في السوق مع «ديرك هوير مللر) وهو الوكيل الدائم لوزارة الخارجية والذي كان سابقاً رئيسي في المانيا. وبانتظارنا عنده في الغرفة المجاورة كي نخرج إلى الغداء عبر الحديقة، قابلت رئيسين لقسم شؤون الموظفين في وزارة الخارجية، وكانا قد خرجا للتو بعد حديثهما مع رئيسهما. وقلت لهما انني تصورت انه من الاناقة بمكان ان يكون الانسان (سفيراً انيساً)[1] وان يبدأ بإنشاء نادٍ للسفراء يضم (ميجيل بريمو دي ريفيرا) و(بيل بينتنك) في اللجنة. وقد ظنّا ان هذه نكتة مسلّية ولكن «ليس كثيراً»، لأن هؤلاء الذين تقع علاقاتهم مع الموظفين لا يحبّذون تشويه سمعة السفراء باي سوء، ولذلك لا مجال للمزاح بالموضوع!..

وفي البيت الذي نقيم فيه، جاءت عروس الملك فيصل للتناول الغداء من (هيث فيلد) حيث ما تزال تواظب في المدرسة هناك. وكانت متملّكة لعواطفها. ذكية الفؤاد، ومسلّية، وصاحبة شخصية قوية، ومع هذا كله لم تزد عن الستة عشر عاماً. وقد تحدّثت هي وأمّها عن خططهما من اجل العرس.

وباسرع مما كنّا نتصور فقد كانت جميع الخطط المتعلّقة بالعراق والأردن ستنقلب بوحشية. وكنّا نقضي عطلة نهاية الاسبوع في بيت (كوتسوال مانور) الكبير، وليس هناك اهدأ من هذا الجو الريفي. وفي ليلة السبت، وفي قاعة القرية جلس مضيفنا والمسؤولون عن الحفل في مقاعد التحكيم وانتخبوا بمنتهى الوقار الآنسة «شيبتون - اندر - ويتشوود» لعام ١٩٥٨ . وفي اليوم التالي كانت لعبة التنس. والمشروب، والاستلقاء تحت اشعة الشمس. وفي صباح الاثنين لم يكن لدينا (زوجتي وانا)، ما نقوم به عدا موعد للغداء في لندن. وافقت من النوم متأخراً وكنت في الحمام عندما دعيت إلى الهاتف بسرعة. وحدثني صديق لي من لندن قائلاً لي بانه يجب ان استمع إلى اخبار الساعة التاسعة بسبب وقوع انقلاب في بغداد.

(١) Demge Ambasador هو السفير ذو الشخصية المحببة (الملحلحة!)



(الفصل الخامس عشر)

العزم

لا يمكن أن يكون هنالك اي تغيير في الاوضاع اشد قسوة مما حصل. ولم تكن القصة الكاملة قد وصلت إلى لندن بعد، ولكن كان واضحاً أنه كان هناك حصد شامل للارواح في العراق، وأن نوري، والوصي على العرش الامير عبدالإله، ومن المحتمل الملك فيصل معهم، قد قتلوا جميعاً. وكان الاردن هادئاً، لكن الملك حسين كان قد طلب من حكومتي امريكا وانجلترا المساعدة العسكرية. وكان طلبه تحت البحث في لندن بينما كان الاميركيون من ناحيتهم قد واجهوا ضغطاً للتدخل في موقف الحرب الاهلية المتزايدة والمربكة في لبنان.

ومع أن الازمة كانت ناتجة عن احداث خارجة تماماً عن الاردن إلّا انه ظهر لي بوضوح أن الاردن كان متورطاً جداً ، وان ذلك يتطلب عودتي الى مركزي باسرع مايمكن وكانت الطريق العادية التجاريه عن طريق لبنان قد الغيت بسبب الوضع في البلاد . ولم تكن حكومة المستر مكميلان قد اتخّذت اي قرار حتى الان حول طلب للاخطار التي ستتبع . وفي رايي سيكون ايضا هو القرار الوحيد الصحيح . وكان لدى شعور بديهي بأن قبرص هي احسن خط لعودتي ، وبالفعل كان القرار هذا حكيماً ومؤمناً.

بعد يومين من احتدام النقاش في لندن ركبت الطائرة الى (نيقوسيا) في قبرص يوم الاربعاء في ١٦ / يوليو ، وكان طريقي للتوجه الى الاردن مازال غير واضح ، الى ان جاءت الساعه السادسة من صباح اليوم التالي ، وايقظني من فراشي في بيت الحكومة

(السير هنري فوت) وقد نزل الى غرفتي بالروب والبيجاما ليقول لي أن فرقة البراشوت سوف تذهب الى عمان صباح هذا اليوم ، واذا ما كنت ارغب في السفر مع الموجة الاولى؟... ، وقد كنت رتبت أمري أن انزل الى (ابيسكوبي) وهو مقر القيادة البريطانية في الناحية الاخرى من الجزيرة ، لمقابلة القائد العام في الساعة الثامنة صباحاً وقررت ان اقفز في الطائرة المسافرة الى عمان مساء ذلك اليوم . وبعد أن حلقنا عبر جبال الاولمبوس بطائرة الهيليوكوبتر امضيت صباحاً في اجتماع محطم للأعصاب مع القائد العام عندما كنا ننتظر الاخبار وفي البدء ظهر أن كل شيء يسير بصورة منتظمة حسب ترتيباتنا . وقد بدأت العملية بصورة حسنة . وكان جميع اعضاء الفرقة الستة عشر المستقلة لسلاح البراشوت قد طارت الى عمان فوق اسرائيل بنفس تلك اللحظة . ودل ذلك على الاستجابة الفورية لطلب الملك حسين قبل ثلاثة ايام . بالاضافة الى ذلك ، كان حرس الفرقة المتمركزون قبلا في قبرص ، مستعدين للدخول ليتبعوا سلاح البراشوت . وسوف يترك الامر لي لدرس الموقف حالما اصل الى عمان ثم ابرق لهم إذا كانت هنالك حاجة ملحة للتعزيزات أم لا .

وفي تلك اللحظة كان مارشال الجو (سام باتش) القائد العام لسلاح الجو الملكي البريطاني قد دعي إلى قاعة المداولة، وبعد دقائق عاد الينا بوجه شاحب ليقول هذه هي النهاية، لقد الغت لندن العملية كلها» ونظرنا إلى بعضنا وشعرت ان كل من في الغرفة كانت لديه نفس الفكرة، هل هذه «سويس» أخرى؟؟! .. هل بدأت مخاوف الحكومة البريطانية تتجسم في منتصف العملية، واذا كان الامر كذلك، ماذا سيكون مصير البريجادير (توم بيرسون) والجنود المئة او اكثر في الدفعة الأولى الذين قد وصلوا مطار عمان ينتظرون بقية الفرقة؟؟ ..

وقد قيل لنا أن نكون حاضرين لتسلم رسالة برقية مستعجلة من وزارة الدفاع وقد تجمعنا بلهفة في غرفة العمليات الحربية حيث كانت آلة التلبرنتر، وفي هذه اللحظة الحرجة كل ما يمكن قوله أن (اخوان ماركس الكوميديين) تسلموا الموقف؟؟ ...

فقد تعطلت فجأة آلة التلبرنتر وأزيحت واستبدل بها غيرها، وهذه ايضاً تعطلت ولم

تعمل، واصبحت غرفة العمليات طاحونة سير مزدحمة بالآلات من هذا النوع حيث تدخل إلى الغرفة وتخرج منها ويصطدم بعضها ببعض في الممشى خارج الباب.

وبالرغم من جميع المحاولات رفضت اية واحدة منها ان تعمل. واخيراً قيل لنا ان هناك إشارة مستعجلة فوق العادة سوف تصل من لندن حول الظهر وجلسنا ننتظر بفارغ الصبر. وعندما وصلت أطلعتنا على الصعوبات مع الحكومة الاسرائيلية بشان الطيران عبر الاجواء ولكنها اشارت إلى ان الصعوبات سوف تحل وأن بقية الفرقة سوف تتمكن من اللحاق بعد الظهر، ورتبت اموري للسفر من نيقوسيا حول الرابعة، وبعد ان تناولنا طعام الغداء مع (سام باتش) - (sampatch) في منزله على الصخرة المطلة على البحر، عدنا بالهليوكوبتر إلى نيقوسيا ومشينا إلى الامام عبر الطريق المعبد إلى حاملة الجنود (هيستنجز) المحشوة بالجنود من ذوي الطواقي الحمراء. وفي المقعد التالي بجانبي كان الكولونيل (دينيس بيكيت) يقود كتيبة سلاح الباراشوت الثانية، وكان خلفي يجلس صديقي (توم ناتنغ) وزير الدولة للشؤون الخارجية السابق والذي اصبح الان المراسل الخاص لصحيفة (نيويورك هيرالد تريبيون).

وقد عبرت طائرتنا (الهيستنجز) الشرق الادنى بدقائق، من السهل الساحلي، إلى البلاد الجبلية، إلى القرى (الصندوقية) الاسرائيلية، إلى القرى (الملخبطة) العربية، إلى ابراج القدس البعيدة امامنا في شمس العصر، ثم إلى منخفضات الاردن، ثم إلى جبال مؤاب ترتفع في مواجهتنا، ثم إلى السلط في اقواسها التركية الايطالية تحكم على قمتها، ثم نزلنا إلى مطار عمان حيث قفزنا خارج الطائرة لنواجه دنيا سلاح البراشوت المنهمكة في الاستعدادات ضد كل التحسبات والاحداث.

وعلى الرغم من شواغلنا المستعجلة خلال اليوم، خامرني شعور غريب من خلال هذا الممر المستقيم عبر الجو والمحيط بالشرق الاوسط، بان ماساة (التمزيق) التي حلت بالمنطقة منذ الحرب قد اعيدت للوطن. وكانت الحقيقة ان طيراناً ايجابياً كهذا امكن تحقيقه خلال حالة طارئة دولية يعتبر انجازاً ممتازاً من الدرجة الاولى.

وعند النظر إلى طاقم طائرتنا ظهرت غرابة الامر لاول وهلة هي كيف أن القوات البريطانية تطير الآن لتساعد هذا الجزء الصغير الاردني كي يحافظ على استقلاله من جيرانه العرب. وكانت هناك على كل حال أسباب قوية لهذا الإجراء الذي سوف يظهر للقارىء من خلال مجريات هذه الاحداث التي أسردها.

وكان كل شيء على ما يظهر طبيعياً في عمان، فيما عدا بعض النقص الحاد في البترول، وقد قوبل وصول قواتنا في صباح ذلك اليوم بعدم المبالاة، وكان الهدوء يسود شوارع عمان وكذلك في انحاء البلاد. وفي تقريري هذا عن الوضع الذي بعثت به إلى لندن في المساء نفسه اقترحت عليهم امكان وقف الترتيبات التي اتخذت لمتابعة ارسال فرقة الحرس مباشرة من قبرص إلى عمان.

وكان الملك حسين وحكومته، خلال المدة التي سبقت انقلاب بغداد، مثابرين على الإمساك بزمام الموقف تماماً. وكان تاسيس الاتحاد مع العراق قد أعطى الملك ومعاونيه ما يشبه الاسباب الجيدة للتفاؤل نحو المستقبل.

ولكن جميع الموائد انقلبت فجاة من جراء ثورة بغداد. فلقد وضع الملك واصدقاؤه في موقف حرج بينما هلل المتطرفون الوطنيون لهذه النتيجة. وكان سمير الرفاعي بالرغم من شدة ثقته بنفسه، وكذلك لانه كان دائماً تواقاً لان يجعل حكمه قليل الاعتماد على الغرب، قد أعلمني بأنه لو تأخر وصول القوات البريطانية يوماً او يومين لما كان ممكناً السيطرة على الموقف بالمرة.

وكنا أطلقنا على عمليتنا اصطلاحاً هو كلمة «العزم» ، وبعد انقضاء الشهر الاول تقريباً اثبت هذا الاسم بانه «تسمية مناسبة» على حد قول الاغريق القدماء. وقد كانت مهمة القائد العام البريطاني وقواته مهمة حساسة وقلقة، وفي لحظة الوصول إلى عمان كانت قوات (البريجادير بيرسون) تتالف من كتيبة من فرق البراشوت، احداهما كتيبة خفيفة من المدفعية الملكية، وست مقاتلات (هنتر) رقم (٢٠٨) من فرقة سلاح الجو الملكي البريطاني. وكانت تعليماته العسكرية قد صدرت اليه بأن يحافظ على مطار عمان، وأن

يحافظ على الملك حسين وعلى الحكومة الاردنية، وكذلك اذا وجد من الضروري أن يعمل على توفير الحماية الرعايا البريطانيين وإلى للرعايا الاصدقاء في عمان.

ولكي يتمكن من القيام بهذه الواجبات، كان يتحتم عليه أن يحدد موقفنا مع قوات الجيش العربي. وكان استحكام الملك حسين القوي، في موقع القصر على الرابية، تتمركز فيه كتيبة الحرس الملكي، المؤلفة من جنود منتخبين يقودهم الشريف ناصر خال الملك، وكذلك كتيبة السيارات المدرعة الاولى، التي لعبت دوراً خطيراً وقت التمرد في الزرقاء في نيسان سنة ١٩٥٧، وهاتان الوحدتان كانتا من الوحدات الموثوقة، كما كانت فرقة المشاة التاسعة، وهي وحدة بدوية متمركزة في الناحية الاخرى من عمان. وكانت فرقتا المدرعات والمدفعية في الزرقاء، تتمركز على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشمال، وكتيبة المشاة الثانية تبعد قليلاً عن (خو)، كان هؤلاء على اية حال مجهولي الهوية .. وإذا ما جاهروا بالعداء للملك وتحكروا نحو عمان، فإن رجال الكتيبتين على رابية القصر والقوات البريطانية في المطار القريب سوف يجدون انفسهم في موقف محرج، من حيث تكون الدبابات والمدافع المهاجمة تدعو إلى الإهتمام، من ناحية، ثم الدهماء في المدينة والذين يزيد عددهم على الستين الف لاجىء من مخيمات عمان، من ناحية اخرى، وعلى ضوء هذه الوقائع لم يخاطر الشريف ناصر ويترك الامر للظروف مع قوات الزرقاء، لذلك فقد نشر كشافته في الضواحي الاردنية المعينة، بحيث لا تتحرك بندقية واحدة بدون اعطاء خبر عنها بأسرع من البرق اليه، في قيادته على رابية القصر.

وعند مقابلتي الاولى في صباح ١٨ يوليو، كان الملك حسين ورئيس وزرائه يسيطر عليهما مزاج يائس شديد، لكنه التصميم بعينه، وقال الملك «ماذا بعد، يموت الانسان مرة واحدة فقط» ... وبنفس الوقت قال لي الملك وسمير الرفاعي بأن تركيز القوات السورية ما زال مستمراً على حدود الاردن الشمالية، ولهذا طالبا مشدداً بارسال لواء بريطاني إضافي بأسرع ما يمكن، وبالحقيقة فان البريجادير (بيرسون) وأنا، لم نكن نعتقد بأن الامر يحتاج إلى لواء آخر، إلا اننا كنا فعلاً بحاجة إلى كتيبة اخرى. واصبح الامر واضحاً تماما ان الولايات المتحدة الامريكية لا تنوي ارسال جنود إلى الاردن، وانهم

سيحصرون مساعدتهم في الامور المالية والمساعدات التموينية العسكرية فقط، وخصوصاً ارسال البترول جواً، وقد ابرق (توم بيرسون) فوراً إلى القائد العام في قبرص بذلك.

وساعد وصول القوات البريطانية سريعاً على تجميد الموقف الداخلي. وقد قبض على بعض من قاموا بتحركات غير ودية، ولكن إذا تطورت الامور إلى الخطورة، فإن الحاجة إلى المعونة الغربية (بصورة أموال) سوف تصبح ملحة! ..

وقد ادت ثورة بغداد إلى تردي العلاقات مباشرة مع مصر وسوريا، ولم تُضع الجمهورية العربية المتحدة (مصر) وقتا لاعترافها بالجمهورية العراقية، وقام الاردن بطرد بقايا موظفي السفارة المصرية في عمان وسحب موظفي السلك القنصلي من القاهرة، وبالمقابل قطعت مصر جميع المواصلات مع الاردن.

وفي التاسع عشر من يوليو هاجم الملك حسين علناً مصر وسوريا وقال انهما كانتا تخططان منذ سنتين لقلب نظام الحكم في الاردن تحالفاً مع الشيوعية الدولية.

وبالمقابل قام عبد الناصر بحرب الاعصاب الشاملة ضد الحكم الاردني، ثم قام راديو دمشق بإذاعة التصريحات المتكررة بأن تحرير الاردن سوف يبدأ خلال ساعات قلائل، واتبع عبد الناصر هذه التصريحات بهجوم إذاعي عنيف على شخص الملك حسين، واخذت الاسلحة تتسلل من سوريا بغزارة، وفجرت أعداد من القنابل في عمان.

إلا انه كان هناك جانب مشجع لهذا الموقف، ومع ان الملك حسين كان تعباً ومهموماً، إلا أنه كان ثابت العزم مجابهاً للتحديات. وإذا ما استقر الامر في لبنان، نتيجة لانزال القوات الامريكية، فسوف يؤدي ذلك إلى تحسين الموقف في الاردن. وبعد أن رفعنا تقاريرنا عن الموقف إلى رؤسائنا في قبرص ولندن، اقترح البريجادير بيرسون وأنا باننا يجب أن نكون مستعدين باقل قوة ممكنة وأن نحافظ بمنتهى الهدوء على صمودنا إلى أن ينجلي الموقف، وانه نظراً للصعوبات التي قامت حول العبور الجوي فوق اسرائيل فإنه يتوجب علينا أن ندرس امكانية انشاء خط بديل للمواصلات عن طريق العقبة.

وفي ٢٣ يوليو وصلت التفاصيل إلى عمان حول الفظائع التي انزلت بالعائلة المالكة

العراقية والوزراء الاردنيين في حكومة الاتحاد خلال ثورة بغداد. وكان صديقنا القديم ابراهيم هاشم،رجل الدولة الشيخ، الذي كان قد عين نائباً لرئيس وزراء الاتحاد، ومعه بعض كبار الاردنيين قد ذبحوا بقسوة من قبل الغوغاء في الشارع الذي يقع خارج وزارة الدفاع.

وقد اضطرب بشدة كل من الملك حسين وسمير الرفاعي عندما بلغتهم هذه الفظائع. وكنا كما ثبت بعدئذ نعيش أسوأ مرحلة من مراحل الطوارىء. ولم يصدق أحد من المراقبين الاجانب في عمان، من خارج السفارة البريطانية، انه بالرغم من المساعدة البريطانية والامريكية سوف يكون للمملكة الاردنية أمل بالصمود، وبالفعل فقد كان هناك عدد قليل جدا من الاردنيين الذين آمنوا بمثل هذه النظرية، وكان هذا خلال تلك الفترة التي كانت الطائرات الناقلة تئز فوقنا بفتور وكآبة. وعندما لم يبق ما يبعث على التفاؤل أكثر من هذا، كان الراديو الهاشمي يستمر باذاعة موسيقى القرب طوال اليوم، وعندما كانت القاعات الجانبية في القصر(والتي كانت عادة من احسن المنتديات في عمان، تكتظ بالمرحين والباحثين عن مكان لشرب القهوة)، فقد أصبحت تلك القاعات اليوم خاوية، الا من بعض شيوخ القبائل من ذوي الوجوه الكئيبة، وقد رأيت سمير الرفاعي يوما في مكتبه.. وكان شاحب الوجه، ينظر الى صورة لجسم مشوه بشكل بشع، معلق على احدى الشرفات، وقال لي«انظر هذا عبد الاله»!..

وفي خلال تلك المرحلة كان الاصطلاح (العزم) الذي أطلقناه على العملية ما زال قائما. ولحسن الحظ كان لدى القادة الاردنيين الكثير منه!.. ففي خلال أسبوع واحد من ثورة بغداد، خفت حدة تلك الهزة، وباشرت الحكومة باتخاذ اجراءات مضادة شديدة، وبعد فترة من الركود استعاد الملك حسين نشاطه وبدأ بالبحث عن مخارج فعالة للأزمة، من قلعته على الرابية.

وقبل نهاية الشهر حدث تطور حسن آخر، فقد بدأت سلطات القوات المسلحة البريطانية بتحريك نقليات بحرية عبر قنال السويس وخليج العقبة. وفي (٣٠) يوليو رست باخرتان في العقبة محملتان بالمستودعات الحربية مرسلة من قبرص.

وحان الوقت للقيام بدفن محتشم لما تبقى من حياة قصيرة لاتحاد عربي مشؤوم، ففي ٣١/ يوليو اوضحت للملك ولسمير الرفاعي أن الحكومة البريطانية تنوي الاعتراف بالجمهورية العراقية. وبهذا النبأ، ادرك سمير الرفاعي المبرر لهذا الإعتراف، واتفق معي على انه لا جدوى من التمسك، إلى ابعد من ذلك، بالوهم المتعلق بالاتحاد العربي، اما الملك حسين فقد تلقى بدوره هذا الخبر باهتمام اقل، وكان واضحاً تاثره بالتقاليد والافكار العربية حول واجب الانتقام لقتل اقربائه، حيث كان بالفعل، ولبضعة ايام، قد حشد بعض قواته على الحدود العراقية في مشروع تهديد لبغداد. وفي النهاية تغلبت واقعية سمير. وبعد اعتراف بريطانيا وامريكا وبعض الدول الغربية بالجمهورية العراقية، أصدر الملك حسين قراراً في الثاني من شهر اغسطس وهو في الواقع القرار الذي صفى الاتحاد العربي! .. وفي الوقت نفسه أعلنت الحكومة الاردنية أن البعثات الدبلوماسية الاجنبية المعتمدة لدى الاردن سوف تعامل كما كانت قبل تاسيس الاتحاد العربي. وكان «مايكل رايت» قد قدم في ٧ يوليو اوراق اعتماده للملك فيصل، كسفير لجلالة الملكة في الاتحاد العربي. وبعد ذلك، وقبل اسبوع من ثورة بغداد، عندما كانت السفارة في عمان المكتب المحلي التابع لسفارة جلالة الملكة إلى الاتحاد العربي،ثم بصدور قرار الملك حسين في الثاني من أغسطس، اعدنا الوضع القانوني إلى ما كان عليه سابقاً وهو البعثة المستقلة، وعدت سفيراً للاردن مرة اخرى، ولكنها كانت طريقة حزينة للعودة إلى الحالة السابقة، وقد بدأ الوضع الأمني يتحسن ببطء، وأعيد تعزيز حامية عمان، بكتيبة مشاة أخرى من البدو المخلصين. وقد بدأ الملك القيام بجولات ناجحة في زيارة وحدات الجيش، مبدياً شجاعة امتازت بالتحرك بدون حراسة مخترقا جموعاً من الجنود التي سحبت من بعض الوحدات التي كان يشك في ولائها. ولكن برنامج هذه الزيارات قد ادى اكثر من كل شيء إلى إعادة الهيبة والنفوذ الشخصي لمقام الملك حسين في الجيش وفي جميع انحاء البلاد.

وفي السابع من شهر اغسطس، واستجابة لما طلبناه من كتيبة اضافية، وصلتنا من عدن «الكتيبة الكاميرونية» الاولى. ثم وضعت في تقريري إلى لندن ذلك اليوم أن الوضع الراهن على العموم ليس سيئاً. وحتى في الضفة الغربية أصبح بإمكان الملك أن يعتمد على معاضدة قوية، وبينما كانت القوى المتطرفة الوطنية ما زالت قوية، كان قادتها،

«وهم معروفون للسفارة خلال حكم النابلسي» مجموعة بائسة ... لا امانة فيهم يتصفون بالتردد وعدم الكفاءة، منقسمين ضد بعضهم البعض. أما الملك حسين وسمير الرفاعي فقد كان كلاهما وبدورهما شخصيتين هامتين في موقفهما. وعدا شجاعتهما واصرارهما، كانا يمتازان ايضاً، بالحنكة السياسية، وبقدر كبير من الانتباه واليقظة. وقد قلت بالإضافة إلى ذلك، أن الملك حسين قد أبدى حتى الآن طاقة فائقة من الصمود، وهذا التعبير سوف يوصف به مرات ومرات في السنين القادمة. وكانت المشكلة كما رأيتها في المدى البعيد أكبر من ذلك. فان ضعف مركز الملك يكمن في شعور منتشر في البلاد بانه ما دام باقياً، فلسوف يبقى الاردن معزولا عن جيرانه العرب، ونتيجة لهذه العزلة فان صعوباته الاقتصادية العادية سوف تتكثف كثيراً، وبذلك تزداد حاجة الاردن لاصدقائه الغربيين (امريكا وبريطانيا) من اجل زيادة مساعدتهما المالية له.

وكانت جولات الملك العسكرية قد وصلت القمة في زيارته لسلاح المدرعات في الزرقاء،والذي كان معروفا بالعادة انه لا يعتمد عليه كثيراً، فقابله الجنود بحماسة بالغة، وكانت هذة الزيارة قد وضعت العلامة النهائية الثابتة في الفصل المضطرب ، والذي ظهر خلاله بأن الجسم الرئيسي في الجيش الاردني في الزرقاء، قد ظهر بوضوح اكثر مما هو عليه في عيون القوى الموالية على رابية القصر، وبانه قوة غريبة غامضة، ومنذ الان فصاعداً لم يبق اي شك حقيقي حول ولاء هذه التشكيلات الهامة للملك.

رسالة إلى الوطن في ١٠ اغسطس

عادت «ناتاشا» بسلام يوم الاربعاء الفائت، ويظهر ان الامور لم تعد تبدو سيئة في الوقت الحاضر. وكان الامريكيون قد نصحوا النساء والاطفال بالخروج، وهم معروفون بانهم يضطربون بسرعة، إلا انني لم أجد في الوقت الحاضر ما يدعو لاتباع طريقتهم. ولسوء الطالع حصر (مو) في مصر، ولكني آمل أن أستعيده عندما تعود الاحوال إلى طبيعتها، هذا اذا عادت؟! .. وبنفس الوقت فإنني اقضي وقتا ممتعاً جداً. ولا يعرف

بالضبط كيف سينتهي كل هذا، ولكنني قلت لبعض الناس عندما وصلت للاردن في نوفمبر ١٩٥٦ بانني كنت متفائلاً بصورة غير معقولة، وها انا اجد نفسي بانني ما زلت كذلك. وكنت على حق فيما كنت فيه، مرة اخرى، اما ما تسرده الصحف فهو غير صحيح بالمرة. وكان اكثر ما تنشره تلك الصحف مقبضاً ايضاً، بل وكان بعيداً عن المنطق السليم !! ..

ففي منتصف شهر اغسطس، تغير الوضع جذريا بسبب اجتماع خاص عقدته الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة لبحث الوضع في الشرق الاوسط. وحوالى الخامس والعشرين من شهر يوليو، وبناء على تعليمات وردتني من لندن، قد واجهت الملك وسمير باشا حول الصورة التي ستُتبع في تمثيل هيئة الامم المتحدة في الاردن.

وقد ادرك الملك وسمير اهمية هذا التمثيل كامر رئيسي ضروري منتظر، من اجل انسحاب مبكر للقوات البريطانية المسلحة، وعندما اجتمعت الهيئة العامة كان واضحاً أن الملك حسين كان مهموماً (متحسباً) لئلا تؤدي نتيجة الاجتماع إلى صيغة معقدة ، ويمكن أن تستعمل لتغطي انسحاباً قبل أوانه للقوات البريطانية. الا انه بالنتيجة، عمّ شعور بالراحة التامة، فقد اتفقت الوفود العربية على اقتراح وضعه الوفد الاردني بصورة مسودة قرار يدعو جميع الدول الاعضاء الى احترام سيادة وسلامة أراضي بعضها البعض، وتدعو السكرتير العام، بالتفاوض مع الحكومات المختصة بأن يقوم باتخاذ اجراءات فعالة من اجل تسهيل الانسحاب المبكر للقوات الاجنبية من الاردن ولبنان . وهذه الصيغة، لم تنص كما وردت على اي اقتراح بان تنسحب القوات البريطانية والامريكية الا بعد اجراء الاتفاق مع الحكومتين الاردنية واللبنانية، وهذا يمثل بالواقع نجاحاً صارخاً للاردنيين واللبنانيين، ولوجهة النظر العامة العربية كذلك. وقد ووفق بالاجماع على المسودة العربية بموجب قرار الجمعية العامة في ٢١/اغسطس من ذلك العام.

وفي الوقت نفسه قرر أصدقاء الاردن الغربيون المباشرة بمساعدته في الأمور المالية، ففي الثامن والعشرين من شهر اغسطس أعلمت الحكومة الامريكية الحكومة الاردنية

انها سوف تؤمن للاردن ما مجموعه (٤٠،٠٠٠٠٠٠) اربعين مليون دولارا لمساعدة الميزانية خلال السنة المالية الحالية. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك ايضاً عشرة ملايين دولاراً آخرى، خصصت للتنمية، ويمكن صرفها خلال العام.

وفي السادس من شهر سبتمبر وبتعليمات من لندن، أعلمتُ سمير باشا أن الحكومة البريطانية كانت مستعدة لمنح الاردن مساعدة للموازنة في السنة المالية الحالية بما مقداره مليون جنيه استرليني. وكان هذا المبلغ بالإضافة إلى مبلغ ال(٦٣٠،٠٠٠) جنيه الذي أعددناه للأردن خلال العام، بدون فائدة وكقرض للتنمية، وكذلك إلى تأجيلنا دفعه مبلغ ال(٥٥٠،٠٠٠) جنيه والذي استحق لنا على الاردن في ١/مايو، بموجب تسوية المعاهدة، وكذلك استمرارنا في تحمّل كفالة الأردن بدفع التعويضات لموظفي حكومة فلسطين السابقين، والتي تكلّفنا نصف مليون جنيه تقريباً خلال العام، جميع هذه الانباء حملت شعوراً بالراحة التامة للحكومة الاردنية، وبالتالي للملك الذي اعتبر هذا الحل بمثابة تفهُّم لوضع الاردن المالي.



من الشمال إلى اليمين، المستر همرشولد عند وصوله إلى مطار عمان، دولة المغفور له سمير الرفاعي، والمترجم الذي كان في تلك الفترة مديراً لمطار عمان المدني.

وتنفيذاً للمهمة التي انيطت بالسكرتير العام بموجب قرار الهيئة العامة، فقد قام المذكور بزيارة إلى عمان بين السابع والعشرين والتاسع والعشرين من شهر آغسطس، وقمت انا بزيارة المستر همرشولد عند وصوله، وقلت له إنه من وجهة نظر الحكومة البريطانية فإنه يمكن لهيئة الامم ان تلعب دوراً قيّماً بالإيعاز للقاهرة أن توقف هجماتها على الاردن، وبإعادة تسهيل طرق البر والجو مع لبنان عن طريق سوريا. وقد وافق المستر همرشولد على ان يبذل جهده ما امكن حول هاتين النقطتين.

كان هذا اول لقاء لي مع هذا الرجل غير العادي. وقد مرّت بي في الماضي، بطريقة أو باخرى، تجارب عديدة في الدبلوماسية، لكني هنا قابلت استاذاً محترماً، وعلى مستوى لم ارَ له مثيلاً قبل الآن.

وقد اثّرت عليّ، وتركت في نفسي انطباعاً عميقاً تلك الليونة التي يتّصف بها ذهنه. والثقة التي توحيها إليك. ويشعر الإنسان انه إذا كانت لديه مشكلة ذات صعوبة هائلة مثل هذه، فإنك تجد الرجل يتحسس طريقه، ويشعرك بأنه ليست لديه في تلك المرحلة اية تصورات او فكرة ثابتة حول إيجاد حلول ممكنة، لكنه في الوقت نفسه، يقنعك بأن كل شيء سوف يصبح حسناً وانه بطريقة أو بأخرى سوف يقوم بعمل شيء، يرضى عنه الجميع في النهاية، وينتابك شعور عميق بوحي النظرية (الافروآسيوية) من خلفه، وكان مؤتمر باندونج للدول غير المنحازة قد عُقد فقط منذ عام مضى، وان العالم الثالث اصبح قوة عظيمة في هيئة الامم المتحدة. ولقد كانت إحدى عجائب التاريخ ان تقع مهمة إعطاء تعريف واقعي لهذا الاتجاه الجديد على عاتق السكرتير العام الذي بالرغم من ارستقراطيته النرويجية العالية، بدا في الظاهر وكانه بعيد بعد اي إنسان آخر عن عالم باندونج[1]!..

---

(١) اتصل بي يومذاك دولة سمير باشا وقال لي «يا فهمي» أريدك أن تقابل المستر همرشولد وانت عهدي بك دبلوماسي «ومسحوب من لسانك» وأريدك ان تتحدث إليه وتعطيه صورة مشرقة عن الأوضاع في الأردن وأن جلالة الملك الذي له الفضل الأول في الإستقرار الأردني قد طلب سمير باشا وهو يتحدث معه الآن، وأن سمير باشا سوف يستقبل سعادتك في المطار وخلال الدقائق القليلة القادمة. وهكذا لقد تفتق ذهني عن المشاكل التي مرت بالأردن وأن بُعد نظر وكلمة الملك غطت وحلّقت فوق كل تلك المشاكل وحلها بما يرضي الجميع.

كان هذا اول لقاء لي مع هذا الرجل غير العادي. وقد مرّت بي في الماضي، به حول مسالة الحدود الاردنية الإسرائيلية، وفي الحق فقد صرّح السكرتير لصديق لي بانه يعتبر سمير رجل دولة فذاً في العالم العربي، رغم امر واحد يعيقه، وهو عدم اتصاله بالافكار الجديدة!!..

وقد بدا لي ان همرشولد كان يعتقد عندما وصل، بأن الاردن كان على آخر رمق له، وهذا بالفعل ما كانت الصحف الاجنبية في ذلك الوقت تصور بالإجماع. وقد استغرب الهدوء والإستقرار في الوضع الداخلي، ثم تأثر همرشولد إلى حدٍ ما بشخصيتيّ الملك وسمير القويتين. وقبل أن يترك الاردن وقع على مذكرة تضمنت وجهة نظر الاردن حول جميع النقاط : وهي أن الامم المتحدة يجب ان تُمثَّلْ في الاردن، ولكن ليس بالقوات الدولية، ولا بالمراقبين الدوليين، بل بوجود ممثل خاص لسكرتير هيئة الامم .. فقد صرح سمير في احاديثه انه يرغب «بوجود هيئة الامم» ويظهر ان هذه التعبير قد استُعمل لاول مرة واستمر بطبيعة الحال يُستعمل حتى اصبح معروفاً دولياً، وان انسحاب القوات الاجنبية يجب ان يعتمد، ليس فقط على هذه الاجراءات، بل على تطور «سياسة حسن الجوار» في الشرق الاوسط، كما ثبت من إعادة المواصلات العادية الاردنية عن طريق سوريا، وان يقوم ايضاً الممثل الخاص بلفت نظر السكرتير العام، عن اي تحول في الصحف او الإذاعة عن طبيعة التدخل في شؤون الآخرين الذي نص عليه قرار ١٢ اغسطس، وقد أوضح الملك حسين وسمير الرفاعي إلى همرشولد انه بحسب اعتقادهم لم تُثمر الاوضاع حتى الآن كي تمكنهم من طلب سحب القوات البريطانية، وقد تقبل همرشولد هذا بدون اي تردد، والحق ان القادة الاردنيين قد عالجوا زيارة السكرتير العام بمهارة فائقة اذ انهم ابدوا تساهلاً كافياً كي يضمنوا عطف همرشولد على قضيتهم ولذلك فقد نجحوا بحرية الإحتفاظ بالعمل في المستقبل، وبصورة خاصة، تجنبوا اي التزام حول انسحاب القوات البريطانية، الا بحسب شروط متفق عليها بينهم وبين الحكومة البريطانية.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، وصل إلى عمان السفير (بييرسنبيللي) وهو دبلوماسي

ايطالي يعمل في خدمة الامم المتحدة وقد جاء ليزسس «وجود هيئة الامم المتحدة» ...

وكانت هناك مسألة، شعرت أن واجبي أن اتداخل فيها، مع أنها بعيدة عن محيط عملي الرسمي كسفير اجنبي، لانها قضية داخلية في الاردن. وهي ان عدداً من الارهابيين الذن كانوا مسؤولين عن تفجير بعض القنابل مؤخراً في عمان قد حكم عليهم بالإعدام، وبعد أن سمعت بأنهم سوف يعدمون علناً، سألت سمير الرفاعي حول هذا الموضوع في أوائل شهر اغسطس. وأجاب سمير بأن الملك كان مهتماً بان تأخذ العدالة مجراها وذلك من أجل كبح جماح تسلل الارهابين، وقد قلت أن الشنق العلني سوف يكون له وقع سيء في الراي العام البريطاني، عدا عن ان ذلك يخالف التقاليد الاردنية الانسانية المعروفة، وفي نظري سيكون من المؤسف أن ينزل الاردن إلى مستوى بعض البلدان في المنطقة، وقال سمير انه شخصياً يتفق معي وسوف يحاول جهده مع الملك حسين من أجل هذا العرض.

وبعد ثلاثة أيام تطرقت إلى الموضوع مع الملك حسين، فقلت انني اتحدث بدون تعليمات رسمية، وانني قلق حول النتائج التي تحدث نتيجة الاجراءات الامنية الخاصة، وعلى تاثيرها على الراي العام البريطاني، وان الشنق العلني للمذنبين الذين ادانتهم السلطة هو بالنسبة لنا شيء كريه، كما كانت كذلك ايضا قسوة البوليس، حيث ظهر ذلك في قضية بعض المتهمين الذين قدموا للمحكمة لاعطاء الشهادة وكانت اصاباتهم واضحة، ثم قلت انه ليس من شاني ان اقترح على الملك كيفية المحافظة على الامن الداخلي بصورة جيدة، في الظرف الحرج الحاضر، ولكن شعوري كان انه ما دام أصبح مركز الملك قوياً فإن ذلك سيعطيه الفرصة أن يبدي بعض النواحي الطبيعية الرحيمة (والتي كان بالفعل قد قام بمثلها كثيراً في العام الماضي عندما سمح لبعض المتامرين الفاشلين ان يهربوا سالمين). وبكل بساطة كان اهتمامي بالامر ينصب على انه ما دامت القوات هنا، فلا يجب ارتكاب اي شيء يحول الراي العام البريطاني بدون مبرر، عن أسلوب الحكم الذي جاءوا لمساندته في الاردن.

وقد تقبل الملك هذا جيداً ثم قال انه سوف يرى مايمكن عمله. ولم اسمع شيئاً آخر

عن الموضوع ثم لم يجر اي اعدام علني او غيره.

وبالنتيجة ايضا، اتُخذ قرار حول جميع احكام الاعدام التي قضت بها المحكمة بالتاجيل إلى ان تُدرس من قبل مجلس الوزراء، واخيراً استبدلت جميع احكام الإعدام والسجن المؤبد باحكام ومدد معينة. وبالنظر لتلك الاحوال في ذلك الوقت كان لقرارات الرفق بالمحكومين فضل كبير سُجل للملك حسين وحكومته.

رسالة إلى الوطن - اغسطس ١٩٥٨/٣١

وهنا بدات الامور تتحسن، لكن كانت هناك مدرسة فكرية في لندن وواشنطون، تعتقد ان الاردن لم يكن إلا خسارة ولا فائدة منه، وان افضل شيء هو ان نجعل عبد الناصر يضمه إليه، ولكن بطريقة محتشمة، وذلك بحمل همرشولد والامم المتحدة على القيام بعمل الوثيقة، او بالاحرى، كما استعملت لجنة (رونسيمان) لخلق الصعوبات في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨ كي يتم ابتلاعها. واعتقد ان مثل هذا التفكير ليس دنيئاً فحسب ولكنه جنوني من ناحيتنا ايضاً، وقد ابرقت يومها إلى لندن صارخاً باعلى صوتي ضد اي عمل كهذا، ولا اعلم إذا كانت لندن او واشنطون استجابتا لصراخي او لا، إلا انهما اتفقتا على ترك هذه المنطقة عائمة في الوقت الحاضر. وقد حرفت القصة بصورة غريبة اذ اشيع بان ناصر لم يكن بالفعل يريد الاردن على اي حال، وهكذا، ومن امر إلى آخر، فقد كانت اوضاع هذه المملكة تترنح منذ حين، إلا انها احسن حالاً الان مما كان منتظراً، عدا عن بعض الحوادث وإطلاق الرصاص طبعاً. اما العقبة الثانية التي يجب اجتيازها فهي سحب الجنود البريطانيين، وبدات اتصور ان هذا الامر يمكن تحقيقه قريباً، بدون ازعاج للهدوء الحالي، فلقد كان وجودهم خلال الأزمة وبعد ثورة بغداد مباشرة قد حفظ الاردن من اي انهيار. طبعاً يستطيع الجنود ان يعودوا باسرع ما يمكنهم، ولكن بدون سحب البساط من تحت قدمي الملك.

وللحياة جانب طريف ايضاً. فان ما اشغلني مؤخراً اكثر من همرشولد، وعبد الناصر، ودالاس مجتمعين، هو قضية سفر الملكة الوالدة، واصحاب السمو الاولاد خارج

الأردن لقضاء عطلتهم.

فأول خطة وهي (خطتي) :

تأمين السفر مع سلاح الجو الملكي البريطاني إلى قبرص. ولكن لا، لئلا يفسر هذا وكأنهم يتركون البلاد نهائياً، وعلى كل حال كان ذلك يعني أن يكون الطيران فوق ذلك المكان الذي لا يجب ذكره![1] .. وهو إلى الغرب منا .. والذي يدعوه الانجليز (شمال ويلز)، أو كما كان البريطانيون في ايطاليا يطلقون على موسوليني مجازاً اسم (المستر سميث) ..

والخطة الثانية (موجة تفكير من ناتاشا) :

لماذا يا جلالة الملكة لا تسافرين بالطائرة التابعة لهيئة الامم المتحدة إلى بيروت؟ والجواب كلا، كلا هذا امر معقدٌ كثيراً! ..

والخطة الثالثة من (وزارة الخارجية بلندن) :

عليك أن تنصح الملكة زين أن تسافر بطائرة تجارية إلى بيروت. وكان الجواب غاضب (مني انا) «افضل ان لا اقدم إلى جلالتها بهذه المشورة، لئلا تستنتج منها إمّا ،ننا نجهل الخطر من التحليق فوق سوريا (حيث كانوا قاموا بمحاولة لإطلاق النار على طائرة قبل ايام قلائل ظناً منهم انها تحمل الوفد الاردني إلى هيئة الامم المتحدة)، أو اننا لا نهتم بالأمر» ! ..

والخطة الرابعة (من قبل الاردنيين) :

وعدنا الأمريكيون بطائرة تخص احد الجنرالات من بيروت. وكان الجواب من

---

(١) أي اسرائيل.

الاميركيين بعد ذلك :

« نحن لم نعط وعداً بشيء كهذا ...»

والخطة الخامسة (من سلاح الجو الملكي) :

الطيران إلى خليج العقبة ثم إلى عدن ثم نيروبي .. والجواب نأسف لأن جلالة الملكة زين لا تتحمل مشقة هذا السفر الطويل (وبالحقيقة كانت جلالتها متوعكة كما ذكر).

والخطة السادسة (ايضا من سلاح الجو) :

طائرة الشخصيات الهامة (من نوع فالنسيا) حدث انها كانت في عمان وستعود في الغداة (الاثنين) إلى نيقوسيا بقبرص فلماذا لا تقل الجماعة، وليس ما هو أعقل من هذه الفكرة؟ والجواب الأول منذ يومين : نعم من فضلك. والجواب الثاني (وكان امس صباحاً بعد ان قمنا بالترتيبات اللازمة) كلا وشكراً فلدينا فكرة رائعة، ورتبنا الامر مع المستر همرشولد لاستعمال طائرة هيئة الامم المتحدة إلى بيروت (دون الإعتراف بفكرة ناتاشا وكانت هي الاساسية) والجواب الثالث (كان مساء امس عندما الغينا جميع الترتيبات السابقة) : نأسف شديد الأسف، ولكن المستر همرشولد أعلمنا الآن انه لا يتمكن من اعطائنا طائرة الامم المتحدة بعد كل هذا،ولذلك اذا كان عرضكم ما زال مفتوحاً؟! ..

وهكذا كان الحال الآن،فقد نظمنا كل شيء مرة اخرى للسفر غداً، الساعة الثامنة صباحاً، ولكن هذا يترك وقتاً كافياً لتغير الخطط. أمر مؤسف ولا يمكن للانسان ان يلومهم في شيء فليس من السهل عليهم ان يغادروا البلاد بسهولة.. وهكذا !..

كانت هناك مسالة ثانوية مزعجة بالنسبة لي، ذلك أنني كنت رتبت من الغد، وهو اليوم الأول من ايلول، ان اصحو باكراً حوالي الساعة ٢،٣٠ صباحاً لكي اخرج مع البريجادير (توم بيرسون) لاصطياد الحجل وهو الفوج الاول هذا العام، وبطبيعة الحال لا يمكن ذلك الآن بسبب سفر الطائرة غداً، ويجب ان ينتظر الصيد حتى نهاية الاسبوع التالي.

ولقد ذكرت مشكلة الطائرة هذه لانها تمثل الصعوبة الفائقة لمركز الاردن المنعزل والمحاط كما هو الآن، اما بإسرائيل أو بدول عربية غير صديقة ... وكانت لهذه المناسبة نتيجة دراماتيكية أكبر، بعد ثلاثة أشهر.

الفصل السادس عشر

الانسحاب الثاني

تسجيل في المفكرة - ٢٦ سبتمبر ١٩٥٨:

بدأ الليل يرخي سدوله من شرفتنا، وأمامنا من بعيد وعلى جبل التاج، عبر الوادي وبين الجبلين، حيث تخترق الوهاد طريق دمشق، ترى البيوت في هذا الحيّ الجديد تلقي ظلالها بعنف على الرمال، إنها ظلال باللون الرصاصي القاتم، وكان الشعاع الذي تعكسه الشمس على النوافذ قد انقطع فجأة وبعنف، وبعث الجامع فوق القمّة صوت الأذان، صوتاً قوياً، حلواً مؤثّراً وقاهراً، ثم سكن الكون، اللهم إلّا من صوتٍ كصوت نعيب البوم أو صوتين تدوي بهما سكة حديد الحجاز القريبة، وفجأة يطل القمر القرمزي الجديد على حافة مرتفعات الكثبان الرملية خلف الجامع، وبدا كأنه سيبدأ بالتدحرج على الصحراء المعانقة للأفق من وراء «إكسبرس» الحجاز!

رسالة للوطن في ٥ أكتوبر سنة ١٩٥٨:

وصلت الملاعق والسكاكين بسلام خلال الشهر الماضي، وأثبتت وجودها ليلة أمس في أوّل عشاء دبلوماسي منذ عودتنا. ومع عودة الأمور إلى حالتها الطبيعية مرة أخرى، رأينا بأنه قد حان الوقت كي نقيم مثل هذا الحفل وكان المظهر جميلاً لتلك الملاعق والفضيّات الأخرى على المائدة الطويلة اللامعة، ومع التنظيم الخاص للزهور والشموع الموضوعة في السلطانيات الذي أشرفت عليه ناتاشا!.. وكان هناك عدد كبير من الضيوف

وقد حضر سفير هيئة الامم (وهو مظهر جديد من الدبلوماسية حلّ في عمان حديثاً، وهذا السفير رجل كهل لطيف جداً وهو إيطالي الجنسية)، وكذلك حضر دبلوماسيون آخرون وأردنيون، وضابطات من سلاح المظليين، كلاهما مزيّنٌ بالأوسمة والوجاهة (مايكل فورستر، كتيبة كوينز رويال السابعة)، والذي يقود الكتيبة الثالثة، (وتوني فرار هوكلي) وهو (جلوستر وكوريا سابقاً) وحالياً هو قائد برتبة ماجور في اللواء. وكان هناك أيضاً ضابطان بحريان من الباخرة الحربية الراسية في العقبة، وكلاهما يقيمان معنا خلال عطلة الاسبوع. كانت الوجبة الرئيسية الضخمة - (ولا اقصد بالوصف سفير هيئة الامم)!... مؤلفة من أوزّتين سمينتين اهدتهما إلينا قبل ذبحهما الرئيسة «أم ناتاشا»، واطعمناهما في بستاننا حتى سمنتا...

وكان عدد كبير من الموالين للغرب من الأردنيين قلقين حول فكرة ذهاب قواتنا، ويقولون انه بعد رحيلهم سوف تنبعث الاضطرابات. وهذا تماماً ما ردّده أولئك الناس انفسهم في العام الماضي عندما غادرت آخر دفعة من جنودنا بعد انتهاء المعاهدة، وهنا بدأت أشعر بأن دوري جاء الآن للتحدّث عن الموضوع. الاضطرابات هنا محتملة الوقوع دائماً، ولكنها ليست أكثر احتمالاً من المرة السابقة، إذ أن وصول جنودنا في تموز قد وضع حدّاً لها بدون شك، ويعتقد الملك ورئيس وزرائه الآن بأنهم سيتدبّرون أمرهم جيداً، ومع أنني أنا شخصياً كنت افضل بقاء قواتنا شهراً آخر أو شهرين، إلا أنني لا أعتقد أن باستطاعتي أن أكون ملكياً أكثر من الملك، فالمنطقة كلها غير مستقرة ولكن بعض البلاد المجاورة هي أكثر من الأردن في ذلك. وهناك أسباب أخرى مختلفة قد تجمّعت من أجل الإسراع بانسحاب قواتنا، ففي مستهل الأمر، فكرت الحكومة البريطانية بأن حضور هذه القوات يجب أن يكون لفترة قصيرة، وذلك من اجل تثبيت الاستقرار في الأردن ولمساعدة الحكومة في مقاومة العدوان والتهديدات ضد استقلال وسلامة البلاد، وكنّا دائماً نتطلّع إلى الانسحاب في أقرب فرصة ممكنة، وكان رئيس وزراء الأردن، بدافع وطني عام وآخر شخصي خاص، يعمل أيضاً للغرض نفسه، إذ كان سمير الرفاعي يرغب أن يحسن موقف الأردن في العالم العربي، وذلك بحرمان مصر من تبنّي أسلوب الدعاية بأن الحكم الحاضر في الأردن لا يستمر إلا بحماية القوات الاجنبية. وفي الوقت نفسه، وهذا معقول

جداً، كان سمير يهتم كثيراً بسجلّه الخاص مع الراي العام الوطني. لانه كان الوزير المسؤول عن استحضار القوات البريطانية. ولقد انتظر طويلاً بصبر لكي يصحح سجله، وذلك بان ياخذ زمام المبادرة العلنية التي ترمي إلى انسحاب قواتنا. وكان هناك ولفترة ما مخاطرة ان يتابع هذه السياسة لوحده، كان يطلع علينا بتصريح مفاجيء يأمر فيه القوات البريطانية بالخروج من الاردن، إلّا اننا الآن ابعدنا هذا الخطر بالمراوغة، إذ انه بالرغم من اشتياق سمير للإنسحاب المبكر، إلّا انه ادرك ان ذلك يجب السعي إليه اوّلاً بالاتفاق مع الحكومة البريطانية.

وبعد بضع محادثات اتفقنا على ان الملك، في خطاب العرش الذي سيلقيه في البرلمان يوم ١/ اكتوبر، سيعلن عن انسحاب القوات البريطانية، بانه سيبدا في ٢٠/اكتوبر، واثناء المحادثات مع الملك ورئيس وزرائه، قلت: إنني آتعشّم بان الخطاب سوف يشير إلى وجود القوات البريطانية بعبارات الصداقة والامتنان، واجاب الملك «طبعاً سيكون ذلك، وماذا كنت تنتظر؟..» فاجبت بانني اذكر انني سمعت شيئاً حول (القيود الاستعمارية) وكنت اشير بذلك إلى خطاب الملك حسين بعد انتهاء المعاهدة الانجلو - اردنية في العام الماضي... وقد فهم الملك وسمير ما ارمي إليه وضحكا، ثم قالا: إن الامور تختلف الآن تماماً، ذلك لان بلدينا هما «شريكان» الآن، وكان الملك ورئيس وزرائه واثقين من ان تحسن الوضع الداخلي سوف يسمح لانسحابنا كي يتم في نوفمبر.

وبهذه المناسبة يتحتّم عليّ ان اقرر وانا جد سعيد، بانه في ذلك الوقت، مثلي كمثل المراقبين الاجانب - مع انهم كانوا اقليّة - كنت بخُست الملكية الأردنية حقّها من حيث الحيوية والطاقة. وكان اعتقادي انه إذا تم الانسحاب في نوفمبر فسوف يكون انسحاباً غير موفق، وان قواتنا برحيلها المستعجل، سوف تخاطر بخلق الاحوال نفسها التي أرسلوا ليحولوا دونها. وبالاضافة إلى ذلك فقد اوصيت بان انسحابنا يجب الّا يتم إلا إذا توافرت لدينا دلائل ثابتة بان ناصر سوف يحافظ على احترام قرار الهيئة العامة الصادر في ٢١/ اغسطس، على الاقل فيما يتعلّق بقضية مواصلات الاردن براً وجوّاً. وفي هذه النقطة كان ردّ الفعل عند سمير اكثر دهاء مني واكثر واقعية. وكانت وجهة نظره، والتي وافق

عليها الملك أيضاً، أنه من الافضل اتباع سياسة (الحلقة المشروطة) بين الانسحاب وبين تصرفات ناصر، وبذلك نتجنّب حبوط المسعى وموقفاً نكون فيه فعلاً قد ألزمنا انفسنا بالاحتفاظ بقواتنا في الاردن تحقيقاً لرغبة وسرور عبدالناصر..

ولقد راقت لي هذه الفكرة، وفوق كل ذلك موافقة الملك عليها. وبعد، فلقد كان عرشه المهدد. وكان الملك حسين وسمير أحسن تقديراً لامور بلدهما من اي إنسان خارجي. وكان يمكن أن يكونا مخطئين، وعلى العموم فإن مثل هذه المخاطرة على ما يظهر تستحق القبول. وكان واضحاً أن حوار سمير كانت فيه حكمة عظيمة، وهي اننا يجب ألّا نسمح لعبدالناصر ان يكسب فائدة دعائية وذلك بأن نضع انفسنا في مركز يمكنه من تأخير رحيل قواتنا إلى المدى الذي يقرره هو.

وقد وافَقَتْ لندن على وجهات النظر هذه، وفي اليوم الاول من شهر أكتوبر، أعلن الملك حسين بأن انسحاب قواتنا سوف يبدأ في ٢٠ أكتوبر وسيتم خلال مدة لا تزيد عمّا تسمح به وسائل النقل الضرورية.

وفي آن واحد اتخذت الحكومة البريطانية قرارين فيما يتعلّق بالقوات المسلحة الأردنية. وإجابة للطلب الأردني فقد تقرر إرسال فريق للتدريب يتألّف من ٢٠-٣٠ ضابطاً وصفّ ضابط من سلاح الجو الملكي، بما في ذلك أربعة طيارين هنتر، لكي يعملو قُواداً لجناح الطيران في قوة الهنتر الأردنية خلال فترات التدريب الأولى، وذلك قبل أن يكون العدد الكافي من الطيارين الاردنيين قد تدرّب جيداً، وثانياً، استجابة لطلب اردني آخر، قررت الحكومة البريطانية أن يبقى ضابطان بريطانيان إثنان من الاردن بعد رحيل قواتنا كي يخدما في القوات المسلحة الأردنية كمستشارين. وكان البريجادير ستريكلاند، وقائد الجناح دالجليش، يعملان كضابطي ارتباط بين القوات البريطانية وبين الجيش الاردني وسلاح الجو خلال عملية «العزم» وكلاهما كان قد خدم في الأردن سابقاً وقد تعرفا على البلاد ولغة البلاد. أما «مايك ستريكلاند» فقد كان يقود كتيبة مدرّعات تحت إمرة جلوب، وكان محبوباً ومحترماً في جميع أوساط الجيش الاردني، وكان حسه الإيرلندي وحماسه قد ساعداه على إقامة علاقات صداقة خاصة وحميمة مع العرب، وبنفس الوقت

كان وعيه وإدراكه جيداً، وكذلك كان معروفاً ومحترماً جداً في مراكز وأوساط وزارة الدفاع في لندن[١]، ولم يكن ممكناً لأي ضابط بريطاني آخر أن يكون محبوباً بالقدر نفسه، أما في الخيمة السوداء البدوية أو في شارع جورج الكبير في الحي الجنوبي الغربي بلندن. وفوق هذا كله فقد كانت رفقته مسلية وكان مقلّداً بارعاً. وكان دوره، في الاجتماع الصباحي المنتظم الذي كنت أعقده مع البريجادير بيرسون وكبار الموظفين في السفارة، يستدر الدموع من العيون من كثرة الضحك.

أما «جوك دالجليش»[٢] فقد كان أساساً مدرّباً للملك حسين على الطيران، وكان على صلات صداقة طيبة معه وحائزاً على ثقة جلالته.

وقد تم الانسحاب نفسه بدقّة مثالية، فارسلت المستودعات الثقيلة بالطريق من عمان إلى العقبة، وبدأ التحميل يوم ٨ أكتوبر، وطار إلى العقبة أيضاً «الكاميرونيون» في ١٦/أكتوبر وظلّوا هناك إلى أن تم التحميل. وكذلك تم نقل فرقة البراشوت جوّاً من عمان إلى قبرص وذلك ما بين ٢٥/أكتوبر إلى ٢٩/أكتوبر، وطارت في الوقت نفسه الست طائرات الهنتر التابعة للسلاح الجوي وأصبح تحقيق جميع هذه العملية ممكناً بمساعدة موظّفي المراقبة الدولية تحت إمرة الميجر جنرال (اودبول) رئيس فرقة المراقبين بهيئة الأمم في لبنان، الذي استعير لهذا الغرض.

وفي الثاني من نوفمبر تم الانسحاب الكامل مع إقلاع الكاميرونيين في العقبة على ظهر السفينة (سيلون) (H. M. Ceylon) وسفن أخرى، ذاهبة «براكبيها» إلى مراكزهم في

---

(١) البريجادير ستوكلالد كان فعلاً «مسخرجي درجة ١» وقد عرفنا عليه القائد دالجليش.

(٢) طيار جلالة الملك، وقد عرفته، كنت أول ما أراه أضحك وأضحك فكان يستلمني بنكتة وراء نكتة، ولا ينفك يروي لي النكت المضحكة حتى «أستوي من الضحك!» أما جوك دالجليش الذي كانت تربطني به صداقة حميمة فهو صاحب قصة الطائرة التي سافر بها جلالة الملك بإجازة راحة واستجمام، وفي أثناء سفره متّجهاً نحو قبرص كان دالجليش يقود الطائرة، وفجأة حلّقت طائرتان (عرفهما دالجليش).. وكانتا من طائرات سلاح الجو السوري وهو السلاح التي يتبع الدول الشرقية الشيوعية آنذاك والتي حلّها الرئيس حافظ الأسد بعد استلامه الحكم، والذي كان محبّاً وصديقاً للملك حسين. وحاولتا جادتين إجبار الطائرة التي تحمل جلالة الملك بالنزول في سوريا، ولكن دالجليش الخبير في الطيران وأستاذ الطيران وبحنكة عظيمة استطاع أن يعود إلى عمان وضلل الطائرتين بمهارة متميزة عائداً إلى عمان بسلام.

كينيا. وقد طار الملك حسين إلى العقبة لحضور حفل الوداع حيث نقلنا بطائرته الخاصة (دوف) مع رئيس وزرائه ورئيس هيئة الأركان وأنا. وقد كان الملك يجلس في مقعد القيادة وقرر أن يطير مع تشكيل متماسك بين طائرة داكوتا مستأجرة، تقل معظم الضباط الكبار في جيشه وبين طائرة «فامبير» من سلاح الجو الملكي الأردني. والملك حسين طيار محنّك، ولكن عندما كنت أراقب هذه الطائرات تقفز بشدة من فوقنا ومن تحتنا وتكاد تحتك بأجنحة طائرتنا شعرت بأني أفكر رغماً عني في: «ما تكون النتيجة لو أن التشكيل ازداد قرباً منّا أكثر من ذلك؟»!.. ويظهر أن الأفكار نفسها كانت تدور بخلد ضابط أو اثنين من ضباط الجيش الذين اخضرّت وجوههم تحت الشماغ.. ولكن سار كل شيء سيراً حسناً، وحلّقنا فوق الخليج حيث كنّا نحوم فوق تشكيلات رائعة من البواخر البريطانية والناقلات المنتظمة الراسية هناك. وقد زار الملك الطراد (سيلون)، وقوبل بتحية ملكية، سمعنا صداها يدوي نحونا من فوق صخور إسرائيل الحمراء.

ثم تبودلت المجاملات العسكرية بين حرسي الشرف البريطاني والأردني، وأخيراً احتسينا قدحاً من الشمبانيا على ظهر باخرة محمّلة.

ثم انتهى الحفل، وكانت لحظة حزينة، ولكنها كانت أقل تأثيراً من المناسبة السابقة منذ ١٦ شهراً فقط، عندما أغلق رحيل فرقة الهوزار العاشرة آخر فصل من فصول المعاهدة. وكانت تلك نهاية عهد طويل من «المتناقضات المضطربة»، وكان الحفل الحاضر قد سجل نهاية مرحلة ضيقة وقصيرة فقط، لم تُنتج إلا الخير في العلاقت السعيدة التي تقوم مرة أخرى بين بريطانيا والأردن.

ولا يمكننا أن نمدح كثيراً تصرّفات القوات البريطانية خلال إقامتها، فلم يكن هناك أية حادثة «توريط» مع الأردنيين، وكانت مهمة تلك القوات قد تمّت بدون إطلاق رصاصة واحدة. وقدمت تقريري في أن الفضل الأكبر يعود إلى البريجادير بيرسون وضباطه، ليس للكفاءة التي أبدتها تلك القوات حين قيامها بواجباتها الحساسة، ومهمتها الممتحنة للأعصاب، ولكن أيضاً للخلق الرائع الذي تميّزوا به في ثكناتهم الحارة الرملية تحت الخيام في مطار عمان أو في رمال الصحراء في العقبة.

الفصل السابع عشر

آخر السفن الحربية، إلّا واحدة

إذا ما تحدّثنا من الناحية التاريخية، نجد أن الحملة الاردنية سنة ١٩٥٨ كانت آخر حملة عسكرية بريطانية تدخّلت في الشرق الأوسط. عدا عن آخر جميع الحملات وهي حملة الكويت في سنة ١٩٦١، والتي كنت مهتماً بها ولكن بصفة مختلفة، وعندما أكتب عنها اليوم، في جوٍّ يختلف تماماً عن أوائل السبعينيات، يصبح من الصعب تصوّر الأوضاع التي يمكن لمثل هذا التدخل أن ينجح.

وأول شيء يجب ذكره حول عملية (العزم) هو أنه، إذا استثنينا الارتباك المبدئي حول مسالة الطيران فوق إسرائيل، فإن هذه العملية قد أديرت بمنتهى النجاح من كلا الجانبين: «لندن، وقواد القوات المسلحة في قبرص». ولقد كانت العملية مثالاً للعسكرية السياسية، وقد حققت كل ما وُضعت من أجله.

وخلال وجود قواتنا، تحسن الوضع في الأردن بصورة لا مثيل لها. وعند وصول القوات البريطانية في ١٧/يوليو، كان حكم الملك حسين ما زال يترنّح من صدمة ثورة بغداد. وكانت العائلة المالكة تتمركز خلف الاستحكامات الدفاعية فوق هضبة القصر. ولم تفارق الملك شجاعته، ولكنها كانت شجاعة يائسة. وباستثناء رئيس الوزراء كانت معنويات الحكومة نفسها مهزوزة. وكان موظفو الحكومة يروجون لجميع القادمين بصراحة عن وجهات النظر الناصرية والمعادية للهاشمية. وكان معاضدو الملك قد وضعوا

تحت مراقبة شديدة الجسم الرئيسي للجيش الاردني في الزرقاء وكأنه وحش خطر، ووصلت عزلة الاردن من جيرانه العرب في بضعة أيام إلى حالة تشبه الحصار.

وعندما رحلت قواتنا، بعد ثلاثة اشهر تقريباً، كان يمكن للأردن ان يكون بلداً مختلفاً فنظام الحكم اشتدّ ساعده اكثر مما كان قبل ثورة بغداد. وخلال شهر من رحيل قواتنا أصبح الملك ووزراؤه يشعرون بالقوة حتى أنهم ألغوا حالة الاحكام العسكرية العرفية!.. التي فرضت في نيسان ١٩٥٧ . ولأول مرة منذ سنوات لم يبق في الأردن أيّة احكام عسكرية، لا ولا اضطرابات أهلية مزمنة.

ونتساءل، كيف تم الوصول إلى مثل هذا التحوّل؟

أولاً: اكبر الفضل يجب ان يذهب بدون شكّ إلى بريطانيا، وذلك لأن حكومة المستر ماكميلان كانت جاهزة. بموجب طلب الأردن، لكي تُرسل خيرة جيشها وباقصر إنذار ممكن،ثم تسحبه على الفور بمجرد طلب ذلك منها، كان هذا شيئاً ادهش الراي العام المحلي. فقد كانوا يقولون «سوف لا يأتون ابداً» وبعد ان ثبت خطاهم في الحالتين، اصبح معمل الإشاعات الناصري في عمان يشعر كما لو أنه بدأ يفلس ويغلق ابوابه.

واكتشف الأردنيون شيئاً آخر وهو أن هؤلاء الجنود المحترمين لم يكونوا استعماريين على الإطلاق، بل كانوا أصدقاء طبيعيين، وأفراداً متواضعين. وبالنتيجة: كانت علاقتنا الجديدة مع الاردن، والتي كانت تدريجياً تتخذ شكلاً ما منذ إنهاء المعاهدة سنة ١٩٥٧ قد بدأت فجأة تتبلور. وكان البلدان (بريطانيا والأردن) ليس متحالفين فحسب بل افضل من ذلك، اي انهما اصبحا الآن شريكين، وهكذا فقد عدنا مرة أخرى خير الأصدقاء للأردن. وقد طلب إلينا ان نرسل مستشارين للخدمات، ومدربين من سلاح الجو الملكي، وهذا الوضع

(١) Sussex سسكس مقاطعة جميلة جداً جنوبي لندن تقع على القنال الإنجليزي، ويسكنها جلوب حالياً.

سيجعل جلوب باشا حيث يسكن في ظلال مقاطعة (سسكس Sussex)[1] يشعر بالإعجاب أو لعلّه الاستغراب التهكّمي!...

ثانياً: ما كان يمكن للأردن أن يعيش بدون العون المالي والاقتصادي من الولايات المتحدة الاميركية، وبحكمة، قرر الاميركيون إعطاء هذه المعونة اعتماداً على الخبرة الماضية. وبالإضافة إلى هذا فإن الحكومة الاميركية مدّت يد المعونة القوية هذه على الرغم من قسط كبير من المشورة الانهزامية، كان يأتيهم من الخارج ومن بعض خبرائهم عن الشرق الأوسط في واشنطن.

ثالثاً: إن نفوذ هيئة الامم قد تأكد في الأردن بتأثير ملموس خلال تلك المدة، ومن تاريخ وصول الممثل الخاص للسكرتير العام في أواخر سبتمبر، أصبح «وجود هيئة الامم» قوة معترفاً بها. وكان السيد (بيير سبنللي) وهو سفير إيطالي كبير، وذو دهاء وجاذبية، قد لعب دوره الصعب بمهارة، وسرعان ما اكتسب ثقة الملك وسمير الرفاعي. وحتى ذلك الحين، كان الأردنيون قد قدّروا أن وجود هيئة الامم في الشرق الأوسط هو أمر غير ذي تأثير، بينما في الحقيقة لم يكن وجودها ضاراً؛ نعم، لقد اخفقت في تقييد النشاطات على الحدود الإسرائيلية في منطقة القدس، ثم إنها تُغطي على عبدالناصر في غزة، وتلعب لعبة عبدالناصر في الاضطرابات اللبنانية!..

ولكن باكتشاف قدرة هيئة الامم على الوصول إلى نتائج إيجابية، جاءت مفاجأة نافعة لنظام الحكم في الأردن، فقد تمكّنت من إنهاء الحرب الإذاعية والحصار، وكان تحقيق هذين الهدفين بمثابة ريشتين ممتازتين في الطاقية الزرقاء «طاقية هيئة الامم»[1].

ولكن معظم المجد يجب أن يذهب إلى القادة الأردنيين أنفسهم. إذا أنه بمعرفتهم

---

(١) Blue Beret هي الطاقية الزرقاء التي يلبسها العسكريون في هيئة الأمم المتحدة.

التامة بالمصير الوحشي الذي حلّ بأصدقائهم العراقيين، فإن الملك وسمير، بممارستها إصراراً خاصاً، وهذه صفة نادرة في الخلق العربي، قد أعادا الوضع إلى ما كان عليه. وفي خلال هذه العملية، برز الملك حسين قائداً ذا نوعية لا شكّ فيها. وبهيبة ومكانة[1] لم تقتصر على الاردن فقط، والحق أنه لم تكن لديه «الافكار الجديدة» من خلفه، ولكن بالمقابل كان يملك المزية بانه لا يدّعي بانه يمثّل أكثر مما هو فيه.. والأفكار هي كالدكتاتورية، يمكن أن تكون مزيّفة.. لكن مع مرور الزمن يصبح العرب كغيرهم من الناس قادرين على التمييز في كلا الحالتين.

وقد أثبت سمير الرفاعي نفسه مرة أخرى بأنه السياسي المحترف والفعّال من أعلى المستويات. وفي بعض الاحيان كان يقوم باتخاذ إجراءات متسرّعة، ثم يندم عليها بعد ذلك، لكنه عندما كان في أوجه، أبدى ثباتاً في الاحتراف السياسي، الأمر الذي يجعلك تسعد إذ تراقبه، وبصورة خاصة كان لديه حسّ رائع للتوقيت، تماماً كالحسّ الصحيح عند لاعب الجودو الماهر، الذي يوقع خصمه بخفّة، بينما كان يُظهر أمامه الاذعان!..

وإنّ ما قام به الملك وسمير منذ تموز قد أوضح كثيراً من الأمور التي يمكن تحقيقها من خلال الصفات الإنسانية في هذا العصر الاتوماتيكي، وأظهر أيضاً، أنه بالرغم من وجود القنبلة الهيدروجينية، كان ما زال هنالك قوة بقيت في قانون نابليون حول الصلة بين القوة المعنوية، وبين المادة.

ومع ذلك فإن فتوى نابليون كانت معنية بقضايا الحروب، أو على أبعد تقدير بقضايا الحملات - وليس بالمستقبل الكامل للبلاد. ولم يكن ممكناً إطلاقاً أن ينتظر من الملك وسمير أن يتحمّلا إلى الأبد عملية من نفس النوع الذي وقع في وجه المخاطر الداهمة من الاغتيالات، والامراض، والأخطاء السياسية المجرّدة!.. وكان من المحتمل جداً أنه لولا القيادة الماهرة، لانهارت المملكة الهاشمية بسبب ضعف اقتصادياتها وبنيانها السياسي،

---

(١) وما زال الملك حسين وإلى أيامنا هذه القائد المحنّك، بعيد النظر. ذا هيبة ملوكية متأصّلة فيه مع وداعة وخلق رائعين، فهو يستمع إلى ضيفه بإصغاء دبلوماسي، ولو كان الحديث لا يعجبه أولا يوافق عليه، إلا إنه لا يُشعر محدّثه بأية علامة تدلّ على القبول أو الرفض وبطريقة عجيبة من التهذيب الهاشمي المتميّز.

(وكان اعتمادها على المساعدة الاقتصادية الأجنبية قد فرضه الجفاف بقسوة، وهو أمر قد تبيّن في نهاية العام انه اتّـخذ نواحي خطيرة جداً.

وبالاختصار، كان الفضل يعود إلى العامل الإنساني مع المرونة الرائعة والقدرة على مجابهة الأخطار، مما جعل الاردن يجتاز طوارىء سنة ١٩٥٨ - بكل شجاعة وسمو. ولكن السموّ، كالوطنية، لا يكفي، فكان الخطر كما رأيته يكمن في إمكانية عدم استقامة الميزان، وأن الحقائق القاسية في مركز الاردن المادي كان يمكن أن تتحالف مع الفناء البشري، أو مع الضعف وارتكاب الأخطاء المتلاحقة!..

أما من الناحية الأخرى فلم يكن ناصر ولا بوقه الاردني، النابلسي، هما العامل الأساسي، بقدر ما كانت القوى التي صنعتهم، وكان من الجنون أيضاً عدم تقدير أهميتهم، أو بالتالي إهمال ضرورة الحاجة للاتفاق معهم، وبالحق، لم يتمكّن أي إنسان أن يحاول ذلك إلى أبعد حدّ مثلما حاولت أنا مع حكومة النابلسي منذ سنتين. وكان الأساس، كما نصحتُ لندن، أنه من الانهزامية بمكان أن نفترض بأن القومية العربية يجب أن تكون بالضرورة ضد الغرب، ذلك لأن العرب يملكون الإدراك الحسي أكثر مما تظهره تصرّفاتهم بعض الأحيان. فإذا ما عالجنا الأمر جيداً، وعاملناهم بالتساوي، وتقدّمنا بالمساعدة عندما تكون المساعدة ممكنة، ولكن بحكمة وتوجيه، فلا يبقى هناك سبب يجعلهم ينجذبون نحو الشرق، بل على العكس فإن لديهم الكثير مما يشتركون فيه مع الغرب أكثر من العالم الشيوعي، هذا عدا ما هو معروف من أن المجتمعات الإسلامية لا يمكنها أبداً أن تتعامل مع الشيوعية - وهذا منطق مريح ومغلوط لو وجد. وكنت أفكر بشيء مختلف: إن الخلق العربي فيه ميّزات. وهي إن لم تتضح، مسلمة كانت أم مسيحية، لكنها شيء مشترك بين الديانتين، ألا وهي قوة الاحتمال واتساع الأفق عندهم، والتي لها شبه قوي مع الميّزات الرومانية القديمة الإنسانية، ولو أن الرب تمكن أن يماشيهم في هذه الصفات، وإذا، (وإذا هذه، مشكوك فيها كثيراً) ما تمكن الإسرائيليون من أن يتّصفوا بالشيء نفسه، فلا أرى أي سبب للياس حول مستقبل هذه المنطقة.

لقد كان هناك ناتجان مفيدان بتدخلنا، أولهما، ثبت أن التعاون البريطاني الاميركي

في العالم العربي هو أمر ممكن، ليس فقط على المستوى الحكومي الداخلي بل الخارجي أيضاً. ولأن هذا التعاون قد تمّ في الأردن تحت القيادة البريطانية فإن هذا الامر لا يقلل من نجاحه. وكان ذلك مؤثّراً أكثر، نظراً لاختلاف وجهات النظر المعروفة والتي كانت قائمة بين سفارتي بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، خلال الأزمة، وبإسهاب فإن سفارة صاحبة الجلالة كانت تعتقد بان الأردن سوف يجتاز هذه المحن، بينما كان الأمريكيون يعتقدون بنقيض ذلك تماماً. وبالرغم من الاختلاف الاساسي في وجهة النظر، بقيت العلاقات البريطانية الامريكية في الأردن على خير ما يرام. وكانت هذه الأسس قد وُضعت قبل حالة الطوارىء، عندما اتّخذت الحكومة الامريكية قرارها الكريم بتزويد الأردن بكميات كبيرة من المعدّات الحربية البريطانية. ثم كان التفاهم بين الحكومتين انه بينما يزوّد الأميركيون بالمعدات، تكون مسؤوليتنا نحن بالتدريب عليها، وكان المستشاران اللذان تـخلّفا بعد رحيل لواء البراشوت، وهما (البريجادير ستيركلاند، وقائد الجناح دالجليش)، قد أصبحا نواة لبعثة الخدمات البريطانية المشتركة، ومع مشورة هذه البعثة جاءت زيارة فريق رقابة من الجيش الامريكي وهو الذي زار البلاد خلال شهري اكتوبر ونوفمبر، وكانت القوات المسلّحة الاردنية بنهاية العام قد أعيد تنظيمها وأصبحت تقوم بالتدريبات العادية بعد سنتين من القيام بواجبات الامن الداخلي، وكان الامر مرضياً في أن المساعدة الانجلوامريكية للأردن في هذه العملية بدأت على أسس خالية من الغيرة والمنافسة. وفي الوقت نفسه كان هناك عملية دراسة متساوية حول مستقبل ومشاكل الأردن المالية، تعدها الحكومتان البريطانية والأمريكية.

وثانياً: فإن إنجازاتنا ونجاحها قد كشف عن الدور القيم الذي ما زال بالإمكان أن تلعبه بريطانيا في العالم العربي، وهذا هو موضوع هام، ويصعب الابتعاد به عن البداهة في المفاهيم ورؤية الاشياء على حقيقتها. وعند التقدّم إلى العرب كان من الخطأ أن تثبط عزيمتنا بشعورنا بالذنب أو ببعض العقد الخاطئة من الشعور بالنقص، وقد ظهر بالفعل أن هناك ما يستحق ذكره كثيراً في قضية العلاقات والتي كان حكم الواقعية قد أخذ ينتشر فيها بالأردن: المساواة، ووضوح المحادثات فيما بين الطرفين، والمشاركة (وهي الكلمة المفضّلة والتي كان يرددها دائماً الملك حسين) بدل التحالف، ثم هناك نقطة هامة

جداً وهي تقديم المشورة البريطانية عندما تُطلب وليس غير ذلك، مثلاً، عرض حالة التشاور وليس فرض المشورة.. وعلى هذا الاساس انبات لندن بان سجلنا وميزاتنا الخاصة سوف تمكننا من الاستمرار في تقديم المعونة الممتازة إلى العالم العربي كما فعلنا في الاردن سنة ١٩٥٨ . وإذا ما أخفقنا في القيام بذلك تحت اية دوافع - كالخنوع الذي لا مسوغ له، او التلهُّف والشوق بعد الهدوء المريح، فإنني اخشى ان اجد الأمريكيين وحدهم غير اكفياء للقيام بالمهمة «وأن تصرفاتهم في الأردن خلال هذا العام تظهر بوضوح حاجاتهم الماسة كي نطعمّهم بالإدراك الحسن، والعزيمة خلال الأزمات، واقترحت بأنه نتيجة لمثل هذه التنازلات من جانبنا فإن ذلك يمكن اعتباره بأنه تقديم أعظم انتصار للشيوعية منذ ان غزت الصين.

«ولا أعلم إذا كانت (كاساندرا)[1] قد سُرّت بان تجد تنبؤاتها قد تحققت حرفياً. أما بالنسبة لي فقد كانت التجربة تقريباً حزينة ولا تطاق».

وفي الوقت نفسه اكتشفت عاملاً هاماً كان يعمل لصالح استقلال الاردن ويمكن أن يستمر هكذا على اي حال في المدى القصير. إن الصعوبات الاقتصادية والاستراتيجية في البلاد اصبحت معروفة جيداً، لدرجة انها توحي لمن يفكر بالاعتداء أن يتردد. وبدا الاحتمال واضحاً بانه لا عبدالناصر ولا قاسم في العراق يرغبان الآن في تعقيد مشاكلهما القائمة إلى أبعد من ذلك بخلق حالة تشويش مباشر في الأردن. اما من ناحية إسرائيل فهي لا ترغب في شيء أكثر من أن ترى أسلوب الحكم الحالي يستمر في البلاد، وكان ممكناً تماماً أن تستمر المملكة الهاشمية في صمودها إذا ما بقيت هذه القوى الثلاث تعمل على ذلك. وكان مشجّعاً أنه بنهاية العام. وبالرغم من الصعوبات الجديّة، فإن هدوء كافياً قد تحقق وتم التوصّل إليه في العلاقات الاردنية مع الجمهورية العربية المتحدة. وكانت جهود كل من همرشولد وسبينيللي قد لعبت دوراً مسالماً إلّا انه كان فعّالاً في هذه العملية. وإذا استمر الحال على ذلك، فلا أرى سبباً يحول دون عودة الأردن يوماً إلى علاقاته الطبيعية مع جيرانه العرب دون أن يضحي بمظهره العام الموالي للغرب.

---

(١) (كاساندرا Cassandra) هي ابنة «بريام» التي كانت تنبؤاتها مقدّراً لها أن يتوّلاها «أبولو» بأن تكون صحيحة دائماً لكنها لا تصدّق ويطلق هذا التعبير في الأدب العالمي على كل من يطلق نبوءة مهملة ومدمّرة (علم الأساطير اليوناني).



الفصل الثامن عشر

عودة إلى الحالة الطبيعية

وفي وسط هذه الاحداث الدراماتيكية، استمر تطوّر الوضع الاقتصادي المسالم في الاردن. وفي يوم من شهر اكتوبر افتتح الملك باحتفال كبير الطريق الجديدة من عمان إلى البحر الميت، وكذلك فندق البحر الميت الجديد. وهذه الطريق التي انشاها برنامج المساعدة الامريكية قصرت الوقت بالسيارة بين عمان والقدس بمقدار نصف ساعة، وكان الفندق على البحر الميت يقع في منتصف الطريق بين عاصمتين.

وقد كانت المناسبة نموذجاً اردنياً في ذلك الوقت وهو خليط من الاحتياجات الامنية المشددة «واللخبطة غير الرسمية». وتاخر الملك عن الحفل قليلاً وكان الضيوف - وهم الحكومة، ورؤساء البعثات الدبلوماسية، والخبراء الامريكيون - يقفون هناك بينما كانت فرقة موسيقى الجيش تعزف خليطاً من الالحان التقليدية، إلى الحان (Strath-Peys) والحان هزّ البطن، وتنقلنا هذه الموسيقى من (Aboyne Games) إلى الحان مدام بديعة في القاهرة، ومن ثم عودة سريعة إلى اللحن الاول وهكذا... وكان كبار ضباط الجيش الاردني بكامل هيئتهم يقفون في مكان بارز وأمام فرقة الموسيقى وقف رؤساء العشائر البدوية، واصواتهم الواثقة تعلو بالصياح، وكذلك اصحاب القبعات المقصّبة الصفراء العادية والبريطانية الشكل، وكذلك النظارات السوداء والسجائر في مماسكها الطويلة، والصفعات على الظهور، وانفجارات من الضحك حول نكت يتبادلونها فيما

بينهم. وكان يقف في زاوية أخرى الخريج المعروف من «كوفنتري» وهو خصمهم الرئيسي، نائب رئيس الأركان الميجر جنرال صادق الشرع، وقد ترك لوحده لا يجد أحداً يكلمه، عدا شخص سياسي من منطقته، يشبه وجه الثعلب..

وأخيراً ظهر الموكب الملكي من فوق التل، بالطقم المسلح الامبراطوري بتشكيلته المعتادة المربعة والمؤلفة من سيارات الجيب والدراجات النارية، وهكذا بدأ الحفل. وقدم رئيس الوزراء خطاباً، ورفرفت الاعلام، ودوت الموسيقى وبدأ الوزراء يمتصون شراب البرتقال من خلال مصاصات وضعت في الزجاجات، ثم قطع الملك الشريط، وسرنا بسيارتنا بعد ذلك تنحدر في الطريق الجديدة لتناول طعام غداء الافتتاح في الفندق الجديد.

وكان يوماً برّاقاً من أيام الخريف حيث يمتد البصر بعيداً، وتشم في الجوّ رائحة الحجل، ومن خلف القافلة من القمة يمكن مشاهدة زمرة الملك تنزلق سريعاً في الطريق العريض وكانت سيارات الجيب المدرّبة جيداً وكذلك الدراجات النارية تسير بجانب سيارة الملك محتفظة بالمسافة تماماً بينها وبين سيارته وكأن الزمرة كلها كانت قطعة واحدة تتحرك كاللعبة التي يحركها جهاز كجهاز الساعة. وكان البحر الميت يتألق تحتنا، ويبعد عنّا (٤٠) ميلاً، وكنت ترى خلف هذا المنظر السلسلة السوداء من جبال الأردن، والمناطق القفراء من أرض الميعاد، ترتفع بشكل متعرّج مضطرب من خلفها. وكانت الأبراج فوق جبل الزيتون تقف شامخة كأنها تبعث الوحي من خلف الأفق.

وكان فندق البحر الميت نموذجاً فخماً من إنجازات الأردن، وقد بني دون اعتبار للتكاليف، ويضم (نادياً ليلياً) يطل على الماء، وقد صمم لينافس صناعة التسلية في بيروت بل ويسبب لها الإفلاس.. وفي كل حمام ركبت فيه ثلاث حنفيات - الماء الساخن، والبارد، وماء البحر الميت. وقد استورد لإدارته مديرون سويسريون وخدم سودانيون يلبسون الجلابيات الجديدة ويعتمرون العمم، وخيل إليّ أن الفندق يجب أن يكون دائماً ممتلئاً بالضيوف، بتكلفة عشرة دنانير للشخص الواحد في الليلة الواحدة، وفي عملة تلك

الايام، لكي يتمكّن من أن ينجح، أما الاردن فيجب أن يصبح مستقرّاً تماماً كمدينة (ستراتفورد - أون - إيفون)[1] قبل أن يتمكن من اجتذاب السياح إلى ذلك المستوى!..

وبعد الأحداث المضنية التي سبقت في الاشهر الثلاثة الماضية، أصبح الملك حسين بحاجة ماسة إلى الراحة. وقد حصل على تصريح بالطيران فوق سوريا بطريقه إلى قبرص ثم إلى لندن. وكان قائد الجناح دالجليش، وهو قائد بعثة التدريب التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني يطير معه.

وفي صباح العاشر من نوفمبر وبعيد الساعة الثامنة بقليل غادر الاثنان بالطائرة وهي من نوع (دوف) تابعة لسلاح الجو الملكي الأردني. وبعد ربع ساعة كانت الطائرة تعبر الأجواء السورية. ومن الواضح أن مراقب الطيران السوري كان ينتظر الطائرة وأعطاها الاذن كي تستمر بعبورها أجواء سوريا، ولكن بعيد التاسعة بقليل اتصل ليقول إن الطائرة لم تحصل على التصريح لتطير فوق دمشق ،انها يجب أن تنزل هناك. فأجابت الطائرة بأنه على العكس لقد حصلت بالفعل على التصريح لتطير فوق دمشق ولكن ليس لديها إذن بالهبوط هناك، وأصرّت المراقبة تقول «يجب أن تنزل في دمشق». وفي هذه اللحظة قرر الملك ودالجليش أنه من الأفضل أن يعودا إلى عمان - ولكن بدون إطلاع المراقبة السورية على هذه الخطة. وطار دالجليش قريباً من الأرض وذلك كي يتجنّب الرادار، وفجأة ظهرت طائرتا «ميج» وابتدأ بما يشبه التهجُّم على الطائرة (الدوف) ولم يشاهد دالجليش أيّة انفجارات نارية ولم يصب الطائرة أي خلل، ومع ذلك فهو لم يكن متأكداً إذا كانت النار أطلقت عليه أم لا ذلك أنه في الحالتين تفادى الهجوم بأن أخذ يطير بمواجهة الطائرة المهاجمة لكي يتمكّن من حجب رؤية طائرته. وقد شاهد أيضاً أن طائرات الميج قد طوت أجنحتها واستعملت ضاغطات السرعة «البريكات» وكانت تهاجم من علو شاهق في كل مرة، ولم تشاهد الإشارات التقليدية المرئية التي تأمر الطائرة بالهبوط مطلقاً. وتابعت طائرتا الميج ملاحقتها لطائرة (الدوف) إلى أن وصلت جنوب طريق المفرق من الاجفور (H4) وبعبارة أخرى في داخل الحدود الأردنية. وكانت

(١) Stratford - on - Avon مدينة المسارح الجميلة في شمالي إنجلترا حيث ولد الشاعر الإنجليزي العظيم «وليام شكسبير».

(الدوف) بمحاولتها تجنّب الهجوم قد تفادت بأعجوبة تصادماً باحد التلال المنخفضة، وفي نقطة ما، كادت طائرتا «الميج» تصطدمان ببعضهما البعض تقريباً، واعتقد دالجليش بأن أحد طياري الميج الاخرى كان عديم التجربة، ومن حسن الحظ انهما لم يهاجما في آن واحد وإلا كان استحال عليه استعمال «تكتيكاته» الفنية لتفادي الهجوم.

ولم يكن هناك شكّ في أن خطة سوريا كانت إجبار الملك على الهبوط في دمشق وإرغامه على التنازل عن عرشه، وبهذا يتمكّن ناصر من الاستيلاء على البلاد[1] ومن المؤكد أن سلامة الملك حسين كان مرجعها إلى ضبط أعصاب ومهارة جوك دالجليش «الذي جاءني بعد هبوطه مباشرة وحدّثني بتفاصيل ما جرى. وقد بدت هذه المخاطرة أشد وحشيّة، عندما حدّثني بها هذا الرجل الشديد الهدوء بصوته الأجشّ ولكنته الاسكتلندية (الأدنبرية) الدقيقة.



جلالة الملك حسين وقائد الجناح الطيار دالجليش

(١) حضرت بنفسي وصول أو بعبارة عودة الطائرة المقلة لجلالته ويقودها دالجليش، عندما كنت مديراً لمطار عمان المدني ونزلت الطائرة بسلام في مدرج المطار العسكري بعد أن علمنا تفاصيل الهجوم على الطائرة الملكية وفرحنا بلقاء سيد البلاد سليماً معافى ورافقنا جلالته إلى قصره العامر.

وكانت حادثة الطيران هذه فوق سوريا قد اقنعت الملك بأن الله تعالى ما أراد له أن يذهب في هذه الإجازة، ولذا فقد ألغاها في الوقت الحاضر.

وقد قامت الاحتفالات بنجاة الملك بمظاهر جنونية من الحماس المخلص والتي جعلت من العسير على أي صحفي أجنبي مهما كان مغرضاً أن يستمر في مقالاته حول «عدم رواج الملكية»!..

رسالة إلى الوطن، ٢٩ ديسمبر/ ١٩٥٨

دخلت مكتبي صباح هذا اليوم لأجد فوق أوراقي مغلفاً رسمياً كبيراً أخضر اللون محشوّاً بحزمة من الأوراق. وكان هذا نادراً جداً وشخصياً، ولا يفتحه غيري، وظهرت بالنتيجة برقية من الوزارة تقول: «يسر جلالة الملكة أن توافق على منحك الوسام (KCMG)[١] وكان هذا لطيفاً جداً من جانبهم ولا داعي له. وأنا شخصياً (وبدون تواضع كاذب) لا يعني هذا شيئاً لي. فقد كان اللقب «المستر والمسز تشارلتز جونستون» العاديان أوقع صدى من عبارة «السير تشارلز والليدي جونستون» التي كانت تشبه ما حصل في العام الماضي: «اللورد رئيس البلدية، والليدي زوجته» وكم هي ثقيلة على السمع!... واتصلت حالاً بناتاشا هاتفياً وسألتها إذا كانت ترغب أن تكون في ١/يناير القادم «الليدي» وكان جوابها حازماً «كلا، أود المحافظة على حقي بأن أبقى المسز جونستون»!..

---

(١) K.C.M.G لقب دبلوماسي (وسام) قائد فارس، سانت ميشيل، وسانت جورج
Knight Commander, St. Michel, St. George



طائرة (الدوف) التي جاء ذكرها

الجزء الثالث

عمّان



الفصل التاسع عشر

علاقات جديدة

كان تدخّل بريطانيا في سنة ١٩٥٨ قد جعل بقاء الاردن دولة مستقلة امراً ممكناً، ولو ان العرب بالعادة ليسوا من الشاكرين دائماً، إلّا ان هذا الدور الذي قامت به بريطانيا أصبح معروفاً ومقدّراً حق تقدير، بل أصبح حقيقة بادية للعيان في المملكة الهاشمية. كان هناك عدد من الفلسطينيين في الاردن يفضّلون لو ان هذا البلد لم يسلم، ولو ان عبدالناصر استولى عليه وليكن بعد ذلك ما يكون!.. ولكن الاكثر عدداً من الفلسطينيين الموزونين اعتبروا صمود الاردن رحمة إلهية!..

وإذا نظرتَ إلى الموضوع من اي جانب كان، تجد ان بريطانيا، وبريطانيا وحدها، قد زجّت بنفسها في علاقة جديدة جداً مع الاردن. ففي خلال ثمانية عشر شهراً من إنهاء المعاهدة، عدنا مرة أخرى مع حلفائنا السابقين أصدقاء ولكن بنوع خاص من الشروط.

وأنا شخصياً شعرت بان علينا ان نتقبّل هذا الموقف وان نحسّنه إلى أبعد مدى، ولم تكن لدي اية اوهام حول الموضوع، ولم اكن كمثل اولئك الذين ظنّوا بان على بريطانيا ان تلعب دور «فاعل الخير» (Beau Geste)[١] في البلاد العربية، وفي هذه النقطة كنت متفقاً مع افكار جاري «السير هيوفوت» الذي كان يعمل على تمهيد الطريق نحو استقلال قبرص. وبعد زيارتي إلى قبرص في ٤ مارس سنة ١٩٥٩ كتبت رسالة للوطن أقول فيها:

---

(١) (Beau Geste) تعبير فرنسي يطلق على (فاعل الخير).

«يوجد لدى (السير هيوفوت) مهمة هائلة ولكنه يجب أن ينجح بها إذا كان ذلك ممكناً لأي إنسان آخر!.. وكانت فكرته الرئيسية هي عمل كل شيء ممكن لمساعدة القبرصيين على إدارة بلادهم بأنفسهم بأسرع ما يتمكّنون!.. وهذا حل معقول من وجهة نظرنا إذ انه يمنحنا كل ما نبغي. وبالحقيقة فإن الانسحاب المنتظم (كما في الأردن سنة ١٩٥٧)، من مركز كثير الاتساع، وربطنا به أناس مثل دزرائيلي، ولورنس في هذا الجزء من العالم، هو شيء حسن لو استمر، لكن الأفضل من ذلك الاستغناء عنه بطرق معقولة، وذلك أجدى من التمسُّك به وكأنه معرض أو متحف (رومانطيقي)!..».

وفي الوقت نفسه تصوّرت أنه إذا طلب أي بلد عربي كالأردن من بريطانيا بمحض اختياره أيّة مساعدة، فعلينا أن نقدّم هذه المساعدة ضمن الحدود الممكنة. ولن أصبر على بعض مدارس الرأي في لندن التي تقول بأننا يجب أن ندير ظهورنا للعرب، ونرفض أي طلب منهم للمساعدة. مهما كان تلقائياً!.. اعتماداً على الأسباب التي تقول بأن هذا يعتبر تدخُّلاً في التاريخ وأننا نمنعهم من أن يواجهوا مقاديرهم بأنفسهم. وأن الفكرة من وراء هذا الادعاء تظهر بأننا ندرك ما هو الأفضل للعرب، أكثر مما يدركونه هم!.. وأنّا ظننا أنفسنا بأننا بالغو الرشد بين أطفال صغار أشقياء يطلبون بعض الحلوى ونحن نمنعها عنهم بحجة أنها لا تناسبهم!.. وتلك هي وجهة نظر من يدعي «أنا أعرف أحسن منك» والتي تخرج من بين بعض الأوساط اليسارية الخاصة في بريطانيا، وبقيت صفة ممتعة بائدة من عهد العصر الفيكتوري.

ففي سنة ١٩٥٨ تعاونّا نحن والأمريكيون، بتدخلنا في الشرق الأدنى، وبالاتفاق، فقد ركّزوا هم اهتمامهم على لبنان بينما ركّزنا اهتمامنا على الأردن. وكان الفضل في خلاص الأردن، من وجهة نظر عسكرية، يعود إلينا وحدنا. وهذا لم يغير الواقع في أنه بينما كانت بريطانيا تساهم مرة أخرى في دعم ميزانية الأردن وكذلك في تطوير برنامجه الاقتصادي، كان الفضل الأكبر في استمرار الدعم المالي للأردن يعود للأمريكيين الذي قاموا به في زمن التحسُّب الشيوعي في سوريا سنة ١٩٥٧، وما زال هذا دورهم حتى الآن!..

وهذا الوضع لم يعمل على ازدياد النفوذ الامريكي في الاردن، فقد وجد الأمريكان أنفسهم الآن بأنهم المعين الاكبر لهذه البلاد، متعرّضين إلى تلك الصفة المختصّة بنكران الجميل عند العرب، والتي قاسينا منها نحن طوال سني المعاهدة. وكان سمير الرفاعي الذي كان على حدّ قول الإشاعة مشتركاً مع الامريكيين، إلا انه كان بالحقيقة كذلك يتعامل مع البريطانيين خلال ذلك الوقت. فقد كنت دائماً على اتصال معه، وكنت وإيّاه على أحسن العلاقات كأولئك الذي يفهمون بعضهم بعضاً بكلمات قليلة.

لكن القوة الحقيقية في البلاد استقرت مع الملك حسين. وقد نضج الملك نضوجاً عظيماً بسبب الأزمتين الشخصية والوطنية وقد اجتازهما خلال العامين الماضيين: خلال سنة ١٩٥٧ في المؤامرة الوطنية، وخلال ١٩٥٨ في ثورة بغداد.

وكنت غالباً ما اقابل الملك. وكنت أشعر سرعان ما ينسى صغر حجمه الطبيعي، ذلك لما يتّصف به من خلق رجل كبير، رزين، ومسلك حازم، وكنت أراه عندما يعمل من وراء مكتبه، ينحني عليه بساعديه، يخفي نصف سيجارته بقبضته القوية، وصوته العميق يهدر من رأسه الكبيرة[١].

وبطبيعة الحال كنت كلما خاطبت الملك أقول له «سيدي»، ولكن ما كان يربكني هو أنه كان يستعمل نفس الصيغة معي. وبالحقيقة فإن الطريقة التي تبادلنا فيها اللفظ «يا سيدي» كان يخيّل إليّ معه بأننا اثنان من الأدباء، ذوي الشخصيات الهامة من القرن الثامن عشر نستمتع بمسابقة الاصطلاحات.. كان ندائي له «يا سيدي» يخرج غالباً متعمّداً، بينما هو كان يقولها بصورة «لا إرادية»، كتلميذ المدرسة الذي يعلّق حرف «السين» على رأس لسانه. وكانت هناك صفة أخلاقية متواضعة في الملك حسين عندما كان يستعمل «نحن» ويعني بها «أنا» ولكنها لم تكن تعني «الصفة الملكية» بقدر ما

(١) سمعت بنفسي من صديقي المرحوم الأستاذ محمد عبدالوهاب، ملك الموسيقى العربية المتطوّرة. أنه في حياته لم يقابل أو يسمع صوتاً جهورياً رائعاً كصوت الملك حسين، وزاد عبدالوهاب أيضاً أن صوت الملك فيه رخامة رائعة وكانت خطاباته بل معظمها يسجّلها محمد عبدالوهاب ويستمع إليها بين الحين والآخر منتشياً به و«مبسوطاً» كما قال عبدالوهاب باستماعه إلى صوت الملك «الجميل جداً»!..

كانت تعني (التواضع المتناهي)، وكأنه هو نفسه قليل الأهمية «كفرد»، لدرجة تشعرك بأن هناك اتفاقاً كان يرتبط بعظمة طبيعية فيه. وكانت النتيجة شيئاً ناجحاً ومؤثراً. ويشعر الإنسان وكأنه ادخل في باطن جهاز من الجاذبية لكي ينظر إليه كيف يعمل من الداخل!..

الفصل العشرون

استقالة سمير

زار الملك حسين لندن، زيارة عمل في نيسان سنة ١٩٥٩، وقد اصطحبني معه في طائرته الخاصة، وكانت العودة بالطائرة مغامرة ممتعة.

رسالة إلى الوطن من عمان في ٥/مايو/ سنة ١٩٥٩

سنحت الفرصة لكي يرتاح الملك حسين ويمتّع نفسه في الأيام الأخيرة من إقامته في لندن. وقد أقام له «بول شانون» وهو ابن «تشيبس»[١] حفلة رائعة في ٥/ميدان بيلجريف - ويحتمل ان هذه هي آخر حفلة يقيمها في شقّته تلك، حيث أنه سيقوم ببيعها، وينتقل إلى مكان أصغر منها، وكانت هذه الحفلة نموذجاً من جميع حفلات «آل تشيبس» الأنيقة، تضاء فيها الشموع وتحتسي فيها الشمبانيا، وكان الجميع «ما عداي» من الجيل الأصغر، وقد جاءوا بفرقة موسيقية من الزنوج، ومعهم آلات غريبة كانت تخرج منها ألحان «كاريبية»!..

وفي طريق عودتنا:

قضينا أول ليلة في روما. وأقمت في السفارة وقضيت صباح اليوم التالي أتجوّل وأشاهد قصور القياصرة فوق «البالاتاين»[٢]!..

(١) من الشخصيات الوجيهة في لندن والمشهورة بكرم وبذخ حفلاتها، وخصوصاً للوجهاء العرب أثناء زيارتهم إلى لندن.

(٢) Palatine Hill: وهي أحد التلال السبعة التي بنيت عليها روما في عهد الامبراطورية الرومانية، وهي التل الوسطى.

وكانت استانبول هي المحطة التالية - وهي أشبه ما تكون بالامبراطورية الرومانية، وقد وصلنا بعد حلول الظلام وحلّقنا فوق المدينة، وكانت الانوار تشعّ، فتدلّك على الاحياء الأوروبية والآسيوية من المدينة، وكان البوسفور والقرن الذهبي يرتسمان بحدّة في الوسط من خلال الظلام. وكان في المطار جمع حاشد من الاتراك - الانوار، وفرق الموسيقى، وحرس شرف ضخم، بخوذاتهم التي تشبه تلك الأمريكية، مع الطماقات، ثم رئيس الدولة ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، والضيافة الكاملة. وقد حللنا جميعاً ضيوفاً على الحكومة في فندق هلتون، على هضبة تطلّ على البوسفور والشاطىء الآسيوي.. وقضيت اليوم التالي حول المشاهد البيزنطية - سانت صوفيا، الأسوار، وكنيسة صغيرة بالموزاييك الرائع، وأحسست بشيء غريب عندما كنت أشاهد كل هذا بعد قدومنا مباشرة من روما، ولم تبد لي أنها قديمة لكنها كانت غير ناضجة، وحديثة العهد، بل وتنقصها العظمة التاريخية!... وشعرتُ كأنّني عضو مجلس الشيوخ الروماني من عهد قسطنطين انظر باشمئزاز إلى روما الجديدة!..

وتجوّلنا بالسيارة، من النهر إلى البوسفور، إلى مسافة قريبة من البحر الاسود. وكانت الشواطىء حرجية هادئة، وكنت تشاهد هنا وهناك بعض «اليخوت» البخارية النحاسية المداخن والجوانب، يزدحم على ظهرها فريق من المتنزهين وراكبي «نصف الشلن» من العوام.

وكان المشهد أشبه ما يكون بالطراز «الادواردي» وكأنك تنتظر القيصر يطلّ فجاة وفي أيّة لحظة من على ظهر يخته!...

وفي ذلك المساء انتابنا خوف من أن يعترض طريقنا في اليوم التالي بعض الطائرات المقاتلة المعادية، تطلع علينا في الجزء التالي من هذه المرحلة. وكان أسوأ جزء هو ذلك الممر بين تركيا وإيران، حيث لا يزيد عرض هذا الممر عن ثمانين ميلاً بين الحدود الروسية والعراقية، ومع ذلك فقد اجتزناها بسلام. وبينما كنت أجلس في مقعدي ناعساً، شاهدت عن بعد تباشير الصباح الباكر على جبال حادة تكسوها الثلوج، وعلى بحيرة تشعُّ زرقاء كالكهرباء. وحول ميعاد الإفطار هبطنا مرة أخرى. وكان يقف في مسافات محددة على

المدرج جنود أنيقون ببنادقهم وحرابهم وباللفحات الحريرية الزرقاء، وفي أسفل سلم الطائرة وقف الشاه وقد ظهر عليه عجز وتقدّم في السن، وبدا أكبر وأنحف بل أصغر حجماً عمّا رأيته في المرة السابقة (منذ خمس سنوات في بون). وبعد قضاء ساعتين هناك، تابعنا طيراننا عبر الخليج والصحراء ثم إلى العربية السعودية. وقد سأل المراقب الجوي في البحرين عن مركزنا فأجابه الكابتن بأننا نبعد (٥٠٠) ميل عن مكاننا الحالي، ذلك أنه خشي من أن تكون (البصرة) تستمع إلى الحديث. وتطلع قائد الجناح جوك دالجليش عبر النافذة، وبارك بصوته الأجش الاسكتلندي (الادنبري)[1]، حر الهجيرة، ذلك لأن هذا الحرّ يجعل من الصعب على أيّ إنسان أن يلتقطنا على الرادار، وفي الساعة الرابعة تماماً كنّا نحلّق فوق «مستنقعات الأزرق» والتقينا مع الطائرات المستقبلة من نوع «فامبير» من سلاح الجو الملكي الأردني. وبعد نصف ساعة هبطنا في مدرج مطار عمان، وسمعنا الإحدى وعشرين طلقة من المدفع أثناء عزف الموسيقى وكان الحماس على أشدّه وخرجت المدينة بأسرها إلى المطار وعلى جانبي الطريق تحيي عودة المليك. وكان هذا شيئاً مسليّاً جداً، ونموذجياً من جو سلسلة المغامرات التي يعيشها الملك.

كانت «ناتاشا» تنتظرني في البيت، وقد لوّحتها الشمس، وتبدو بصحة جيّدة، وبعد العشاء ذهبنا بالسيارة إلى القدس لحضور قدّاس منتصف الليل، لعيد الفصح في الدير عند والدتها.

روما، واستانبول، والقدس، كل ذلك في ثلاثة أيام، وكما تراءى لي كان هذا تسلسلٌ رائع.. وكانت الرئيسة «تمارا» التي ظهرت لي مزيجاً بين قدّيسة وامبراطورة، تجلس في مقدمة «مصطبتها» وأمام أيقوناتها التي تتدلى الأنوار من حولها. وجلسنا (ناتاشا وأنا بجانبها)، بينما كان الرهبان الملتحون يهرولون بحماس في كل مكان يدخلون من الأبواب ويخرجون منها حاملين «مباخرهم» أمام المذبح، بينما ترتل الراهبات بأصواتهن المتحشرجة.. وفي العادة يكون القدّاس الارثوذكسي مؤثراً ولكن هذه المرّة، لم أتجاوب معه ولعلّ ذلك يعود لتعبي ونعسي. وبعد أن درْنا ثلاث مرات حول الكنيسة مع الشموع

(١) نسبة إلى مدينة (أدلبره) الاسكتلندية العظيمة.

المضاءة التي كانت رياح جبل الزيتون تطفئها، آوينا إلى الفراش ثم نمت نوماً عميقاً مريحاً.

وكان لدينا في هذا الاسبوع تغيير مفاجيء في الحكومة، ولعلّ هذا جاء ليمنع عنّا الضجر والسّام، وعلى كل حال فإن كل شيء يسير حسناً حتى الآن.

وقد حكم سمير الرفاعي الأردن فوق العامين، أولاً كنائب لرئيس الحكومة إبراهيم هاشم، ثم كرئيس أصيل للحكومة. ومنذ وقت مضى كان قد تعب كثيراً. ولم يكن سمير يتمتع بصحة جيدة فلقد أصابته نوبة قلبية قبل تسلّمه الحكم بقليل. وكان سمير في عمله الرسمي «معقداً أكثر منه مسهّلاً». وكانت طريقته في الحديث وعرضه للأمور والمشاكل، لا تخطىء أبداً بل وكانت متقنة وماهرة، إما بالعربية أو بالإنجليزية، ولكن بهذا كان يستهلك الكثير من وقته ونشاطه. وقد رأيته مرّة منفعلاً حتى بدا وجهه شاحباً. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان «مركزياً عظيماً»، وكان يحب اتخاذ القرارات بالنيابة عن وزرائه حتى في أصغر الأمور. وكانت النتيجة أنه تحمّل عبئاً كبيراً من العمل لدرجة ينوء بحمله رجل سليم البنية. ولذلك لم يكن مستغرباً، وقبل أن يغادر الملك حسين في رحلته العالمية في مطلع مارس، أن يحذره سمير، بأنه ينوي تقديم استقالته لأسباب صحية بعد عودة الملك.

وعلى كل حال لم تكن الأسباب الصحية هي كل القصة، فقد كانت هناك بعض القوى المحرّكة التي تعمل على تنحية سمير منذ وقت بعيد. كانت زمرة البدو في الجيش، وعلى رأسها «اللفتننت جنرال حابس المجالي»، القائد العام للقوات الأردنية المسلّحة، أصبحت تعتبر «سمير» المناوىء الرئيسي لها، وأن غضبهم تجلّى في حماية سمير للميجر جنرال صادق الشرع رئيس هيئة الأركان الذي كان منافسهم الأساسي في المحيط العسكري، وأثناء غياب الملك حسين أجبر البدو «سمير» على الموافقة على اعتقال بعض الضباط بما فيهم رفقاء صادق، وعند استجواب هؤلاء الضباط حصلوا على اعترافات تدين صادق بنشاطات الخيانة، وأدى هذا إلى أزمة مباشرة بعد عودة الملك في الثاني من مايو، بينما كا صادق ينضم إلى الحاشية في الرحلة. وظهر واضحاً أن ضبّاط البدو عندما

كانوا يعملون ضد صادق، كانوا يأملون أيضاً بإزاحة رئيس الوزراء. وإنصافاً «لسمير» فقد كان عادة نداً وكفؤاً لجميع الدسائس من هذا النوع. وإن كان صدّق أم لم يصدّق هذه الاتّهامات ضد صادق، إلّا أنه تجنّب بكل يقظة أن ينحاز إلى أي جانب في هذه القضية بالذات، ومع معرفته بأن تشويه سمعة صادق ستكون ضربة شديدة لكرامته، وربّما كان يخشى أن يكون هو التالي على قائمة البدو، لذلك قرر أن يقف بحزم حول هذه المشكلة، التي كان لديه بحق شعور قويّ نحوها. وكان هذا الامر يحتاج إلى سلطة دستورية على الجيش، وبصورة خاصة، إلى إجراء صحيح لاتخاذ الاجراءات مع الضباط المشبوهين بعدم ولائهم، وذلك من أجل إبعاد المسؤولية عن بعض الرجال الابرياء لئلا تلطّخهم بالاتهامات بعض الجماعات عديمة المسؤولية، والمقرّبة من القصر.

وبالحقيقة، كان هذا الأمر محجوباً عن سمير الرفاعي، بنيما كان هناك رئيس ورزاء جديد وحكومة جديدة، تنتظر تحت الجناح، وكان هزّاع المجالي يشغل مركزاً قوياً، فقد كان رئيس حكومة سابق، وكان رئيساً لعائلة كبيرة معروفة من البدو المتحضّرين، والموالين للهاشمية، في الموقع القوي الذي يتوسّط شرقي الأردن، وكان ابن عمٍّ وزوجِ أخت حابس المجالي قائد القوات المسلحة، وبهذا فهو يتحالف عن قرب مع الزمرة البدوية في الجيش، وكان حالياً وزيراً للبلاط، وموضع ثقة من الملك - وكان كل هذا يشكّل خليطاً قوياً ذا تأثير كبير. أما سيرة هزّاع السياسية فقد كانت، لمدة ما، قد أوذيت وتضررت لاشتراكه بشجاعة، كرئيس للوزراء، في محاولة ضم الاردن إلى حلف بغداد سنة ١٩٥٥، لكنه مع الوقت أنقذ سمعته من تلك النكسة المعوقة، وخلال الثمانية عشر شهراً الماضية كان قد نمّى رغبة فيه، لكي يأخذ مكان سمير، كرئيس للوزراء.

وفي جميع النواحي كان هزّاع وسمير يمثّلان تبايناً كاملاً؛ الوجيه الشرق أردني وبالمقابل الفلسطيني العصامي، ثم السياسي الشاب ابن الأربعة واربعين عاماً، المندفع، وبعض الاحيان الساذج كالأطفال، مقابل الناضج ابن الثمانية والخمسين، الداهية، الذكي المتطوّر، ثم (الدوق القروي) من الكرك (وقد استعملت هذا الاصطلاح للكاتب «دوتي»[1] في وصف أجداده)، مقابل الزعيم العالي، الصديق الحميم للمستر همرشولد،

---

(١) Charles Montagu Doughty من سنة ١٨٤٣ - ١٩٢٦ كانت كاتباً إنجليزياً كثير الأسفار.

ولعظماء آخرين في العالم. وبالرغم من مركز هزاع القوي في المجال العسكري، فإن سمير يتفوّق عليه في النزال السياسي، كما فعل أكثر من مرة في الماضي. ولكن سمير، مع عظمة خصائصه كانت له شائبة واحدة خطيرة، ألا وهي ثقته الزائدة بنفسه، والتي كانت في بعض الأحيان تعميه عمّا كان يحدث. وكان تصرّفه في حياته كما كان في لعبة البريدج بكل تأكيد «مزايداً. مندفعاً. أكيداً». وفي هذه القضية بالذات كان السؤال الهام الذي يدور في خاطره هو: «هل الأفضل أن يثبت في موقفه أم لا يثبت»؟.. ويظهر أنه لم يخطر له خاطر: «لعلّ للملك حسين وجهات نظر أخرى حول الموضوع»!..

ففي الخامس من شهر مايو قابل سمير الملك. وقدّم له كتاب الاستقالة. ومن المحتمل أنه كان ينتظر من الملك أن يطلب إليه البقاء في الحكم، وفي هذه الحالة كان ينوي الموافقة على الاستمرار فيه، لكنه كان يشترط أيضاً أن يخضع الجيش لسلطة الدستور. وخلافاً لما كان يتوقّعه سمير فإن الملك لم يضغط عليه للبقاء في الحكم، وبعد مغادرة القصر مباشرة جعل سمير إذاعة عمان تنيع استقالته. وبعد ذلك وفي مساء ذلك اليوم أذيع أن الملك قبل استقالته وكلّف هزاع المجالي بتشكيل الحكومة. وقد قبل هزّاع المجالي وأتّمها في اليوم التالي، وقد تقبّل سمير كل هذا بسماحة وطيب خاطر.

ولقد سردت هذه الحوادث ببعض التفصيل لأنها تلقي بعض الضوء على فنّ السياسة المتّبع في البلاد العربية، وربما في الحقيقة في كل مكان في الدنيا.

وعندما لاحظ سمير أن الملك لم يضغط عليه في البقاء، قرر تلك اللحظة أن يغيّر طبيعة استقالته وأن يجعلها أصيلة غير مصطنعة، ولذلك لم يضع الوقت في إعلان أسباب الاستقالة بأنها صحيّة، وبذلك حجب عن القصر أي اقتراح في أن تغيير الحكومة جاء بناء على رغبة من الملك حسين. ومن ناحية الملك فإنه تخلّص من سمير بصورة مهذّبة وتقبّل استقالته بوضعيتها الطبيعية. وبنفس المهارة التآمرية التي استعملها بإزاحة جلوب باشا منذ ثلاث سنوات مضت، فإن الملك كان قد استحضر بهدوء على حكومة بديلة. وكما كان سمير دائماً مغالياً في الثقة بنفسه، فإنه لم يفطن إلى «المطب» كي يتجنّبه، ومع هذا، وقبل فوات الوقت، فقد غيّر استقالته من تكتيكية مناورة، إلى

استقالة حقيقية، محافظة منه على كرامته.

وقد سجّل سمير نجاحاً عظيماً في توطيد دعائم الاستقرار في البلاد بعد فترة طويلة مديدة من الاضطرابات، وبذلك مكّنها من اجتياز الزوبعة الكبيرة لثورة بغداد، وبالمفاضلة الدقيقة مع جيرانه من الدول العربية، فإن الأردن لم يشهد اي اضطرابات خلال العامين الماضيين - حتى ولا طلقة واحدة في الشوارع، ولا اغتيالات، ولا أيّة إجراءات سياسية. وقد تمكّن من الوصول إلى هذا عن طريق حكم مدني، وهو الذي شعر منذ ستة اشهر بلزوم الاستغناء عن الاحكام العسكرية. وعدا اجراءات الأمن الداخلي، فإن أعظم نجاح حققه سمير كان في الناحية المالية. ومع أن المعونة المالية البريطانية قد أنهيت بموجب المعاهدة البريطانية الاردنية قبل مجيئه للحكم بشهر واحد، إلّا ان سمير تدبّر الامر بأن حصل على معونة بحجم أكبر من الولايات المتحدة الامريكية. وهذه المعونة مضافاً إليها المساعدة المالية التي استمرّت الحكومة البريطانية في تامينها للاردن رغم إنهاء المعاهدة، قد وضع الاردن في أعلى مستوى من الازدهار المادي لم يشاهده قبل الآن. وهكذا فقد نحّي القائد عن مقعده، ولكن لحسن الحظ، كان الملك حسين اكثر حكمة من (ولهلم الثاني)، فقد تجنّب معاملة سمير كما عامل «كايزر ولهلم» «بسمارك»، وهكذا فقد بقي سمير على علاقات طيّبة ليس مع الملك فقط ولكن ايضاً مع الحكم. وعندما وضع القائد على الجانب الثاني، كان قاربه ما زال داخل نطاق النداء!..



الفصل الحادي والعشرون

الزيارات الملكية

وبالرغم من التغييرات السياسية استمر بقاؤنا في عمان، ولكنه بقاء مميز بالفصول السنوية الأربعة أكثر مما كانت تميزه السياسة.

رسالة إلى الوطن في ٢٠/أيلول سنة ١٩٥٩

في مثل هذا الوقت من كل عام نعيش تقريباً بدون تكاليف، وكأننا من الملاكين، أصحاب فيلا رومانية، فبدل أن نحصل على ما نأكل من الحوانيت كانت تصلنا خيوط مشكوكة بالحجل تأتينا من أصدقائنا الصيادين (ولم أتمكّن من صيد شيء منها حتى الآن)، ثم يصل إلينا بسيارة أجرة من القدس، بوّاب الدير في جبل الزيتون - وهو رجل عجوز، يبدو بطربوشه كأنّه ينحدر من الامبراطوية العثمانية، وبشاربين على طريقة (كايزر ولهلم)، وقد جلب معه خروفاً حيّاً، هدية من الرئيسة إلى «ناتاشا»، بمناسبة يوم تسميتها - وهذا اليوم لم نحتفل به أبداً حتى أننا لا نذكره.. وهكذا فنحن نعيش لمدة ما على هذا اللحم. وفي موعد الغداء نأكل اللوز المملح من شجرنا، وهو أقدم وأحسن شجر من نوعه في عمان، وقطعة كبيرة من البطيخ الناضج والحلو المذاق، أكثر من أي وقت مضى هذا العام، أو أكوازاً من القمح من أرضنا العذراء في منطقة المزرعة في الزاوية السفلى تحت بركة السباحة، وهي ألذ ما تكون عندما «تحمّص» وتغمس بالزبدة وكل حبّة قاسية ولذيذة الطعم كأنها حبّات الكستناء الساخنة والمنغمسة بالزبدة...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد استغلّ الملك حسين هذه الفترة الهادئة من شؤون بلاده، بأن أجرى اتصالات مع رؤساء دول اخرى، وخصوصاً مع الملوك الحاكمين في الدول الإسلامية.

وكان أوّل من زاره «شاه إيران» الذي جاء في نوفمبر سنة ١٩٥٩، وكان الغرض من هذه الزيارة هو ضرورة تعرف العاهلين على بعضهما البعض بصورة أفضل. وفي الوقت نفسه فإن احداث العراق مهّدت لهما موضوعاً مشتركاً يتحدّثان فيه. وقد زينت عمان ببذخ لهذا الحدث، واقيمت اقواس النصر، وتشابكت الرايتان، وآنيرت التيجان، ووزعت أعداد هائلة من الصور الملوّنة للعاهلين حيث صنعت بسذاجة، يصبح فيها الرسام الإفرنسي (دوانييه روسو) يظهر وكانه الرسام «السير يوشواع رينولدز» بالتشابه، وكانت أشبه شيء بالفن الشعبي لرئيس البروتوكول. وكانت هذه موضة تقليدية في عمان تقع في هذه المناسبات، موجهة للملك حسين وهو يظهر بالشارات الحمراء والشاربين[1]، وخيّل إليّ أن هذا الشبه اقرب ما يكون إلى ضابط بريطاني (بريجادير) عابس!..

وقد احتفى بالشاه بجميع المظاهر العسكرية التي تنظم عادة لجميع رؤساء الدول. العرض العسكري الذي اقيم له في الزرقاء فتّش العاهلان الاستعراض وهما يجلسان في سيارة مكشوفة يحرسها جنود من حملة الرماح، يلبسون «القلابق» المغشاة بالالوان الحمراء، يحملون الرايات الملكية الإيرانية والاردنية، وقد خلق هذا المنظر جوّاً رومانطيقياً أشبه شيء برسوم الفنان مايسونيير (فنان رسام إفرنسي) في أحسن التقاليد الاردنية وتلا بعد ذلك مسيرة الجنود بالطريقة البريطانية المعتادة الرائعة، فكان النقباء (الشواش) يتمنطقون بالأوشحة الحمراء، وسلاح المدرّعات بالطواقي (البيريه) السوداء، يتقدّمون بنظام (الجرينادير البريطانية) مع الفرق الموسيقية النحاسية والمزمارية تسير ثم تعود وتعزف لحن (ديك الشمال)، (ولحن سيبيو)...

(١) اشتهر السير تشارلز جونستون (المؤلّف) بأسلوبه القصصي الرائع ووصفه الدقيق للأحداث والأماكن وعندما كلّفتني دولة السيد زيد الرفاعي بترجمة الكتاب قال بأن جلالة الملك يوافق على سرد تلك الأحداث بالعربية.

وبعد هذه الاحتفالات شبه البريطانية، اغتنم الجيش الاردني الفرصة، كي يثبت أنها عربية سواء بسواء. وقد اقيمت حلقات الدبكة بين المعسكر وبين (ميس) الضباط وهي رقصات فولكلورية من شرقي النهر وهي عبارة عن قفزات متماسكة إلى الاعلى وإلى الأسفل مع تلويح بالمناديل، والخطوات المنتظمة الدائرية. وفي نظر الغربيين كان هذا المشهد شيئاً غير عادي يحرك العواطف ويذكيها مثل هذه المناظر المضطردة. وبعد أن جلس العاهلان في أعلى الدرج من نادي الضباط يراقبان هذه الاحتفالات انضم الملك حسين إلى الحلقة وكاد يقع من تزاحم الشواش والجنود، والذين أخذوا يتنافسون فيمن يسبق ليمسك بيده في هذه الدبكة. وفي غمرة هذا الحماس، دفع إلى الحلقة بأعظم المتناقضات من الناس، من هزّاع المجالي رئيس الوزراء ببدلته الغربية الأنيقة، إلى المونسنيور نعمة السمعان مطران الروم الكاثوليك بكامل لباسه الكهنوتي وطاقيته المطرانية.. وفي هذه الأثناء كانت الألعاب النارية وصواريخها تطلق من فوق سطح النادي وتتساقط أوراقها المحترقة السوداء كالمطر على طرابيش الوزراء وعلى القبّعات التي تشبه مثيلتها من قبّعات الأقزام السبعة الامريكية، إلى الطواقي النحاسية المزركشة للقوّاد الشركس، إلى الكفافي الحمر التي يلبسها شيوخ هاجروا سرّاً من العراق، وإلى البسة الرأس الاخرى التي كان يلبسها مجتمع عمان... وكانت الطلقات الأوتوماتيكية النارية تندلع في الجو، ولم تكن دائماً عمودية!.. مرة يطلقها شاويش من الحرس الملكي، ثم اشترك الآن الملك حسين بنفسه فيها، وكان كل هذا عرضاً رائعاً من الحماس الغزير، وهو لون حماسي في العادات العربية، كان يتمثّل تماماً في الملك حسين، وكان الشاه الذي يجلس في أعلى الدرج يشاهد هذه المناظر ويبتسم ابتسامة فاترة، وبدا كأنه يمثل حضارة أكثر حزناً، وأقدم عمراً!..

ثم لم تكن أيضاً هذه المظاهر من «شهرة الملكية العربية» قد استصوبها كثيراً سفير الجمهورية العربية المتحدة، الذي كان قد قدّم أوراق اعتماده قبل زيارة الشاه بمدّة وجيزة، وبالحق فقد مرّت فترات خلال الإجراءات سببت له حرجاً أو لعلّه استغراب: مثلاً عند التصفيق الحاد، عندما انشدت أغنية الطائرة، وهي الأغنية التي احتفلت بنجاة الملك

منذ عام مضى من محاولة إنزال طائرته في سوريا، أو أثناء الوليمة التي أقامها الملك حسين، بعد تقديم الفاكهة، عندما تقدّم ضابط عربي يعزف على المزمار وتزيّن صدره الأوسمة البريطانية التي تصلصل كلّما مشى حول المائدة وهو يعزف لحن «الاسكتلندي الشجاع»!..

وبعد شهرين جاء الضيف الثاني الملك محمد الخامس ملك المغرب. وقد كان المغربيون يعرفون القليل عن الأردن، وكان استغراب حاشية الملك الضيف شديداً عندما وجدوا أن عمان لم تكن قرية مبنية بالطين، ولا مخيمات من البدو... وكانت صلة القرابة «الشريفية» بين العائلتين الملكيتين، ولو أنها بعيدة نوعاً ما، قد وفّرت وزناً لا بأس به من الأسباب المشتركة بين العاهلين. وقد أظهر الملك محمد عطفاً بحرارة نحو الملك حسين، وأضفى عليه حبّاً أبوياً، وكأنه المرحوم الملك عبدالله بعث حيّاً من جديد.

وفيما يتعلّق باحتفالات الاستقبال فقد كانت كلها تقريباً من البرنامج نفسه الذي قدّم للشاه، عدا العرض العسكري الذي ألغي، وعلى الأغلب لأن الملك محمد ليست لديه تلك النزعة العسكرية. وبالحقيقة عندما فتّش الملك الضيف حرس الشرف وهو يمشي بجانب الملك حسين، ببدلته اللندنية العسكرية، وبمشيته (الساندهرستية) المنظمة كان الملك محمد بمشيته الثقيلة، وتقدمه البطيء بالخف (المشاية)، وعدم انتظام سيره على نغمات الموسيقى الرتيبة، وتجاهله الأعلام المختلفة، كل ذلك بدا وكأنه مظهر مدني بالجوهر، لا عسكرية فيه مطلقاً.

وقد دعيت إلى حفلة غداء أقامها رئيس الحكومة الأردني للعاهلين في فندق البحر الميت الذي افتتح حديثاً. وفي هذا الجو المحلي قدم مدير الفندق السويسري وزوجته حفلة عربية راقية رائعة. وقد تحوّل النادي إلى قاعة لهذه الوليمة تضمّ عدة مئات من الوجهاء. وقد زينت الأعمدة بالرايات والأعلام الأردنية والمغربية (التي كانت نجمتها التلمودية[1] ذات الخمسة رؤوس، كما حدثني بعضهم، قد سببت رجفة بل همسة حائرة عندما

(١) لقرب الشبه بين النجمة المغربية ونجمة داود اليهودية.

شوهدت لأول مرة في شوارع عمان[1]. وخلف العاهلين ظهرت ثلاث (كعكات) مدرجة ضخمة مزينة بالأنوار اللامعة الحمراء والخضراء ويحيطها التاجان الشريفان المصنوعان من الورق المقوّى، وعندما ادخلت الخرفان الحمرة المحشوّة وهي تسير محمّلة كالقافلة، الرقبة تتبع الرقبة، مربوطة بالأشرطة الحمراء، وأجراس الغنم الصغيرة «تجلجل» مع مسيرة القافلة، كان المنظر قطعة سويسرية صافية، جعلت شيوخ البدو المدعوين تصفر وجوههم من الدهشة.

ودارت أحاديث المائدة كالعادة في مثل هذه المناسبات الأغلب متلعثمة مغمغمة. ولحسن الحظ، وحسب التقليد العربي، وهم في هذا متمدنون أكثر منّا، لا يجبر الإنسان على الحديث إلا إذا جاء طبيعياً. فكان حسناً جداً أن تسأل عن صحة جارك على المائدة المرصّعة بالفجل والفلفل الأخضر- ثم أثناء تناول الحلوى تلتفت إليه وتصيح باستغراب طائش «ولكن قل لي كيف حالك»؟!..

وبعد الغداء انصرفنا إلى الشاطىء وقد كانت فرقة موسيقى المزامير كلها تئزُّ وتطنُّ وتدمدم في الجو، وكانت تزين أكتاف الموسيقيين الشارات المقصّبة المدلّاة وكوفياتهم الحمراء، فتؤلف خليطاً ملوّناً منتظماً أمام اللون الأزرق الفاتح الشتوي للبحر الميت، وقد أخلد الملك محمد الخامس للراحة. أمّا الملك حسين فقد كان يتلقّى الهتافات من تلاميذ المدارس الذي كانوا يتمشّون على شاطىء البحر، وعندما اخترق الجموع عدد من السيدات العجائز الامريكيات مندفعات نحو الملك وهن بنظاراتهن غير المبروزة، وبالبرانس البدوية، والشارات المكتوب عليها، «السفريات المصرية»..

وبعد ذلك بقليل اعتذرنا وعدنا بالسيارة إلى البيت نعبر الطريق الأمريكية الجديدة

---

(١) يومذاك، وعندما كنت مديراً لمطار عمان المدني تلفن إلي دولة الأخ أحمد اللوزي وقال لي وبأمر من جلالة الملك أن أرافق الأمير الحسن (ملك المغرب الحالي) إلى مختلف المرافق الهامة في عمان، وبالفعل رافقت سمو الأمير (الملك الحسن حالياً) إلى معظم المرافق الحيوية والصناعية .P.T.O في الأردن. وبعد عودة الأمير إلى المغرب أصدر أمراً إلى سعادة السفير المغربي في عمان فقلّد الشيخ المرحوم (الشيخ عبدالله غوشة) ومدير الطيران العسكري، والمترجم فهمي شمّا بتقليدهم أوسمة ملكية مغربية رفيعة.

نخترق جبال (مؤاب) المتعرجة وكنّا نرى السيارات الدبلوماسية الفاخرة بأعلامها، والسيارات المصفّحة، والتاكسيات وسيارات الجيب المثبتة عليها البنادق المضادة للدبابات كلّها تـختلط بعضها ببعض بفوضى ذات طابع محبب!..

وفي شهر مايو بعد ان تسلّم هزّاع السلطة، ألقي القبض على صادق الشرع بتهمة الخيانة، وقد صدر حكم بالإعدام على صادق وبعض شركائه. وبموجب تعليمات وردتني من لندن تقدّمت إلى السلطات الاردنية لكي تأخذ هذه الأحكام بالرافة، وأعلمني الملك بعد ذلك بأن أحكام الإعدام سوف لا تنفذ. وبالحقيقة لو أعدم صادق لكان هذا خطأ جسيماً، ذلك أنه لم يكن قائداً خطراً هدّاماً كما ادّعوا، وكانت تصرفاته انتهازية أكثر منها خيانية. ومن وجهة نظر واقعية فقد سبب اختفاؤه تهدئة للموقف داخل الجيش. ثم اختفى أيضاً التوتر المزمن الذي كان كامناً بين صادق وزمرة البدو المجاليين الموالين بإخلاص للملك. ولم تحدث بعد ذلك أيّة اعتقالات في الجيش، وقد بدأت الوحدات بالتدريج تتخلى عن واجبات الأمن الداخلي للقيام ببرنامج من التدريب الضروري الذي أضحت الحاجة ماسة إليه. وكانت كفاءة صادق كأحسن ضابط للأركان لم تفتقد كثيراً كما كان منتظراً. وفي خلال هذه الفترة كان الأردنيون محظوظين إذ كانت لديهم شخصية مرموقة كمستشار للجيش في شخص (البريجادير ستريكلاند) الذي وضع للعمل برنامجاً انسيابياً لإعادة تنظيم وتسليح القوات الأردنية. وبنفس الوقت كان عنصر بعثة التدريب من السلاح الجوي الملكي البريطاني تحت إمرة «جوك دالجليش» تحسن كثيراً وبصورة مجدية، قوة سلاح الجو الملكي الأردني، وبين أشياء أخرى نجحت أيضاً كانت إعادة نشاط المطار الجوي الهام في المفرق الذي ترك مهملاً عند رحيل سلاح الجو الملكي البريطاني عنه في مايو سنة ١٩٥٧ .

رسالة إلى الوطن ٣ / يناير / ١٩٦٥

نحن الآن نقضي عيد الميلاد الرابع في الأردن وأصبحت الأشياء تبدو روتينية طبيعية منتظمة. وأنه لمن الغريب أن تصبح حياتنا هنا، بعد أن بدأت بمغامرات عنيفة، وقد هدأت حتى أصبحت روتينية ثابتة. ولحسن الحظ يمكن لقصة المخاطر هذه أن تعود

ثانية في اية لحظة. ولذا لا يضجر الإنسان أبداً. وبالحقيقة فإن عمان مركز مثالي، وانه حتماً سوف تفسد شهيتنا لو اننا وضعنا في مركز تقليدي في المستقبل - فقد كانت هناك مهمة حقيقية وجب تحقيقها (ونادراً ما كانت تشبه طبيعة عملنا)، ومع هذا فقد كان هناك كثير من الراحة والفراغ.. واقرب ما يكون كمثل من يجدّ ليحصل على قطعة من الحلوى ثم ياكلها!..



الفصل الثاني والعشرون

هزّاع المجالي*

في مطلع السنة الجديدة سنة ١٩٦٠، عرض عليّ وظيفة (حاكم عدن). وقد أوضحت في كتاب آخر كيف انني قبلت العرض، وماذا نتج عنه؟!.. فقد بدأت الأمور تستقر في الأردن وتهدأ أثناء حكومة هزّاع المجالي. وقد ذهبت مع زوجتي بإجازة الصيف إلى الوطن، وعدت لما كان يجب أن يكون شهراً أو شهرين من الهدوء النسبي، قبل سفري مباشرة إلى عدن في شهر أكتوبر. وكان (جون هينيكر)[1]، الذي شغل وظيفة رئيس شؤون الموظفين في وزارة الخارجية لعدّة سنوات، هو الذي سيحل محلي في عمان.

وكانت طريقة هزّاع في الحكم قد بدت مختلفة تماماً عن طريقة سمير. وكان كلا الرجلين قديراً وشجاعاً، وكل واحد منهما كانت لديه صفات لم تتوافر في الآخر. فكان هذا الأمر معروفاً جيداً في البلاد، وكانت له قيمته من حيث وضع الملك إلى حدّ ما، فوق الأمور السياسية. أما هزّاع السياسي المارس اللطيف - وهو شبيه بالدوق «نيوكاسل» (العربي) - كان أقل اقتداراً من أن يقف في وجه الملك، وكان هذا الأمر معروفاً أيضاً،

* كانت تربطني بهزّاع باشا صداقة متينة جداً، حتى وصلت الصداقة إلى العائلات (شما والمجالي) وكان يرحمه الله أكثر من صديق وأكثر من أخ فكان يرسل الدراجة (موتورسيكل) ليدعوني إلى حفلاته وكنت أزوره مع حرمي في بيته، ولما استشهد في حادث الرئاسة المشؤوم حزنت عليه حزناً شديداً ظل يلازمني سنوات طويلة (يرحمه الله).

(١) مع أن السفير الجديد جون هينيكر كان رجلاً دبلوماسياً (تماماً) إلا أن الفرق شاسع جداً جداً بينه وبين السير تشارلز (المؤلف) الذي وصل القمة في عمله السياسي في الأردن (سياسياً وأدبياً).

ولذلك عندما أصبح هزّاع رئيساً للوزراء كان أسلوب الحكم واضحاً بأنه أسلوب القصر، وكانت الانتقادات تميل إلى انتقاد الملك بوصفه السيد الحقيقي. وبعكس ذلك، كانت تسود بعض الانفعالات، والاصطدامات عندما كان سمير في الحكم - وكذلك بعض التوتر مع القصر، ومع الجيش ومع المعارضة - وكان كل ذلك معدوماً في زمن هزّاع. وكان دعم هزّاع في البلاد أوسع وأقوى من سمير، وخصوصاً، عندما كان سمير في الحكم كانت هناك دائماً مجازفة أكثر تتمثل باحتمال انقلاب عسكري، ليس موجهاً ضد الملكية ولكن ضد الحكومة المدنية بشخص رئيس الوزراء. هذه المخاطرة المتمكّنة في الاردن كما في بلدان أخرى من المنطقة قد خفّت كثيراً في زمن هزّاع، ويعود الفضل بذلك إلى الشبكة القوية في عائلة المجالي التي تستولي على المراكز الهامة في الجيش. أما التناقض الظاهري في الامر، فقد كانت هناك نتيجة حسنة أخرى تقف في صف هزّاع مع الجيش وهي أنه كان يملك أن يكون أكثر تساهلاً من سمير دون أن يشتبه بالليونة أو بعدم الولاء. وبالحقيقة فقد تمكّن هزّاع من إخلاء سبيل المعتقلين السياسيين الذي ورثهم عن سمير. دون مجابهة أية مشكلة من الموالين المتطرّفين. وبهذه الطريقة تمكّن أيضاً من أن يسرق البسة المعارضة المعتدلة.

وهناك مثل آخر من تحرر هزّاع. فقد نجح في إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة. ولسوء الحظ كانت هذه الإعادة إلى العلاقات الطبيعية بين البلدين ابعد ما تكون شمول أحوال (شهر عسلية)، بل على العكس استمر التوتر والمضايقات بالرغم من تبادل التأكيدات بعكس ذلك!.. وقد اثبت هذا. مع أشياء أخرى. كما اضحى ذا قيمة كبيرة استمرار وجود مكتب الممثل الخاص لهيئة الامم المتحدة الذي ما زال قائماً في عمان. وبعبارة واقعية كان يحتمل بأن التغيير الرئيسي في الموقف يتلخّص في أن ناصر قد تخلّى في الوقت الحاضر عن فكرة الاستحواذ على الأردن بالإخضاع والثورة. وكانت مشاكله مع سوريا قد اقنعته بلا شكّ بان بلداً عربياً محرجاً واحداً يكفيه الآن!..

أما من الناحية الاقتصادية، فقد حلّ بالبلاد شتاء الكوارث، جاء بعده الثلج ثم

القحط في موسم الحصاد التالي السيء. وبالمساعدة الفورية من بريطانيا والولايات المتحدة، تمكّن الاردن من الصمود والتغلّب على هذه النكبات. وبنفس الوقت بدأ العمل بسرعة في تطوير تلك الموجودات التي تمتلكها البلاد. وقد تم العمل في ميناء العقبة الجديد وافتتح بالاحتفالات واستمر العمل بالطريق الصحراوي الذي يصلها بالبلاد من الداخل بقفزات ووثبات... وبنفس أهمية هذين المشروعين البريطانيين، فقد تبنّى الامريكيون مشروع



المشير حابس المجالي بالملابس المدنية يجلس مع المغفور له دولة السيد هزاع المجالي

قناة الغور الشرقية الذي بموجبه يحتفظ بمياه نهر اليرموك لكي تستعمل لري منطقة كبيرة في وادي الاردن، وهو المشروع الذي بدىء العمل به. وازداد العمل أيضاً في حقول البوتاسيوم والفوسفات والقوى الكهربائية. أما من جهة الصناعات الخفيفة التي بدأت بالدباغة فقد أخذت تتطور في المنطقة الواقعة بين عمان والزرقاء. وبدأت الاستعدادات لتطوير صناعة السياحة وبالرغم من هذه الجهود التي تدفع بالأردن نحو الاكتفاء الذاتي فقد بدا جليّاً أن البلاد سوف تحتاج إلى مساعدات أجنبية، وافرة المستوى، ولسنوات عديدة مقبلة إذا أريد لها البقاء.

ومع هذا كلّه فإن الصورة ليست قاتمة تماماً. فإن تأثير ناصر في البلاد مع قوته بدأ

يتقلّص، ولكن عدم وفاته المفضوح للبعثيين السوريين قد أضعف سنده بين البعثيين الأردنيين الذي كانوا فيما سبق عونه الرئيسي، في البلاد. وبالفعل عندما يرى الأردنيون كيف كان الحكم في سوريا تحت السيطرة المصرية، ثم الاضطرابات الدامية في العراق، فإنهم يسمحون لأنفسهم بالشعور ببعض الرضى والقناعة وكذلك ببعض الغرور والاختيال!..

ومع ذلك لم يمض وقت طويل حتى تدهورت العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة مرة أخرى، وكان هزّاع يبذل الجهد الاكيد في أن يبقى متماسكاً مع الجمهورية حسب ما كان ينصحه باستمرار كل من السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة والحكومتين البريطانية والامريكية. ولسوء الحظ فإن الشراكة تحتاج إلى اثنين لكي تتحقق. فكانت عروض الأردن ترفض من قبل الجمهورية العربية المتحدة. أولاً بمحاولتها اعتماد قنصلها العام الجديد في القدس (في منطقة فلسطين التي يحتلها الجيش الأردني) - وواضح من هذا أنه استخفاف وازدراء بالسيادة الأردنية على الضفة الغربية، وثانياً بملاحقتها العنيدة لاقتراح (الكيان الفلسطيني)، الذي يمكن أن تكون نتيجته الفعلية تحطيم وحدة الأردن. وأن هذه التطوّرات قد أدّت إلى تجديد الحرب الإذاعية بالخطابات والتي كان الأردن حقاً لا يخلو من اللوم فيها، وخصوصاً في الإذاعات الموجهة إلى أصحاب العقيدة الانفصالية في سوريا - وكانت هذه النقطة ذات حساسية شديدة لعبدالناصر.

وكان صباح يوم (٢٩) اغسطس في عمان حاراً ومغبراً تحت سماء صافية. وبطريقي إلى المكتب قبل التاسعة بقليل، بدأت أفكر كيف تصبح حياة الدبلوماسي عادية، وكيف يتمكّن الإنسان أن يسوق سيارته مخترقاً الشوارع حتى في مدينة غير عادية وغريبة مثل العاصمة عمان دون أن يلحظ أي شيء على الإطلاق: حمال المياه مثلاً وهو «يقرقع» بكؤوسه النحاسية، وبائع الحديد الخردة الذي يبيع (الهلال) ليوضع على قمة المآذن، والفلاح الغني على حماره يسير بازدراء بين السيارات الأوبل والبونتياك...

وكنت قد رتبت أمري قبلاً على زيارة رئيس الوزراء في ذلك الصباح، ولكن بعد ذلك وحيث كان لدي أمور أخرى تدعو للاهتمام، وقررت بأن عملي معه والذي كان مستقيماً

وغير سري، يمكن إنجازه على الهاتف. وأعطيته وقتاً حتى التاسعة والخامسة والاربعين صباحاً لكي أتأكد من وجوده في المكتب ثم هاتفته، وكما هو الحال دائماً فقد جاء على الخط حالاً وبدون رسميات. وقلت له: إن رئيس الأساقفة الانجليكاني يكون شاكراً لمساعدته حول موضوع اللاعب في مدرسة سانت جورج بالقدس، واستفسرت إذا كان هزّاع يتمكّن من مواجهة «الدكتور ماك أيمز» في يوم قريب ويستمع بعطف إلى ما سيقوله له. وقد وافق هزّاع على مقابلة رئيس الأساقفة صباح يوم الاربعاء. وشكرت رئيس الوزراء وأغلقت السماعة، مؤملاً أن أزوره بنفسي في آخر الاسبوع.

وخلال هذه الفترة كنت حريصاً على استمرار الاتصال مع رئيس الوزراء السابق سمير الرفاعي. وكان لدي موعد معه صباح ذلك اليوم في الساعة الحادية عشرة والنصف في بيته في جبل اللويبدة. وهو أحد تلال سبعة تقوم عليها عمان. وكنا أرغب أن أحصل على وجهة نظره حول الموقف السياسي، والذي كان في أغلب الاحيان منتقد لهزّاع دون مبرر، إلا أنه مع ذلك وحسب القاعدة، يستحق جداً الاستماع إليه.

وإذا ما أردت الذهاب إلى بيت سمير من السفارة فإنك تخترق بسيارتك طريق السلط وهي (هوايت هول الأردن) حيث تزدحم الوزارات بشدة في المسافة الضيّقة بين الشارع والحوائط المائلة نحو الوادي. وإلى الشمال يقع الحي السكني في جبل اللويبدة وإلى اليمين جبل الحسين حيث تتوجه كتل من الأحجار الضخمة المربعة، وهي القلعة الرومانية، وفي منتصف الطريق المقابلة يقف البناء الذي يشغله مكتب رئيس الوزراء ووزارة الخارجية، وهو بناء ضخم مؤلف من طابقين مبني من حجارة القدس الكبيرة وبه درج يصعد نحو مدخل مقنطر. وفي وسط الدوار الأول توجد نوافذ رئاسة غرفة مجلس الوزراء، وفي الزاوية اليسرى تقع غرفة رئيس الوزراء الخاصة. وقبل ثلاثة أشهر، وكأحد الإجراءات النابعة من سياسة هزّاع، وهي تهدئة القيود، تسلم البوليس حراسة المبنى من الجيش. وكان العدد الطبيعي من رجال البوليس الذين يلبسون البدلات الكاكي والخوذات الكاكي الشمسية بحرابها المثبتة فوقها، يقفون بحكم وظيفتهم عند مدخل العمارة.

وقد وصلت إلى بيت سمير مبكّراً دقيقتين على الميعاد، حيث إنني بالغت في تقديراتي بالتأخير عن الموعد المقرر نظراً لضغط السير في قلب عمان. وقد كان سمير ينتظرني على قمة الدرج من بستانه، وكان يلبس نظاراته، مشرق الطلعة، محاولاً كعادته الظهور بمظهره الأنيق الرقيق الطيّب (Pickwickian)[1] وفي الوقت نفسه (المسيطر) ودخلنا إلى غرفة جلوسه الصغيرة، وما أن تناولنا القهوة وأشعلنا سيجارة حتى سمعنا انفجاراً خافتاً ونظرنا بصورة لا شعورية في ساعاتنا - واتفقنا في الرأي على أن هذا الصوت أعادنا



سنتين إلى الوراء، إلى تلك الفترة بعد ثورة بغداد، عندما كان سمير رئيساً للوزراء، وكانت انفجارات الإرهابيين تحدث كل يوم في عمان. وتحدثنا عن أولاد سمير في المدارس في إنجلترا، وتوصلنا للحديث حول السياسة، عندما سمعنا انفجاراً آخر، وعندما جاء البوليس الذي يقف بحكم وظيفته عند مدخل حديقة منزل سمير ليقول بأنه سمع انفجاراً قد حصل في مكتب رئيس الوزراء. وبرزت مدام رفاعي بخفّيها من الخلف،

(١) نسبة إلى المستر Pickwick وكان الرئيس الذكي الأنيق لنادي (Pickwick) في إنجلترا.

مصفّرة الوجه من الجزع، ذلك لأن ولدها الاكبر زيد، وهو شاب دبلوماسي حدث، وهو قدير ومفكّر، كان يعمل في وزارة الخارجية، وتصوّرت أن أحسن ما أفعله أن أعود حالاً للسفارة، وبالنظر لتعقيدات الطرق ذات الاتجاه الواحد في عمان، اضطررت أن أتجنّب العودة من طريق شارع السلط.

وكان ما حدث هو ما يلي: كان هزّاع كعادته من صباح كل يوم اثنين يقابل المراجعين. وكان عدد من الزوار غير الرسميين ينتظرون مقابلته في الغرفة المجاورة لمكتبه. وكان أحدهم ولداً عمره عشر سنوات جاء يطلب وظيفة لأبيه. وكان في الطابق السفلي من الغرفة التي بالزاوية يجلس (زهاء الدين الحمود) وكيل وزارة الخارجية على مكتبه. وكان زهاء قد عاد منذ يومين من زياراته إلى أمريكا وإنجلترا حلّ خلالها ضيفاً على الحكومتين. وفي اليوم السابق كان مجلس الوزراء قد قرر نقله إلى وظيفة رئيس



ديوان المحاسبة اعتباراً من ١/سبتمبر. ولذلك عاد إلى مقعده في وزارة الخارجية لثلاثة أيام فقط. وكان قبل دقيقة أو دقيقتين قبل الحادية عشرة والنصف قد جاء زيد الرفاعي، وهو ابن صديقي سمير، حيث دخل مكتب وكيل الوزارة، ليقدم له التهنئة بوظيفته الجديدة، وقد وجد (زيد) (زهاء) يشرب القهوة مع صديقه عاصم التاجي مدير عام السياحة، وطلب منه ان يساعده بالبحث عن بعض الوثائق الخاصة. وما ان عاد بالوثائق المطلوبة وإذا بالانفجار يقع، لكن زيد لم يكن قريباً منه، فسلم.

وكانت القنبلة الموقوتة قد وضعت في أحد أدراج مكتب هزّاع. فهدمت الحوائط القوية البناء في مكتب رئيس الوزراء. ووقع السقف. وكان ثقل جميع الحطام قد اخترق سقف الغرفة السفلى، وقتل هزّاع بنفس اللحظة بسبب كسر في الجمجمة[١].

وبعد عشرين دقيقة من الانفجار الاول وقع الانفجار الثاني في الطابق الارضي وعلى يمين المدخل فقتلت أحد الجرحى الذي أصيبوا بالانفجار الاول، حيث كان يجلس ليستريح ويتقبل التهاني بسلامته. وعدا عن ذلك فقد سببت بعض الإصابات وضرراً قليلاً. اما أولئك الذين قتلوا في الانفجار الاول فقد كانوا (زهاء الدين) و(عاصم التاجي) وزائرين من اعضاء عائلة المجالي والولد ابن العشر سنوات.

وكان أول من حضر لمشاهدة الحادث الدكتور توتونجي، وزير الصحة الذي كان مكتبه في العمارة المجاورة، وقد فحص جثة رئيس الوزراء، ولاحظ حريقاً على ساقه اليسرى وتبيّن منه اتجاه الانفجار. وكان ما ادهشه اكثر من اي شيء هو تعابير الوجه التي كانت تدل على منتهى الدهشة!

وكان ما جرى يتمشى مع طبيعة هزّاع. فقد كان خطوه الاكبر المبالغة في الثقة بالناس، والذي ادّى به مرات عديدة إلى اخطاء خطيرة. وكان ذلك، على حدّ القول، الجانب الظاهر من شجاعته الشخصية، وكذلك من طيبة قلبه التي جعلته يحجم عن

(١) كدت أصاب بالجنون لما كنت في المطار فهرعت إلى البلد ومنعتني الشرطة من الدخول إلى مقر دولة المغفور له وجاء سيد البلاد بنفسه إلى مقر الرئاسة، ولكن الحزن بوفاة هزّاع سيطر على الجو فاكفهرّ وبكينا بحرقة أليمة وتمنينا لو أن رقبة الفاعل تقع في أيدينا لخنقناه...

إساءة الظن بالآخرين، أو أن يتخذ أي إجراء ضد المشتبهين السياسيين، أو الاهتمام الجدّي بالمحافظة على حياته. وكانت الحقيقة أنه ببساطة لم يكن يهتم بحماية نفسه، وكانت وجهة النظر هذه أكثر دهشة في أنّ هزّاع تنبأ بخطر قتله بصفاء روح نبوية، فقد قال لي قبل مقتله بستة أشهر، بعد اكتشاف مؤامرة سابقة لاغتياله إن قتله سوف لا يؤثر على صمود الاردن كما يؤثّر اغتيال الملك، ومن سوء الطالع، على كل حال سيكون ذلك مثلاً مفيداً لعبد الناصر لكي يتمكن من القول ان المجالي تكلّم ضد الجمهورية العربية المتحدة، وأن الشعب الأردني قد انتقم منه!..

إن سجل سيرة هزّاع يمكن أن يتصوّره أصحاب النظرة السطحية بأنه كان عربياً بريطاني النزعة مثالياً ومن نفس مدرسة نوري السعيد، أو من أولئك الاشخاص غير المثلين الرجعيين الذي غالباً ما تتهم بريطانيا بأنها تنتخبهم في البلاد العربية لمساندتها، وقد كان أول ظهور المجالي على المسرح السياسي عندما كان رئيساً للوزراء لفترة وجيزة سنة ١٩٥٥ في محاولته غير الناجحة لإدخال الأردن في حلف بغداد، الأمر الذي كان حتماً يبرر تلك النظرية، وكذلك في دوره التالي كرجل في موضع الثقة من الملك ووزير البلاط منذ سنة ١٩٥٨ وكرئيس للوزراء من شهر مايو سنة ١٩٥٩، وبالحقيقة فإن أي تفكير من هذا القبيل هو خطأ أكيد، لقد كان هزّاع شخصاً متناقضاً غريباً. كان عضواً من عائلة إقطاعية كبيرة من الكرك وهي مدينة في قلب الجناح اليميني الشرقي للأردن، وكان في نفس الوقت رجلاً ذا عقلية متحررة، وكان يرغب، دون أن ينجح دائماً في أن يتبع الطريق الوسط في عالم السياسة. وكانت لديه سابقاً علاقات مع الحزب الاشتراكي الوطني التابع للنابلسي. وخلال فترة حكم النابلسي كان يعيش في فقر سياسي ذلك بسبب انحطاط شهرته في مشكلة حلف بغداد ومع هذا فقد حافظ على علاقاته الخاصة مع زعماء الحزب الوطني الاشتراكي الأكثر تعقّلاً، وفي سنة ١٩٥٨ اكتشفه سمير في محاولة غير ناضجة لإزاحة ذلك الرجل السياسي الداهية عن مقعده، وذلك باصطناع تآلف بين الوطنيين الاشتراكيين واليمينيين المتطرفين.

وبعد استقالة سمير في مايو سنة ١٩٥٩ تمكّن هزّاع من إعطاء الأردن حكومة ذات

قاعدة واسعة تتمتع بمساندة العنصرين نفسيهما: الجبهة اليسارية المعتدلة والموالين المتطرفين للملكية ممثلة بعائلة المجالي وزمرة البدو في الجيش. وبينما كان في الحكم، عمل هزّاع بجهد كبير من أجل التقارب بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة، ولم تثبط عزيمته بعدم تجاوب الجمهورية مع سياسته، فاتّجه إلى برنامجه الداخلي بأن حلّ طريقة سمير الأمنية وأفرج عن المعتقلين السياسيين. وكان يعرف عن كثب جميع الشخصيات القيادية والمحلية في كلا الجانبين في الأردن. وكان واثقاً بأن الأسلم هو إجراء انتخابات لتأخذ مجراها الدستوري الطبيعي في أكتوبر سنة ١٩٥٩، ونجح في إقناع الملك بهذا ضد معارضة بعض الشخصيات الأكثر تحفّظاً مثل سمير.

وقد قام هزّاع بعمليتين كانتا تمثّلان طبيعته تماماً. أولهما، وقبل مقتله بفترة وجيزة، تلقّت السلطات الأمنية معلومات ضد اثنين من المراسلين اللذين يعملان في مكتب رئيس الحكومة، وطلبت منه أن يوافق على طردهما. ورفض هزّاع، وبقي المراسلان وكانا هما اللذان زرعا القنبلة في مكتبه في الليلة السابقة لحادث الانفجار بما لهما من أحقية في الدخول إلى البناء. ثم فرّا بسيارة أجرة عبر الحدود ووصلا إلى دمشق قبل انفجار القنبلة. وكان السبب في رفض هزّاع لطردهما يعود كلية إلى طبيعته في أخذ الأمور بالتساهل والصبر، وإلى عدم رغبته في اضطهاد أولئك الذين يميلون إلى سياسة عبدالناصر، التي كانوا يتمسكون بها في الماضي...

وثانياً، وقبل يوم واحد من مقتله، كان يجتمع وزراء الخارجية العرب في لبنان وقد وصلوا إلى طريق مسدود في آخر مرحلة من اجتماعهم، وهي قضية فلسطين. وكانت هنالك جميع الاحتمالات لأن يخرج الوفد الأردني من الاجتماع، وبذلك يفشل المؤتمر، وكان موسى ناصر رئيس الوفد الأردني (وكان وزيراً للخارجية في وزارة هزّاع) وذا شخصية متحررة، قد سأل رئيس الوزراء في عمان أن يمنحه الصلاحية للموافقة على وثيقة حلّ وسط قدّمها وفد الجمهورية العربية المتحدة. وبعد اجتماع وزاري طويل تمكّن هزّاع من إقناع الملك حسين وبعض الوزراء الآخرين من إعطاء موسى حرية التصرّف - وبهذا كانت نتيجة المؤتمر أنه انفضّ على اتّفاق حول مشكلة فلسطين. وبهذا كان آخر

عمل لهزّاع هو المصالحة والاسترضاء للجمهورية العربية المتحدة، ويتفق هذا مع كثير من سياسته السابقة. وكان هذا طبعاً يعود إلى سعة أفقه، وإلى النظرة السياسية الناتجة عنه، الامر الذي جعله خطيراً في نظر حكومة الجمهورية العربية المتحدة، وبذا فقد اختير ضحية للاغتيال.

كان هزّاع وطنياً أردنياً، وبطريقة (خبط عشوائية) كان رجلاً صاحب مبدأ، وكانت معتقداته تتلخّص فيما يلي: إخلاص متناه للملك، صداقة مع الغرب، وخصوصاً مع بريطانيا، والمصالحة، مضافاً إليها مبدأ (عش واترك غير يعيش) في الحقل الداخلي، واخيراً العلاقات الطيبة مع بقية دول العالم العربي. وفي قرارة نفس هزّاع أراد أن يطبّق المبدأ الاخير ليس مع الجمهورية العربية المتحدة فحسب ولكن مع العراق أيضاً، حيث كان له أصدقاء بين رجال الحكم الجديد، وحسب طبيعته الحماسية الحادة كان يأمل دائماً في إعادة العلاقات التي كان يتصوّرها قريبة المنال «وراء الباب»... وكان أيضاً واقعياً فقد رأى انه في المستقبل البعيد لا يمكن للأردن أن يستمر بدون أن تسوده روح المصالحة في الداخل وعبر الحدود على السواء. ولسوء حظّه وحظّ الشرق الأوسط فإن التصالح لا يتم إلا اذا توفّر له الطرفان.

وقد نضج هزّاع كثيراً خلال حكمه في الخمسة عشر شهراً، وأثبت نفسه بما يشبه رجل الدولة القدير نظرياً وعملياً. وقد حافظ أيضاً على شهيته الصبيانية في الحياة. فقد أحب المنصب العالي وما يتبعه من اعتبارات. وكان يحب القصص المسلية، والجلسات «الرجالي» للويسكي، المتنقلة المتباهية، والتي ليس العرب وحدهم هم الذين ينكبّون عليها ويميلون لها. وكان زوجاً مثالياً، وقد ترك زوجة شابة هي، أخت ابن عمه القائد العام للقوات المسلحة الجنرال مجالي، وعائلة من الاطفال، كان أكبرهم ينوي أن يرسله إلى جامعة «هارو» بإنجلترا. أما من الناحية الجسمية فقد كان طويل القامة ورجلاً عفياً، وله وجه بدوي أسمر، وشارب إسباني الشكل، وحاجبان مقوسان أعطياه مظهراً لعوباً شيطانياً، وعينان شديدتا الالتماع، وكنت تراهما تشعان بإعجاب عند أقل نفحة من نفحات المكائد السياسية!..

ومع كل الجانب التحرري فيه فقد ظلّ (مجالياً) جداً[1]. وقد كان للعائلة سجل روحي منذ المائة وخمسين سنة الأخيرة. وقد حاربوا بضراوة ضد الجيش المصري الغازي تحت قيادة إبراهيم باشا. ونظموا من صنعهم ثورة شجاعة ولكنها غير ناجحة ضد الأتراك في سنة ١٩١٢، وفي عمليات القمع التي اتبعت، فقد لوحق عدد من زعمائهم بما فيهم والد الجنرال مجالي، ثم ألقي بهم من فوق أسوار قلعة الكرك، فلاقوا حتفهم، ومن حسن حظ الهاشميين فقد كان المجاليون من بين أعظم المخلصين والمساندين لهم.

وكما قال لي هزّاع مرة عندما كنت أتحدث معه حول الإجراءات الأمنية لشخصه (نحن المجالية معتادون على أن نَقتُل وأن نُقتلَ) ولم تكن هذه علامة سيئة لرئيس وزراء بهيج شجاع...

(١) كان المغفور له هزّاع باشا (مجالياً) بكل معنى الكلمة مخلصاً لعائلته ومخلصاً لوطنه وكان يخاف الله، وفي قلبه الكبير كان يختزن حباً عارماً كان يتمنّى أن يحيط بالناس جميعاً ويرحمه الله كان لا يهتم لا بالحراسة ولا بشدتها فكان من هذه الناحية يمثل الرجل الشجاع الذي يسلم أمره لله ولو أنه تشدد بالحراسة حوله لما وصل إلى حدّ المخاطرة بحياته وقاتل الله الحسد فقد كان محسوداً حتى في مجاله كمحامي، يرحمك الله يا هزّاع..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث والعشرون

أزمة سبتمبر «أيلول»

رسالة إلى الوطن ٢٥ / سبتمبر / سنة ١٩٦٠

كان لدينا هنا عمل متراكم خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، وبدا كأن أهل البلاد جميعاً يركّزون ابصارهم حول فرقة في الصحراء تواجه الحدود السورية، وبدا أن كل شيء كان معدّاً للهجوم على دمشق للانتقام منها لمقتل رئيس الوزراء. وكان عليّ أن اقابل «جارنا» في معظم ساعات النهار أو الليل.. وكنت أقول له .لا يمكنك أن تنجح بمثل هذه المحاولات، وأننا حاولنا في الماضي مثل ما تحاول الآن، أي في السويس، وانظر أين أوصلتنا محاولتنا تلك.. وهكذا... وأن لدى الأردن قضية قوية أمام الأمم المتحدة وسوف يكون من المؤسف أن نحطم كل هذا بارتكابنا محاولة للانتحار. وكان آخرون من نفس الرأي ينصحونه بذلك، وأخيراً الشكر لله، فقد قرر الآن أن يذهب بنفسه إلى الامم المتحدة.. وهذا ما سيهدىء من الامور مؤقتاً، ولكن النظرة إلى البعيد لم تكن مطمئنة، واشعر بالالم بانني ساضطر إلى تسليم هذا الموقف المهزوز إلى خلفي (جون هنيكير)!..

وبخلاف ذلك. فإن «ناتاشا وانا» قد تعودنا جوّ الأزمات هذا بلذّة غريبة، وبدت أوّل علامة منه، عندما دعينا إلى حفلة عشاء في إحدى الامسيات، وكنا نقابل دائماً في مراكز الحراسة الخارجية على هضبة القصر بجوارنا اثنين من الحرّاس أحدهما بكوفيته الحمراء (على طريقة لورنس)[1] والثاني بطاقيته (البيريه) الكاكي الغربية. وكانت هذه الحراسات

(١) الكوفية الحمراء - الحطة التي توضع على الرأس مباشرة تحت العقال، وهي زي عربي أصيل تعلم لورنس ارتداءه بعد أن جاء إلى الجزيرة العربية.

قد بدلت محل فرقة الحراسة الملكية، التي كانت عادة تحافظ علينا، بكتيبة جيء بها من الضفة الغربية. وفي صباح اليوم التالي اختفت الحراسة، دون اي اثر، وأدركنا أن في الجو شيئاً جديداً، وبعد ليلتين جاءني حول منتصف الليل ضابطان هما البريجادير[1] (فيفيان ستريت) وقائد الجناح (جو جرينهل) المسؤولان عن بعثتنا العسكرية مع الجيش الأردني ليعلماني بأن سلاح الجو الملكي الأردني يعمل على إعطاء الخطط والتعليمات إلى طياريهم، وأنهم يسلحون طائراتهم بما يشبه أن يكون استعداداً لضرب القواعد الجوية السورية عند الفجر وكان الملك، كما كان يفعل غالب الأحيان، يزور سائقه الإنجليزي (رينر وزوجته) في البيت الصغير الواقع خلف القصر. وقد اتصلت هاتفياً مع (رينر) وبعد دقيقتين عبرت الطريق مشياً وقابلت الملك، وكان وجود بيتنا على هضبة القصر قريباً منه ذا فائدة كبيرة لنا خصيصاً خلال أوقات الأزمات، وكان يرتدي القميص وكان مرحاً كعادته، وشربنا زجاجتين من شراب الليمون المثلّج «فرش اب» جاءنا بها (رينر) الذي كان يلبس القميص كسيده. وكنت أحب الملك كثيراً، وشعرت بالحقارة في نفسي أن أحدثه بخشونة حول النتائج المترتبة على نيّة الأردن في مهاجمة سوريا صباح اليوم التالي، وكيف أننا سنجد أنفسنا مضطرين للتصويت ضده في مجلس الأمن لو فعل، وأننا سنسحب بعثتنا حالاً - وهذا ما أغضبه وهزّه أكثر، لأن ضباط سلاح الجوّ من بعثتنا هم من خيرة أصدقائه. وظهر لي بعد ذلك أنه لم يكن ينوي أن يهاجم في الفجركما فهمت، ولذا بعد أن انتهيت من شرابي «فرش اب» حييت تحية المساء وعدت إلى البيت. وفي مساء اليوم التالي دعا نفسه عندنا على فنجان من القهوة معنا، وقال إنه يشعر أن الأردن وبريطانيا بدأتا تتباعدان عن بعضهما البعض، وما هي نيّاتنا نحو الأردن ومستقبله ونحوه هو نفسه؟!.. وفي نفس اللحظة كان (رينر) يتناول شراباً مع ناتاشا في الساحة أمامنا وكان يقول لها إن جلالته كان قلقاً جداً بعد حديثه معي في الليلة السابقة - وكنت أتكهّن بهذا، وقمت بما وسعني كي أطيّب خاطره. ولا أعلم إلى أي حد نجحت بذلك، ولكن على أقل تقدير افترقنا ونحن أصدقاء، وبقينا كذلك. وقد تصورت أنه كان جميلاً جداً منه أن يدعو

---

(١) Joe Greenhill & Brig. Vivian Street .

نفسه لشرب القهوة معنا، بدل أن يستاء مني ومن حديثي السابق، ويرفض مقابلتي لفترة ما، إن لم يكن للأبد، كما تصورت بأن ملوكاً شرقيين آخرين يفعلون هذا لو كانوا مكانه[1]..

وفي يوم السبت الماضي أقام شباب سلاح الجو الملكي حفلة بمناسبة يوم (معركة بريطانيا) في ناديهم (الميس) على أرض المطار. وقد كنّا نتصور أن (البالون) ما زال جاهزاً للانطلاق وكان الشباب يتبادلون بعض النكات المألوفة لدينا مع (ستريت وجرينهل) حول الحفل الراقص وطلب الملك إليّ في ذلك المساء أن أحضر لمقابلته ثم قال إنه «قد قرر أن يذهب بنفسه إلى هيئة الأمم» وهذا يعني جيداً أنه سوف لا يذهب لدمشق أو على الأقل، ليس في الوقت نفسه.. وهكذا فقد شعرنا بالراحة.. وهو شعور رائع ينتاب الإنسان عندما تنتهي الأزمة وتنتهي معها المشاكل - التي بطبيعة الحال لا تنتهي أبداً، وعلى أية حال!.. وانتشرت الأخبار بسرعة، وجاء الملك إلى الحفل وكان كل شيء ناجحاً جداً ولم يتخلله أي نشيد مزعج أو أي إنذار للحرب!..

كنا قررنا أن نطير إلى عدن في ٢٤/أكتوبر. ولا نعلم إذا كانوا يريدوننا أن نكون هناك قبل هذا الموعد نظراً للاضطرابات السياسية، وبالحقيقة فإنني يجب أن أكون في كلا المركزين حتى يصل (جون هنيكير) في نهاية أكتوبر - وإني أفكر جدياً في إنشاء مكتب في «بورت سودان» لكي أقيم في كل منهما يوماً بالتناوب. وفي حديثي ذلك حول منتصف الليل مع الملك كنت كما يقولون أصبت رأس المسمار أشدّ مما كنت أعرف أو أتوقع!..

ففي سنة ١٩٥٨ وافقت الحكومة البريطانية على إرسال بعثة تدريبية إلى الأردن لكي تتم العمل الذي أرغم جلوب باشا على تركه قبل ثمانية عشر شهراً فيما مضى، وكانت الفكرة هذه المرة أن تكون الفرقة مؤلفة من عدد صغير من الضباط، انتخب كل واحد منهم باعتباره خبير من الدرجة الممتازة كل في ناحيته الخاصة من خدمات السلاح. وكان

---

(١) إن أحداً لم يكتشف طبيعة جلالة الملك المنطوية على الخلق الهاشمي الرفيع وشهامته العربية، مثلما اكتشفها ووصفها المؤلف.

ممثل المهندسين الملكيين الميجر جاردنر، حيث جرى استخدامه لمدة عام واحد فقط، وخلال ذلك الوقت قام بعمل ممتاز، بإعادة أعمال الإنشاءات إلى أعلى مستوى التنفيذ، الذي كانوا قد خبروه في عهد جلوب، وعلى هذا فقد أتم عمله مع الجيش ولم يكن هنالك داع عسكري لإبقائه.

وفي الوقت نفسه ضرب القحط شرقي الاردن، وقامت الحكومة، بمساعدتنا، باتخاذ الاجراءات للحفاظ على حياة البدو وحيواناتهم. ومن بين الإجراءات الاخرى، اقتضى الامر إرسال الخزّانات من نوع «بيلي» من قبرص بالطائرة، وكذلك الصهاريج النقالة التي يمكن وضعها في مواقع مناسبة وسط الصحراء حيث تملأ بالمياه من الخزانات. أما الميجر جاردنر[1] الذي كان يقوم بأعمال الإنشاءات وضمن اختصاصه أيضاً في أعمال المياه، فقد كان أنسب رجل اختصاصي لمساعدة الأردنيين على تسيير دفة ذلك العمل من برنامج مساعدة القحط، فرفعت هذا الامر إلى وزارة الحربية، وأوضحت للمسؤولين بانه على الرغم من انتهاء عمله العسكري، فإنه يكون عوناً كبيراً للسلطات المدنية إذا كان من الممكن إعارته لمدة عام آخر لكي يساعد في حملة مساعدة الجفاف. وقد رقي الميجر جاردنر إلى رتبة (لفتنانت كولونيل) وانضمت إليه زوجته وابنته «توني» في عمان.

وكانت (توني) هذه فتاة بهيجة، طبيعية، حلوة، كتانية اللون شبه السكان الإنجليز الشرقيين، وكانت قصيرة القامة، وفي أثناء أزمة هزاع المجالي، كانت تحضر بانتظام حفلات الملك الاسبوعية المسائية للتدريب على الرقص الاسكتلندي. وكنت على علم بهذه العلاقة ولكني لم أبن عليها أية أهمية خاصة، ولم أربط هذه الصلة أيضاً باكتئاب الملك المتناهي عندما قلت له أن الاردن إذا هاجم سوريا فإننا سنسحب بعثتنا التدريبية!...

وبعد ذلك (انتقلت) توني جاردنر من الرقص الاسكتلندي إلى سباق السيارات الزحافة، ومن ثم إلى الطيران بالهيلوكبتر الملكية. وفي مطلع السنة الجديدة خطبها ثم

---

(١) الميجور جاردنر هو والد الأميرة «منى» الصديقة الحميمة لحرمي والتي تزوجت من جلالة الملك ولم يدم زواجها طويلاً، وكما فهمت من حرمي كانت الأميرة منى صاحبة نزعة متسلطة ومستقلة فلم يدم زواجها بجلالة الملك.

تزوجها الملك تحت اسم «الأميرة منى الحسين».

وعندما كنت أراقب هذه التطورات من عدن، فهمت أخيراً لماذا ابتأس الملك من حديثي معه في منتصف تلك الليلة!..

رسالة إلى الوطن، ٩/ أكتوبر سنة ١٩٦٠ :

يوم الاحد الماضي ذهبت مع (ثيولارسون) لصيد الحجل. وافطرنا على الشرفة حول الساعة الرابعة صباحاً. وكان الليل حالكاً متسللاً كمثل الليالي الاخرى في عمان. وكان صوت صرصار الليل يمزّق السكون، وتشع الانوار الكاشفة على السور في أسفل الحديقة، ثم ينبعث صوت الأذان في الفجر الأول، يجيئنا من الجامع من ناحية الهضبة المقابلة. وبدات تباشير الصباح تلوح ونحن على طريق جرش. وكانت خيام البدو مشرعة الأطراف، حتى كان يمكن مشاهدة النار والدخان من خلال الخيام في الداخل، وشعرت ببعض الغرور أنني أفقت باكراً، وشعرت برغبة في التوقف وسؤالهم لماذا يحتضنون فراشهم إلى هذه الساعة المتأخرة من الصباح.. وقد بدأت الشمس بالشروق قبل قليل عند وصولنا لمباشرة الصيد على طرف الغاب في ذلك المرتفع المؤدّي إلى طريق قلعة عجلون، وكان المكان يعج بالحجل، واصطدت واحدة في الدقائق الخمس الأولى. وكان مع (ثيو) اثنان من العرب (ضاربي الدف لتنفير الحجل) وقد مشى بمحاذاتنا، الحاج احمد والحاج صالح، ومعنى لقب الحاج هو أحد الذين حجوا إلى مكة كالحاج «مو». وكان الحاج أحمد مُسناً وبليداً جداً، وهو يحتفظ في غرفته بصورة للملك حسين مع القرآن معلقاً فوقها، لكي يحفظ الله الملك أينما ذهب، وكان عجوزاً طيّباً... ولسوء الحظّ لم أحظ بصيد آخر، مع أن جانب التل كان يعجّ بالحجل، واهتاج الرجل الصالح وأصرّ على أن يركض أمامي لكي يحمل الحجل على الطيران بعيداً أمامنا. وأخيراً تركته وبدأت أتجوّل في منحدر الغاب. ولما قاربت الساعة السابعة واعتلت الشمس كبد السماء ظهرت لي بعدها سلسلة بعد سلسلة من حفاف الجبال، يخرج الضباب من بينها كأنه الدخان. وكانت أشجار الصنوبر لذيذة باردة ومنتعشة. وشاهدت في الوادي صبياً من الرعاة ينفخ في شبابته

ذات الاصابع السبع الحاناً صافية ناعمة، ويردد الأنغام مرة تلو المرة - وكان هذا منظراً مألوفاً من العادات القديمة الساذجة في شرقي الاردن. ولما التقينا عند السيارة كان معنا ثلاثة طيور فقط - انه صيد فاشل، ولكنه يكفينا للعشاء. وفي ذات المساء بدأ (ثيو) يشوي الطيور على الفحم خارج الباب الخلفي والتهمناها مع النبيذ الاحمر والزيت والليمون واكل كل منا طيره، وغسلنا هذا كله مع النبيذ الإفرنسي، وكان القمر يسبح فوق الحافة المقابلة لنا، وصوت خرير الماء يصب في حوض السباحة خلف ستار شجر البامبو، ولعلك تتصوربعد هذا كم سنفتقد هذا المكان!..

ثم زرنا القدس حيث ودعتنا الام تمارا وداعاً حزيناً. واقيمت لنا صلاة خاصة روسية أمام الأيقونات في غرفتها، وقام بالخدمة الدينية كاهنان ملتحيان. ومنذ وصولي إلى الاردن في أيام السويس الحالكة، كانت معرفتنا بان الرئيسة والمجتمع الارثوذكسي في القدس يصلون لي ولزوجتي، مصدراً غير عادي يبعث فينا الثقة والقوة.

وقبل أن نغادر، عاد الملك حسين من نيويورك وكانت لي معه مقابلة وداعية في يومنا الأخير. ولغيابه عنا ثلاثة أسابيع تجمع لدي مقدار وافر من الاعمال العادية للبحث معه فيها، مضافاً إلى ذلك مجاملة الوداع. ومعنى هذا انه كان علي إرسال عدة برقيات إلى لندن بعد مقابلتي معه، وبقيت غارقاً في الاعمال الاردنية إلى الراس حتى النهاية بل إلى ما قبل بضع ساعات من ركوبنا الطائرة إلى عدن. وجاء إلينا الملك قبل العشاء لمحادثة أخيرة. وكانت مغادرة الأردن وفراقه، أمراً غريباً ولا يصدق!.

وأغرب من ذلك كيف انقلبت مهمتي إلى صداقة ويسر بعد أن كنا نتصورها فيما سبق بأنها مخيفة وعسيرة. نعم كانت هناك أزمات متعددة، ولكن لم يبد أن أحداها كانت صعبة المعالجة، ولم يحدث في أية لحظة أن وجد سبب للقلق الشخصي الطبيعي، أما مذكراتي الشخصية النفسية، فقد بقيت دون أن تمس أو يكتب فيها شيء. ومن خلال وجهة النظر هذه فإن ما كنا نخشاه وجدناه سهلاً ميسوراً.

ومع كل ذلك فقد مرّت فترات من القلق والتوتّر، وقد ساعدتني مزايا ثلاث على تخطّي تلك العقبات:

أولاهما: كانت نوعية الفريق البريطاني في عمان، أي موظفو السفارة (هيث ماسون)، (ويلي موريس)، (توني بولارد)، فقد كانوا جميعاً من المستوى الرفيع كل في ناحيته المختلفة، وبالحقيقة كان أمراً مستغرباً كيف حشدت وزارة الخارجية كثيراً من الكفاءات الممتازة في مركز صغير كهذا في عمان. ففي آن واحد يتجمع من هؤلاء الموظفين ثلاثة ممن تخرّجوا بامتياز من أكسفود وواحد كان أستاذاً من الأرواح (سبيرتس) في أكسفورد أيضاً.

وفي كلمة ألقيتها في حفل وداع أقامه لي الموظفون في اليوم الأخير قلت «إنني بدون أي ادعاء أو تباهٍ أعتقد أن كلّاً منّا بمقدوره أن يفخر، بأننا خدمنا في الأردن في تلك الفترة العصيبة». وكنت أستغرب لماذا كنّا في عمان نحصل على أحسن الموظفين من كل رتبة أو درجة في الخدمة - ولكن عندما ظهر أن خليفتي كان مسؤولاً عن شؤون الموظفين، وضح طبعاً كل شيء!..

وكانت سفارة عمان بالفعل هي زهرة وزارة الخارجية القديمة: ثقة بالنفس، تجانس في العمل، اتفاق جماعي. ولم يذوبوا بعد بالاندماج المحتّم مع موظفي الدوائر الأخرى فيما وراء البحار، ومع ذلك فهم سعداء لغفلتهم عن بعض ما سيواجهون من مصاعب وهزّات تنتظرهم في السنوات العشر القادمة!..

أما في الجانب العسكري فقد كان مستوى الموظفين البريطانيين عالياً بنفس المستوى المدني، وقد عاملتنا وزارة الحربية بتفاهم وكرم خاصين. وعندما كان «مايك ستريكلاند» الضابط اللامع المسؤول عن بعثتنا التدريبية، قد حان موعده لتركنا بعد أن أتمّ مهمته كنت أثناءها متغيباً في زيارة لبريطانيا، وذهبت لمقابلة رئيس هيئة الأركان العامة، وطلبت منه أن يزودني بأحسن بريجادير عنده ليحل محل ستريكلاند. وكان الفيلد مارشال رجلاً عظيماً حتى أنه لم يتأثر بمثل هذا الطلب الوقح.. وبأسمى درجة من طيبة النفس سألني إن كنت أفكّر بشخصٍ معيّن. وقلت له رأساً «فيفيان ستريت» ويظهر أن فيفيان ستريت هذا قد سافر قبل ذلك بقليل إلى شمالي إيرلندا ليكون مسؤولاً عن اللواء العسكري هناك، وبكل ثقة في النفس وبمنتهى الإقناع قلت بأن البعثة في

الاردن كانت حتماً أكثر أهمية من إيرلندا. ولا بد أن رئيس هيئة الأركان العامة قد اقتنع ووافق - ذلك أنه خلال شهرين من ذلك التاريخ، انضم إلينا في عمان البريجادير ستريت.. وقد جلب معه إلى فريقنا مزيجاً خاصاً من المهارة الفنية الفائقة مضافاً إليها روحاً مرحة لا حدود لها...

وكان الملحق العسكري في سفارتنا ومساعده (تشارلز شابلين)، (ونيجيل بروماج) كلاهما من مستوى رفيع - وعمل كلاهما مع جلوب وكانا يتكلّمان العربية جيداً، وحازا على احترام الجيش العربي. وفي ناحية سلاح الجو الملكي، كان (جوك دالجليش) قد استبدل بنهاية مدة خدمته بـ (إريك بنيت) وكان ناجحاً مثل دالجليش، وقد نمى هو أيضاً علاقة شخصية قوية مع الملك حسين.

وقد كان لوفاة (فيفيان ستريت)، (وهيث ميسون)، وذلك بعد فترة طويلة من انتهاء خدمتهم في عمان، أثر كبير في نفسي، فقد حرمت دوائرهما والبلاد كلها، من شخصيتين سمت مكانتهما في عصرنا الحاضر. وكانت هناك مرارة خاصة في فقدان هاتين الشخصيتين بسبب المرض عندما كانا في أوج حياتهما، وكان الخطب جللاً حقّاً!.

وثانيهما: عامل قوة الروتين الذي ساعدنا جميعاً. وحتى في أيام الأزمات كانت هناك دائماً الواجبات المباشرة، الموعد التالي، العقبات الجديدة التي يجب التغلّب عليها أثناء العقد المتلاحقة المتصلة بحبل الوظيفة. وكانت هناك لحظات يحاول فيها الإنسان أن يتطلع إلى المستقبل البعيد، وفي لحظات أخرى كان يشعر بالقوة إذا ما تمكن أن ينظر فقط لمدى بضع ساعات إلى الامام. وبالنظرة الروحية، كانت التكهنات البعيدة المدى ممنوعة علينا بل يجب أن نتجنبها إذ كان علينا أن نركز أيضاً على الواقع الآني!...

والدعامة الثالثة: لا بد أنها وضحت من خلال هذه الصفحات - وهي حياتي الخاصة الهادئة، المسلية، والمثالية السعيدة التي تتمثل في بركة السباحة الرائقة الرقراقة التي كنت أغوص فيها بعد نهاية يوم من العمل الشاق، فاغسل التعب الذي لحقني في المكتب.

وكان وداعنا محزناً حسب التقاليد الاردنية، وكان علينا أن نغادر عمان قبل الفجر،

وذلك حتى نصل إلى عدن في وقت كاف لحضور حفلات استقبالي. ومن خلف مصابيح السيارات كان باستطاعتنا تمييز موظفي السفارة يصطفون بجانب طائرة (الهيستنجز)!.. مع جميع ضباط التدريب البريطانيين بالبستهم العسكرية، وكانت لحظة حزينة مؤثّرة عندما ودّعنا هؤلاء الذي شاركونا حياة الإثارة والمشاكل في تلك السنوات المثيرة.



الفصل الرابع والعشرون

نظرة عامة وداعية

خلال تلك الآونة كان الميجور جنرال صادق الشرع في أعلى قمة الشهرة في الأردن كداهية يعرف كيف ينتهز الفرصة، وكان بمثابة المفتي الأكبر لمبدأ «الأمر الواقع» وهكذا كانت صفة الأمور في ذلك الوقت[1]. وقد قيل عنه أنه بعد أن كان يحبّذ الاتجاه الإنجليزي حتى طرد جلوب باشا، أصبح يرى وجهة النظر المصرية في سنة ١٩٥٦، ثم الاميركية في سنة ١٩٥٧، ثم العراقية في سنة ١٩٥٨، وبعد ذلك اي عقب ثورة بغداد عاد يصوب الاتجاه الإنجليزي مرة أخرى. وفي سنة ١٩٥٩ قبض على الجنرال الصغير البنية، وحكم عليه بالإعدام بتهمة الخيانة - وكما سبق أن ذكرت قد خفف الحكم بعد ذلك. وكانت التهمة هذه المرة تتداول في أنه قبض عليه وهو يحضر نفسه ليتحوّل نحو (الكيان المصري)، وكانت قصة صادق مثلاً حيّاً على تلخيص الأدوارالمختلفة من التاريخ الاردني خلال النصف الثاني من الخمسينات.

أولاً: كان الدور البريطاني، اثناء معاهدة ١٩٤٨، قد انهار بسبب تحوّل نوعية معاهدة العلاقات هذه التي كانت تزداد قُدُماً حتى بليت، ولم تعد توافق العنصر الخاص من السكان المتطوّرين الاذكياء ذوي الوعي السياسي، ويعزز هذا ايضاً العنصر الفلسطيني الجديد في الأردن. وكان عهد المعاهدة قد مرض، ثم تمطى، ثم مرض مرة أخرى، وأخيراً مات عندما طرد جلوب باشا في مارس سنة ١٩٥٦ . وكان الاتفاق على إنهاء المعاهدة بعد

(١) قصد المؤلف إلى أن هذا المبدأ كان متّبعاً في معظم بلاد المنطقة في ذلك الوقت.

ذلك بسنة واحدة عبارة عن تأجيل مؤقت لدفن الجثة!..

وكان وصولي في نوفمبر سنة ١٩٥٦ قد وافق استهلال الدور الثاني الكثير الاهمية، وهو تجربة الديمقراطية الشهيرة في عهد سليمان النابلسي وعبدالله الريماوي. وقد بدأ هذا العهد باعتدال غير منتظر، إذ بعد بضعة أيام من تولّيهم زمام السلطة في البلاد جاءت أزمة السويس لتضع الحكومة الجديدة مع الملك حسين في جبهة وطنية واحدة ضد بريطانيا. ومع ذلك عندما انتهى فصل السويس، وعند انتهاء المعاهدة، تسلّمت الموقف قوى منحرفة عن هذا الخط. وانزاحت الجبهة الوطنية. وبعد فوات الوقت وبعد أن شعر الملك حسين بالخطر من استبدال المعونة البريطانية المكينة بمعونة عربية وهمية، وأخيراً بعد أن لاحظ التهديد الشيوعي لعرشه، أخذ يجمع الدعم من الخارج اليميني من المصادر السياسية. وفي الوقت نفسه كان النابلسي قد تخلّى عن مبدأ سياسة الوسط وبتاثير من الريماوي تحرك بسرعة نحو المنحدر الشيوعي. وخلال تلك الفترة ظهر أن هناك أملاً ضعيفاً للأردن. فقد كان الملك مع عدد من الصنف الثالث السياسي يتلمسّون بحيرةٍ طريقهم في الظلام. ولا يعرف أحد ماذا يفعل ولا كيف يفعل؟... وانتصرت الناصرية. وكذلك، وبوضوح حتمي، انتصرت الشيوعية أيضاً!..

وكان للنهاية الفجائية لهذا الدور وهي التي جاءت في نيسان ١٩٥٧، تفسير بسيط معقول بالنظر لما سبق من حوادث. إن الديمقراطية البرلمانية لا يمكن أن تعمل بنجاح لا في العالم العربي ولا في غيره، إلا إذا جاءت بزعماء يفرضون احترامهم، ولا أستطيع القول بأنه لا يمكن حدوث ذلك في العالم العربي، وبالحقيقة والواقع لم يتحقق ذلك في الأردن أثناء هذه الفترة إذ كان فساد بعض الزعماء في ذلك العهد قد وصل إلى مستوى هز العرب أنفسهم ذلك لأن الحياة الخاصة لاولئك القادة قد وصل إلى حدّ إثارة الاستياء في بلد كان وما زال من أكثر البلاد الإسلامية سيراً في خط الاستقامة. وبمحاذاة هذا الانحلال بين الزعماء الوطنيين، حدث تغيير واضح في الملك نفسه: فقد انقلب فجأة من تلميذ بدهي في التخطيط إلى نضوج ومباشرة فورية في تدبير أمور الدولة. وعندما تبلورت الأوضاع اكتشف حالاً أن مفتاح الموقف هو ولاء القوات المسلّحة، وبعد أن تأكد من هذا،

بإسقاطه تمرُّد الزرقاء الفاشل، وجد الملك نفسه سيد الموقف في البلاد. ووهنت المعارضة وبقي هو قابضاً على السلطة.

وهكذا كانت الادوار اللاحقة تتباين وتتبع(مقالة حكم القصر). وكانت الفترة الاولى أو الفترة (الأمريكية) قد وافقت أحداث سنة ١٩٥٧ وزجّت بالأردن لفترة قصيرة في مسرح الحرب الباردة. وكانت حكومة الولايات المتحدة مشغولة بالتهديد الشيوعي من سوريا، وظهر بعد ذلك أن هذا التهديد قد بالغ فيه الجنرال عفيف البزري في انقلابه الناجح في اغسطس سنة ١٩٥٧ وجاءت معونة مالية أمريكية كبيرة لتحلّ محل تلك البريطانية الراحلة مما جعل الأردن يطفو على السطح. وبدأ السلاح يفرغ من طائرات «جلوب ماسترز» على مطار عمان من قبل مدنيين أمريكيين مفتولي العضل وممن يلبسون القمصان المشجرة.. وكان هذا الدور يمتاز بنوعية جنونية، غالباً ما يحدث في عمليات الحرب الباردة، بنفس الصورة المفاجئة التي جاءت بها!..

وفي شهر فبراير سنة ١٩٥٨ كان تشكيل الجمهورية العربية المتحدة قد جلب التهديد الشيوعي من سوريا، على أية حالة، إلى إغلاق مؤقت. وهذا التجاوز على الميدان العربي للوحدة، جلب جواباً سريعاً من الهاشميين بشكل الاتحاد العربي بين الاردن والعراق. وبسبب أحوال خارجة تماماً عن سلطة الأردن، عاش هذا الدور العراقي حياة قصيرة، فقد نسف هذا الاتحاد نسفاً بواسطة ثورة بغداد سنة ١٩٥٨ في شهر يوليو،وكان الفضل يعود لمداخلة بريطانيا وأمريكا وهيئة الأمم المتحدة في تمكين الأردن من تخطّي هذه الأزمة، وكذلك إلى ثبات ومهارة الملك ورئيسي حكومته المتتابعين سمير الرفاعي وهزّاع المجالي، عادت الاحوال الطبيعية إلى البلاد. وكان تأثير بريطانيا في التدخل وفي المدة التالية بعد ذلك واضحاً جليّاً ولعلّها كانت هذه هي خطة الجنرال الثانية!...

وفي الوقت نفسه بدت مطامح الأردن مشكوكاً بها لدرجة أن بعض نهازي الفرص مثل صادق الشرع كانوا يحاولون الارتباط مرة أخرى مع مصر. وكان سبب الضعف الرئيسي يعود إلى مسألة الوراثة الملكية، اي أن الاعتماد الكثير كان يتوقّف على حياة وصحّة وعزيمة الملك حسين. ففي ذلك الوقت لم يكن الملك قد أنجب ولداً وكان أخوه

الثاني ولي العهد محمد لا تساعده صحته على تولّي مسؤولية الملك، بينما كان أخوه الأصغر الأمير حسن عمره ثلاثة عشر عاماً فقط.

ثانياً؛ كان هناك ضعف سياسي خطير، ناتج عن وجود جبهة كبيرة ممن يعملون ضد الهاشميين وعواطفهم مع الناصرية في البلاد، خصوصاً من مخيمات اللاجئين وفي المدن الكبرى. بينما «الشرق أردنيون» في الضفة الشرقية كانوا على العموم موالين للملكية، واعتمدت سلطة الحسين بالنهاية على القوات المسلّحة.

وكان الضعف الثالث اقتصادياً؛ وهذه الارقام التالية توضح حراجة الموقف، ففي السنة المالية ١٩٦٠ كانت تقديرات المصروفات الأردنية «٣٠٫٥٠٠٫٠٠٠» ثلاثين مليون ونصف المليون جنيه استرليني. وكان الإيراد الداخلي لا ينتظر ان يتجاوز ال (١١٫٠٠٠٫٠٠٠) احد عشر مليوناً جنيهاً استرلينياً، مما يترك عجزاً مقداره (١٩٫٥٠٠٫٠٠٠) تسعة عشر مليوناً ونصف المليون جنيه استرليني، منها (١٧٫٠٠٠٫٠٠٠) سبعة عشر مليوناً تغطيه المساعدات الاجنبية. والتوفير الرئيسي الوحيد المحتمل هو في التخفيض الكبير من القوات المسلحة، ويتضمن هذا تسوية سياسية ليس مع إسرائيل فقط، ولكن - وهو ما يمكن أن يثبت صعوبة عملية واقعية بنفس المستوى - مع جميع جيران الأردن والعرب.

وبالحقيقة فإنه منذ شهر يوليو سنة ١٩٥٨ تطلع الزعماءالأردنيون نحو بريطانيا كأعظم صديق أجنبي لهم، وهو لدينا أمر غير مرغوب فيه، بل ويسبب لنا إحراجاً في المسؤولية التي يضعها على عاتقنا، وكذلك يورطنا في تحمّل التزام ليس فقط للاحتفاظ بتعويم الاردن، ولكن أيضاً بمنعه من المغامرة ضد جيرانه العرب. وهناك اعتبار مؤسف آخر اننا كنّا نتحمّل اللوم في اننا لم نحسّن الإدارة الداخلية في البلاد. وقد وجدت نفسي مضطراً بصورة دائمة ان أعرض بعض الحالات على الملك حسين في عدة مواضيع مختلفة والتي ليست لها ادنى علاقة بالمصالح البريطانية - ومنها ما له صفة نوعية محددة، كأن تحصل على انتخاب بطريرك ارمني بدل آخر. أو ما له نوعية عامة مثل منع التحيّز والرشوة!..

وقررت أن لا أتدخّل في مثل هذه الامور مطلقاً. فقد كان الملك حسين والزعماء الاردنيون ما زالوا حديثي عهد بعصر الوصاية البريطانية، وبذلك يكونون حسّاسين بنوع خاص حول مثل هذه التدخُّلات من قبلنا. صحيح أنني في بعض الاحيان كنت تقدمت ببعض الامور الإنسانية، وعلى سبيل المثال معارضة تنفيذ حكم الإعدام علناً في اشخاص حكموا في بعض الجرائم الإرهابية الصغيرة، إلا انني كنت دائماً أعارض بشدة التدخُّل بصورة عامة في السياسة الاردنية الداخلية، والاردن بصفته بلداً مستقلاً عليه أن يدير شؤونه الخاصة ويتحمّل أخطاءه بنفسه. وأنه لمن الرجعية بمكان، وابتعاد عن مسيرة الزمن، أن يكون لديه سفير بريطاني يحوم حوله كالمربية. طبعاً ما زال لدينا تاثير كبير في البلاد، لكن وجهة نظري هذه تتلخص في انه يجب معالجة الامور بتؤدة وبالتقليل من التدخل. وبهذه الطريقة فقط نحصل على أعلى درجة من النفوذ عند الحاجة إليه في منع الأزمات الخطيرة، مثل المغامرة المسلّحة على سوريا والتي بالكاد قد منعت في سبتمبر سنة ١٩٦٠ .

واودّ أن أضيف الآتي بين معترضين: في أواخر سنة ١٩٦٩ كان بقاء التأثير البريطاني في المملكة الهاشمية قد جلب نظر (دونالد ماكلين) غير المرضي في كتابه الجاد «المسح الماركسي - الشرقي للسياسة الخارجية البريطانية منذ السويس» (انظر عبارته المقتبسة من الصفحة التاسعة) التي يقول فيها «ولدى أصحاب النظرية الحتمية المطلقة، لا شيء يستوجب الزجر أو المضايقة اكثر من بلاد كان يجب أن تنتهي، لكنها ترفض أن تخضع أو تستسلم، إلا إذا كانت تتمثّل برجل تجعله صفاته الشخصية قادراً على إخضاع قوى يفترض فيها أن تكون عنيدة وقاسية، كما فعل الملك حسين عندما نجح فيما صنع، خلال الخمسة عشرة عاماً بعد سنة ١٩٥٧، وأن البلاد أو الافراد الذين يحطمون هذه القاعدة بهذه الطريقة، عليهم أن يتبيّنوا انهم يواجهون أقسى أنتقاد من المؤرخ المسكوبي»!...

وعندما قاربت مدّتي على الانتهاء في الاردن، وبينما كنت اقضي إجازة في لندن، بدأت اقدم للمسؤولين بعض الانعكاسات والآراء التي تكوّنت لديّ حول التطوُّر المعاصر على

الأقل... وكنت عندئذ أعلّق على حماسة بعض أصدقائي في محيط المحافظين، عن الطريقة التي سارت بها الأحوال في الأردن منذ نجاح تدخلنا العسكري هناك..

ملاحظات في مفكّرتي / مايو ١٩٥٩/٣١.

حقاً إنه لأمر مسلٍّ، ولكنه أيضاً محرج - ذلك هو الحال دائماً عندما يحصل الإنسان على مديح من أجل شيء لم يفعله. وآخر شيء حاولت أن أكونه هو أن أصبح (والياً أو باشا) في التقاليد «البريطانية - الشرق أوسطية»... ولقد حضرت إلى الأردن بنيّة واضحة هي أن أكون سفيراً عادياً تماماً في مركز عادي جداً، وبأن أعامل الأردنيين كما لو أنهم كانوا، ولنقل أوروبيين غربيين. ولكن، طبعاً لا أنا كذلك ولا هم كذلك أيضاً - إلا أن المحاولات والمساعي على كل حال كانت مجدية بالنتيجة. والخصُّ آرائي حول الموضوع فيما يلي:

١- هناك (مهمة كبيرة) على الغرب أن يقوم بها في بلاد كهذه البلاد.

٢- نحن البريطانيون من الدول الغربية، أصلح المؤهلين للقيام بالمهمة المذكورة في كثير من البلاد، من بينها الأردن.

٣- يجب أن تنفَّذ المهمة بهدوء وبتواضع، وأن لا نتّبع مطلقاً أو نتقمّص أسلوب «الوالي المهم».

٤- إني لا أنظر إلى هذه الإنجازات على أنها محاربة للناصرية، لا ولا حتى الشيوعية، ولا القيام بأي شيء يشبه الحرب الباردة، ولكن بمساعدة الشعوب في هذه البلاد في أن تعيش حياتها الخاصة بها وفي أحوال معقولة من الاستقرار والهدوء. وهكذا نوفّر لأنفسنا فرصة التدخّل لمراقبة التحسينات المادية والتي نتمتع بها نحن في الغرب...

وبصورة أعم، أعتقد بأننا يجب أن نحاول جهدنا كي نترفّع عن عقلية الحرب الباردة.. نحن قوم لا نرتضي بنوع الحكومات التي لدى الروس، وكذلك لا نحب أساليبهم في معالجة الشؤون الدولية، ولا نثق بشيء من نواياهم، هذا حسن، ولكن دعنا نبتعد عن طريقة تعاملنا نحوهم أو تصرفنا معهم وكأنهم مجموعة من «الزومبي» الإفريقيين!...

ولو أننا عاملناهم كأنهم مجموعة «الزومبي» تلك فسوف يتصرفون (كالزومبي) فلماذا لا نجرّب عوضاً عن ذلك بأن نقدر أنهم بشر مثلنا؟! وأن اعظم ما في الامر هو أن يعمل الطرفان على تهدئة خواطرهما واجتناب تهجمهما على بعضهما البعض وأن يضعا حداً للإتهام المتبادل بدوافع شيطانية، وأن يحاولا إيجاد لغة مصلحية مشتركة، وفي اعتقادي أن في مقدورهما أن يفعلا ذلك. والعقبة فيما أرى يعود قسم منها إلى أشياء عميقة في داخلنا، فقد كان هنالك دائماً التخوّف من «البرابرة» ونحن نشعر بالفراغ دون انشغالنا بهم، حالنا في ذلك حال المواطنين البيزنطيين في(كافافي)[1] الذين كانوا ينتظرون تسليم مدينتهم وإذا بهم يفاجأون انه لا وجود للبرابرة ابداً.

وعندما غادرت الأردن قمت بمحاولة هادفة موضوعية من أجل تنسيق النقاش مع الحكومة البريطانية «إما مع أو ضد» استمرار أسلوب سياستنا هناك. وأن العالم العربي، ولعلّه بذلك أكثر من اي منطقة اخرى يتطلب معالجة فلسفية، وتساؤلاً مستديماً عن ادعاءات أو افتراضات مقبولة. لقد كان الأردن في سنة ١٩٦٠ ما يزال بعيداً عن الاستقرار، وكان أسلوبه الحاكم موضوع انتقاد في مختلف المجالات، وعندما عملنا مع حكومة الولايات المتحدة الامريكية لمساندته، عرضنا أنفسنا إلى هجوم عنيف من المعجبين بالرئيس عبدالناصر، ومن الطرفين البريطانيين والعرب. ولو كان اسلوب حكم الملك حسين قد انهار، (وبالنظر لضعف كيانه الموروث، كان يمكن بسهولة أن ينهار)، لرايت استقبال ناصر في عمان تدوي به الهتافات، ولكانت الطبقة المدنية الجبانة في المنطقة قد تسلّمت الحكم، وكذلك لانعدم إمكان إيجاد اي من المناصرين للمملكة الهاشمية السابقة!.. وفي مثل هذا الموقف كانت الحكومة البريطانية ستسأل كيف يمكنها أن تبرر سياستها في مساعدتها لتمكين مثل هذا الاسلوب الفاشل من الحكم في السلطة ضد رغبات الجماهير الأردنية. وبالنظر لمثل هذا الانتقاد واقعياً كان او افتراضياً، الم يكن من الاحجى والافضل لو أننا سحبنا معونتنا للملكية الهاشمية، وندع موجة المستقبل هي التي تتسلم الزمام!..

---

(١) CAVAFY مدينة بيزنطية قديمة.

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك مدرسة للرأي في لندن، ترى أسباباً أكثر إيجابية للاعتراض على سياستنا في مساندة الأردن. أولها أنها خلقت سوء التفاهم، ليس في القاهرة فحسب ولكن بصفة عامة بين أولئك العرب من ذوي الحساسية السياسية الذين اعتبروا علاقاتنا مع الأردن كشاهد على إصرارنا وتصميمنا للاحتفاظ بتثبيت أقدامنا الاستعمارية داخل الأبواب العربية. وكانت الحكومة الأردنية تتمتع بشهرة معروفة بأنها «لعبة الغرب»، ويعني هذا أننا نجني أسوأ السمعة في كلا العالمين؛ فقد ظنّ الناس خطأً أننا المسؤولون عن تصرّفات الأردن، وجعلنا الأمر أكثر صعوبة كي يقنع العرب بأن مبدأنا الرئيسي هو الامتناع عن التدخل في الشؤون العربية.

ثانياً: كانت علاقتنا مع الأردن قد أزعجت بعض الأوساط من ذوي الآراء الحرّة في الغرب الذي تساؤلوا إن كانوا من الحكمة أن يميّزنا الناس بتقاربنا مع أسلوب الحكم الأردني الذي حافظ على بقائه في السلطة بواسطة القوة المدعومة بمساعدة الغرب.

ثالثاً: كانت سياستنا تلك تكلّفنا. أموالاً طائلة، في الوقت الذي كانت الدعوة إلى مصادرنا لاستثمار أموالنا في الإنشاءات فيما وراء البحار، تزداد يومياً.

وبالنظر إلى نواحي هذا النقاش، فقد كان هناك شعور قوي في لندن بأننا يجب أن لا نهدف إلى الحفاظ على أسلوب الحكم الأردني، ولكن لنمنع الانهيار والفوضى في تلك البلاد، ويجب أن لا نزج أنفسنا في موقف يكون فيه أي تغيير في أسلوب الحكم أو الوضع في الأردن يعتبر خطوة معوقة في السياسة البريطانية بسبب علاقات ذلك الحكم مع هذه البلاد. وفوق ذلك فإن مفهوم الملك حسين من المشاركة البريطانية - العربية كانت من وجهة نظر لندن، قد فقدت معظم جاذبيتها. وكان لا يمكن التوفيق بسرعة بينها وبين الحاجة إلى الانفصال متى كان ذلك ممكناً بسبب النزاعات المحلية في المنطقة والتي لم يكن العالم العربي يريدها بصفة عامة.

ومن الناحية الثانية فإني أعتقد بأن الأسباب التي كانت في مصلحة سياستنا يمكن تلخيصها بما يلي:

أولاً: لو كان عبدالناصر قد استولى على الاردن، فإن ذلك كان سيجر إلى رد فعل إسرائيلي، الذي بدوره سيخلق بسهولة ازمة لا يمكن ضبطها. ومن وجهة النظر هذه فإن المساعدة الانجلو-امريكية إلى الاردن تمثّل بوليصة تامين رخيصة، ضد خطر حقيقي من اندلاع حرب عامة.

ثانياً: صحيح أن الحكم الاردني كان غير مرغوب وغير مستقر، لكنه ليس كالحكم في سوريا أو العراق أو السعودية العربية في ذلك الوقت، والتي كان أسلوب حكمها ايضاً غير محبوب ولا مستقر، بدرجات متفاوتة، لذلك كان للأردن اعتباره الخاص بطلب مساعدتنا. وكان الاردن مشهوراً بموالاته للغرب، وقد قام الملك حسين بتجربته الحيادية في ١٩٥٦ - ١٩٥٧ وقرّر مباشرة بعد ذلك ومن وحيه الخاص العودة إلى المعسكر الغربي. واستحق الحكم الاردني الحماية الممكنة من الغرق في الطوفان العام، وفي هستيريا النعرة القومية العربية المتطرّفة!..

وثالثاً: كان لنا مركز سائد متسلّط في عدن وفي الخليج، الذي كنّا نقصد في ذلك الوقت أن نحتفظ به. وكان من المؤكد أن يتطوّر أو ينفض، ولكن لم تكن عندئذ لدينا رغبة في التخلي عنه. ولذلك ما دام عبدالناصر كان ينوي أن يسيطر على العالم العربي بنفسه، فقد كان علينا أن نفترض بأن هناك تباعداً في المصلحة غير مسالم بيننا وبينه. ولو كنا مستعدّين أن نتخلّى عن مراكزنا في القسمين الشرقي والجنوبي من الجزيرة العربية لكان ذلك منطقياً ومعقولاً في أن نسحب مساعداتنا من الاردن لكي نسترضي عبدالناصر، علماً بأنه مع هذا سيبقى العامل الإسرائيلي موجوداً، وبهذا تبقى وجهتا النظر السابقتان تحتفظان بقيمتهما وقوتهما. وفي ذلك الوقت لو كنّا تخلّينا عن الاردن إلى عبدالناصر لكان محتملاً جداً أن يكون رد الفعل عنده: «اشكركم على لا شيء، ثم ماذا عن عدن والخليج؟... وفي الواقع ربما كان عبدالناصر راغباً عن الاردن في ذلك الوقت كثيراً. ولذلك وبالتاكيد كان يجب أن لا نستعطفه بأن نترك البلاد تقع فريسة بين ذراعيه.

رابعاً: كان المعجبون بعبدالناصر، من بريطانيين وعرب، يرغبون في أن ينظروا إلى

الأمور بطريقة مبسّطة فوق العادة، والتي اشتبهت بأن الكولونيل ناصر كان أكثر واقعية لأن يشارك في هذه النظرية. وعندما اقتنعوا بأننا يجب أن نتخلّى عن الأردن إلى عبدالناصر كانوا غالباً ما يفترضون بأن الأردن، ومصر، وسوريا سوف تعيش بعد ذلك سعيدة إلى آخر الدهر، ولسوء الحظ لم يحسب أصحاب هذه النظرية حساباً للنواحي الاقتصادية والمالية، ففي ذلك الحين كانت المحافظة على بقاء الأردن تعني المساعدة الانجلو-أمريكية بما تبلغ قيمته (١٧ر٠٠٠ر٠٠٠) مليون جنيه في السنة - ولم يكن عند عبدالناصر مثل هذه المبالغ، حتى أنه أخفق في دفع الخمسة ملايين جنيه السنوية التي تعهد بأن يدفعها إلى الأردن، بموجب اتفاقية التعاون العربية سنة ١٩٥٧ . ولم يكن أيضاً من السهل التصوّر بأن الحكومتين الإنجليزية والأمريكية تدفعان (١٧) مليون جنيه لعبدالناصر سنوياً ليدعم ذلك القطاع، أي القطر الأردني من الجمهورية العربية المتحدة!... ولذلك نجد أنفسنا بسرعة دون أدنى تأخير، تجابه يوم دفع الرواتب آخر الشهر ولكن بدون رواتب، لا للجيش ولا للشطرة. ويتحطم النظام العام، ويصبح من الصعب السيطرة على (٢٠٠ر٠٠٠) فلسطيني من اللاجئين الذين يعيشون في المخيّمات، ويصعب على السلطات الناصرية عندئذ أن تسيطر على الموقف، وبالتالي يصبح كل شيء وكل إنسان من الغرب هدفاً لنظام الجماهير. وبذلك تنسب مسؤولية الفوضى بشكل عام إلى الحكومتين البريطانية والأمريكية. وبالحقيقة لم نقم نحن البريطانيين بالحكم في الأردن بصورة مباشرة أو غير مباشرة لعدة سنوات. وكانت لدينا مع الأمريكيين مسؤولية تاريخية في هذا الجزء من العالم - المسؤولية البريطانية هي خلق شرقي الأردن، والمسؤولية الانجلو-أمريكية هي خلق إسرائيل تلك المسؤولية التي لا يمكننا أن نتملّص أو «نزوغ» منها حتى الآن. وعدا عن المخاطر الحقيقية المترتّبة على هذا، فإن الفوضى في هذه المنطقة ستسبب بذلك ضرراً لرصيدنا القومي.

وفي الأحوال التي سادت خلال ١٩٦٠ تبيّن لي أن هذه المناقشات تبرر استمرار الدعم البريطاني لاستقلال وسلامة الأردن تبريراً كاملاً. وكان هدفنا أن نحافظ على الأردن لكي

يبقى ليس إلى ما لا نهاية، ولكن إلى أن يتمكن من أن يندمج في كيان عربي أوسع تحت أسس تتفق مع العالم غير الشيوعي، بما في ذلك العرب أنفسهم. وهذا يستلزم، من ناحية الكيان الأوسع، على أقل تقدير وجود حالة أو جهة من الصداقة المحايدة نحو الغرب. وسوف يتضمّن ذلك أيضاً رغبة في التعايش مع إسرائيل...

وبصورة خاصة أعتقد بأننا نخطىء لو سمحنا لأنفسنا بأن نتأثر كثيراً بتعريف القومية العربية وعبدالناصر، كما يبثّها راديو القاهرة المسير، وصحافة بيروت. وكان هذا التعبير في الماضي قد جاز تقريباً كلّه على المطبوعات البريطانية والأمريكية التي تكتب عن هذه المنطقة. وكذلك جاز هذا التعبير على وزارة الخارجية والمصالح الخارجية الأمريكية، ومع ذلك وفي المدّة الأخيرة فقدت هذه المدرسة الفكرية الكثير من أسبابها تحت تأثير الأحداث..

وأعتقد أن مجمل الأحوال كان تقريباً ما يلي: كانت القومية العربية قوة - كان لا بد لنا وبكل بساطة أن نعترف بها فلا نتجاهلها، وإذا ما تصرّفنا بصورة صحيحة، فإن ذلك لا يستثني مطلقاً تأسيس تقارب معقول من المشاركة البريطانية العربية، بشكل أو بآخر، في تلك المناطق من العالم العربي، والتي كانت - أي هذه المشاركة - قد تعددت في الماضي بيننا وبينهم.. هذا وإن اليأس من التوفيق بين هذه المشاركة مع القومية العربية يبدو وكأنه انهزامية محضة، ترتكب من أجل تعريف خاطىء لمثل هذه القومية، وهي عملية طويلة المدى، مع قصر المدة وتنوع الدعاية المقاومة لبريطانيا، والتي نظمّها ناصر وحكمه. وبصورة خاصة فقد اعترضت بقوة على النظرة الحتمية للتاريخ التي تؤكّد انتصار القومية في مختلف جوانبها الناصرية أو بالتالي الشيوعية، في العالم العربي، وأن ذلك الانتصار كان مقدّراً لها!. وكانت قناعتي أنه لا يوجد هناك شيء محتوم في تلك المنطقة وأن جميع القضايا يجب أن تقدّر في حينها وبحسب استحقاقها.. وما رغبت في أن أحشو مفهوم الشراكة في جوف (الهوايت هول) كحل لجميع المناطق في العالم العربي. إلا أنني طلبت فقط من السياسة البريطانية في المنطقة ككل بأن لا تتأثر بالافتراض البديهي بأن مركزنا الخاص هناك كان أو يجب أن ينتهي. وافتراض كهذا بنظري هو افتراض

خجول ومتشائم بدون ضرورة. وكان أحد أسوأ الأمور التي وقعت لنا منذ الحرب وبصورة خاصة أكثر من السويس، هي أننا فقدنا الثقة بقدرتنا على معالجة المواقف. وبالفعل كانت خيبتنا في السويس قد تركت جرحاً أعمق في نفوسنا مما تركته بين العرب.

وقد كان البريطانيون أنفسهم، لا العرب، هم الذين فقدوا الثقة في بريطانيا. والدليل على ذلك يمكن ملاحظته فيما يجري خارج الوطن حيث - وبدون ان نتحدث عن مناطقنا ذات النفوذ الخاص في جنوب الجزيرة العربية أو في الخليج الفارسي، فقد استمر تمتعنا بالسمعة الكريمة والنفوذ الكبير، ولناخذ السودان مثلاً، وكذلك في بلاد العراق (بعد الثورة)، والفضل الاكبر في ذلك يعود إلى قوة الشخصية في سفيرين ممتازين (تشابمان اندروز)، و(تريفيليان). ولا يمكننا ان نامل من مثل هذا الوضع ان يستمر عندما يلاحظ العرب انه بالرغم عن مبلغ احترامهم لممثلينا في الخارج، فقد كانت هناك خسارة لا تعوض من فقدان الثقة في بريطانيا نفسها!..

وقد تقبلّت وزارة الخارجية «فركة الأذن» هذه،، قبولاً حسناً وبصورة مستغربة، ولكن ذلك لم يكن له أدنى تاثير على سياستهم.

وكما هو الوضع الطبيعي على السطح المتقلّب الناعم للتاريخ الحديث، فإن هذه المناقشات الإيجابية التي أوردتها سابقاً، تبدو مختلفة تماماً في سنة ١٩٧٢، أي بعد اثني عشر عاماً. فإن الاعتبارات حول عدن لم تعد تطابق الوضع، وكذلك لا يكاد ينطبق الحال على الخليج. لكن النقاش الأول حول مخاطرة الانزلاق إلى حرب عامة قد رجّح كثيراً بالنظر للمشاكل التي اكتنفت الأحداث الماضية. وقد رأينا إسرائيل في ١٩٦٧ تغزو القطاع الأردني في الضفة الغربية والمدينة القديمة في القدس دون حدوث ما يشبه الاقتراب من اشتعال لهيب حرب عالمية عامة. وكان سبب هذا، انه منذ أزمة كوبا سنة ١٩٦٢، كان التوتر المتطرّف، في الوقت الحاضر على الأقل، قد خرج عن طور المجابهة بين أمريكا وروسيا. ولو كانت الناصرية في أواخر الخمسينات في الموقف الأكثر انفجاراً في العالم، تسلّمت أو استولت على الأردن، ونتيجة لذلك دفعت إسرائيل للقيام بإجراء عسكري

مضاد. فإن خطر الاندلاع يكون خطيراً للغاية، وفي النظرة البعيدة فإن إجراء الحكومة البريطانية في مساندة استقلال الأردن قد أثبت بوضوح بأنه أجّل الصدام بين إسرائيل والعرب. ثم تأخّر، وأخيراً تعطّل تماماً كما حصل في حرب «أرماجيدون - ستارتر»[1]، وذلك بنتيجة تحسّن العلاقات التي نشأت بين الدول الكبرى منذ سنة ١٩٦٢، وهذا لا يعني أن الشرق الأوسط لا يستطيع الآن أبداً أن يبدأ بالتسبب بانفجار عالمي. ولكن على أقل تقدير فإن حجب انفجار كهذا في سنة ١٩٥٨ لم يضع نهائياً كسب أعوام أخرى للسلام.

(١) Armageddon - Starter هي موقعة خيالية تأتي في نهاية العالم بين الخير والشر. (وهي إحدى تنبؤات الكتاب المقدّس)



الفصل الخامس والعشرون

الختام

كان الأردن منذ قديم الزمان منطقة قتال بين القوى القادمة من الشمال والزاحفة من الجنوب. وكانت «عمان» تدعى رمزياً «فيلادلفيا» وذلك تبعاً لاسم (بتلومي فيلادلفيوس). وكانت جرش وهي تبعد بضعة أميال إلى الشمال، تدعى «أنتيوك أون كريسورهوس» تبعاً لاسم الحاكم الروماني «سيليوسيدانتيوكي» الذي حكم سوريا. وكانت تشبه الحدود القوية المصرية والسورية التي تقع في مكان ما بين المدينتين المتجاورتين - ولعلّ ذلك كان على طول الضفة المزروعة بشجر الدفلى لنهر الزرقاء، أو في المنطقة البرية التي وصفها (دوتي) وصفاً رائعاً (أنظر العبارة المقتبسة على الصفحة التاسعة)، «أحراش جبال عجلون الشاهقة».

وعندما يمتد بك البصر إلى عمان من فوق التلال المجاورة، فإنك تراها تنتشر بأناقة واندماج محكم وكأنها نموذج مثالي. وفي الوادي الضيّق الذي يتصاعد منه الدخان في الوسط يقع (السوق) حيث يبدأ الشغب عادة، وتقع فيه المآذن الأنيقة التي ترتفع من وسط جامع الملك عبدالله. وفي المقابل ترى الركائز المستديرة من التلال تحمل عليها المصطبات الجبلية التي أقيمت عليها البيوت الحجرية المصنّعة (المدقوقة). وعند انعكاس بعض الأنوار، مثلاً تحت السماء المكفهرّة عند غياب الشمس، يضفي منظر المدينة في هذه المرتفعات على الإنسان وحياً عجيباً، ففيها مسحة من فن (جريكو توليدو) الرسام الإسباني، وفيها مشابه من القدس - وهذا الشبه بالمعنى التاريخي ينطبق على عمان، التي يعود نموّها الصاروخي من قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة فقط حتى سنة ١٩٤٨، مع

مجيء تلك الموجة الكبيرة من الفلسطينيين المشرّدين. ومن خلف واجهتها المطرّزة «بالمصاطب» تشع التلال في المركز التجويفي كأنها (نقطة المركز في الدائرة) ومن فوق قمة جبل عمان يقع «الميل المرمري» من السفارات الاجنبية والعمارات الخاصة الغنية التي تستمر حتى قصر زهران الذي كانت تعيش فيه الملكة زين والاطفال الملكيون، محاطين بالمربيات الإنجليزيات وجنود المشاة البدو. اما جبل اللويبدة فهو موطن السفارة الامريكية والجالية الامريكية[1]، ويمتدّ الجبل إلى عمارة الثكنات العسكرية وجامع المعسكر في العبدلي، وهناك حامية عمان وتحتها تقع رئاسة الأركان العامة للجيش، ثم يتلو التجويف طريق السلط وكان فيها الوزارات بما في ذلك مكتب رئيس الوزراء، حيث لاقى هزّاع المجالي حتفه، ثم يرتفع الطريق تدريجياً إلى جبل الحسين مع قلعته الرومانية العابسة - (وقد وصف اميانوس مارسيللنيوس) عمان باللغة اللاتينية الحديثة بأنها «فيلادلفيا التي تحميها حوائطها القوية»، ومن خلف المدرج الروماني يرتفع جبل الهاشمي مع صحن حصنه المنيع وغاباته وقصوره، وقبة قبر الملك عبدالله والمدرج المدور «المزفت» المعد لطائرة الملك (الهليوكبتر)، ويأتي مباشرة بعد ذلك بيت السفارة البريطانية الذي تحجبه الاشجار، ثم خيام كتيبة حرس الشريف ناصر منتشرة كأنها معسكر من «لعب الجنود» وخلفهم الطريق الجديدة والتي بواسطتها يمكن تعزيز الكتيبة من الخارج عند الحاجة. ومن بعيد وعلى اليمين يقع المطار وقيادة الضباط السابقة لمركز سلاح الجو الملكي البريطاني والبيوت المتفرقة على الطريقة الهندسية (بنجالوز) موضة ١٩٢٠ تتجمع حول برج المياه - وخلف هذه جميعاً يقع المدرج يلمع أزرق تحت الشمس وبجانبه مخيّمات كتيبة البراشوت منذ ١٩٥٨ . وخلف هذه أيضاً، وعبر الصحراء الشاسعة تمتد بعيداً طريق الزرقاء، والمفرق ودمشق وبغداد.

وتنتشر عمان، الحافلة بالذكريات والمواقع من الاسفل إلى الخارج، كمدينة رومانية صغيرة هائجة، من مدن الامبراطورية الرومانية، وغالباً ما يشعر الإنسان في العالم العربي بأنه قريب جداً من الجو البيزنطي. وهناك الملك الشاب الذكي، والملكة الوالدة الرائعة

---

(١) انتقلت حديثاً السفارة إلى مبنى آخر في جبل عمان.

الرقيقة، والبدو المرتزقة، والمتآمرون في الخيام وفي الاسواق، والمتآمرون من مدبري المكائد، من رجال الدولة ومن الوجهاء. والهيئة كلها وكأنها تأتيك من صفحات المؤرخ البيزنطي (بروكوبياس) أو من صفحات «آنا كومنينا». ومهما تكن آمال ومطامح البقاء فإن جهاد المملكة الهاشمية خلال الأعوام الماضية، والذي كان في الغالب ضد قوى يائسة مستهجنة، كان في نظري وبصفتي مراقباً، شيئاً شديد الفتنة والسحر الناجم دائماً عن التاريخ الحديث مهما كان المقياس صغيراً. وأن القدرة والعزم اللذين أبداهما الملك حسين، وسمير الرفاعي وهزّاع المجالي، ما زالت تستحق التسجيل التاريخي لما انجزوه، ولو كانت النهاية جاءت بالهزيمة.

وعندما أعود للتفكير فيما مضى، أجد أن الحياة في عمان، لها طعم غريب فوق العادة. مثلاً، عندما كنّا نعود إلى البيت من رحلة إلى القدس بعد الظهر، كنا نجلس (زوجتي وأنا) في المقعد الخلفي بالسيارة الأوستن، وكنا نرى حولنا حزاماً من أشجار الجوز، ونتذوق طعم الحياة الريفية، ونشعر كأننا في ستوديو مسرحي منتظم في قاعة مرسم فسيح في بريطانيا...، وفي مرات أخرى، عندما كنّا نتطلّع من السيارة إلى الخارج كانت أنظارنا تقع على الأرض الممتدة الصحراوية من شرقي الأردن، بظلال غيومها الزرقاء (الأوكسفوردية)، وبالجو الفسيح اللانهائي المفعم بالعظمة، كنت أفكر بأنني لست محباً فقط لهذا المكان ولكنني أيضاً تزوجته والسلام، بل وإنني أحتفظ به للأبد. وما زلت كذلك في السنوات التي تلت - وكنت أفكر بكل هذا بعد تناول طعام الإفطار في صباح أحد أيام يناير الرطبة في لندن، والأنوار ما زالت مضاءة على الميدان، الذي يظهر واسعاً رحباً في الصيف، ويقع خلف ستار من الأشجار، يتكشّف الآن من تعرية الشتاء له، وكأنه صندوق مستطيل الشكل، ونعيش فيه محصورين..

ولقد كنت في جنوب الجزيرة العربية، ولكني لم أتزوجها بنفس الطريقة تلك، ليس لأنها كانت أقل جمالاً، ولكن لأني عرفتها فترة أقصر، ذلك لأن الرحلات هناك إلى المناطق المرتفعة كانت تمرّ بسرعة، وبالواقع لا يكاد الإنسان يمرّ بنفس المنطقة مرّتين. أما في الأردن فإنك تسير بصورة مستمرة على بعض الطرق، حتى تصبح جزءاً من حياتك، كل

واحدة منها لها طابعها الخاص ولها سحرها الخاص. وأن التسلق البطيء خارج جرش إلى أن تصل القمة، حيث تأخذ المناظر بمجامع القلوب، تتطلع أمامك ويقع نظرك على سوريا تظهر منبسطة من بعيد، كأنها صحيفة من الورق. ومع الشمس تلمع على الجوامع والمآذن في منتصف الطريق إلى دمشق، وكذلك منظر سنام جبل حرمون (جبل الشيخ) الذي تكسوه الثلوج، ثم الشعور الرائع من الارتياح، ثم بالمخاطر وكأنها تؤمىء إليك. أو الطريق التي تخترق الصحراء إلى الأزرق، ثم البرجين التوأمين من خلفه التابعين للبوليس تراهما يعلوان وكأنهما أذنان ترتفعان من وراء الأفق إلى كبد السماء، ثم بعد ذلك، وفجأة ترى البرك المنتشرة وأشجار النخيل، ومن بعيد تبرز بيوت الدروز البيضاء في القرية، وكان النظر إلى ذلك كلّه وهو يسبح في جوّ من الهدوء المسيطر كالتمثال في نور الواحة، كان شيئاً لم يحدث ولن يحدث هناك في هذا العالم، بالمعنى الحرفي...

ولم أعد للأردن منذ ذلك الحين، ويظهر الآن أنني لن أعود، ذلك أنه أصبح أشياء عديدة بالنسبة لي، وأنا أعلم أنني لو رأيته مرة أخرى فلسوف تدمع عيناي. كان الثبات وكان الحماس، كانت الحيرة، وكان الفوز - لكن ذلك كله كان شيئاً رائعاً جداً، وكان شيئاً جامعاً وكان نائياً:

إنها بلاد تقع خارج حدود الزمن

الفهرس

First Edition

1996

P.O.Box 6140 - Tel 696218, 696588, 697687, 697359 Fax. 696598

AMMAN - The Hashemite Kingdom Of Jordan

PUBLICATIONS OF THE MINISTRY OF CULTURE

THE BRINK OF JORDAN

By

Sir Charles Johnston

Translated By

Dr. Fahmi Shamma

THE HASHEMITE KINGDOM OF JORDAN
AMMAN 1996



الأردن على الحافة

تأليـــف

السير تشارلز جونستون

(السفير البريطاني السابق في عمان)
(١٩٥٦ - ١٩٦٠)

ترجمة وتعريب

الدكتور فهمي شما

المملكة الأردنية الهاشمية - عمـــان
وزارة الثقافــة / شارع وصفي التــل
هاتف، ٦٦٢٢١٨/ ٦٦٥٨٨ - ص.ب، ٦١٤٠